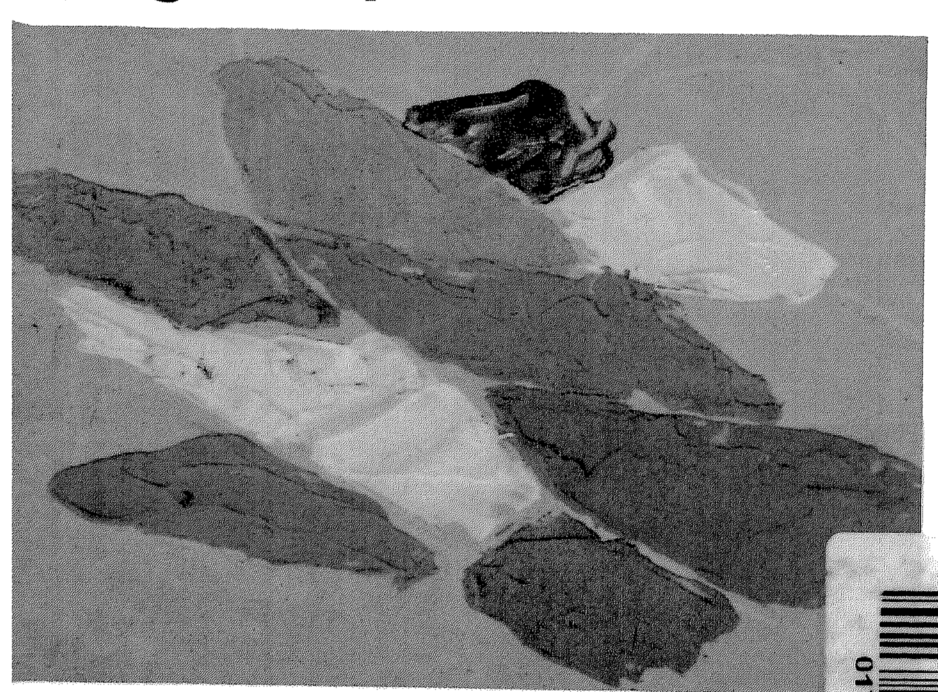


عـودة الاستعمار

من الغزو الثقافي إلى حرب الخليج



رياض نجيب الريّس

عبدالرحمن منيف فاضل العزاوي كمال أبوديب جورج طرابيشي
أنسي الحاج محمّد برادة صبري حافظ غالي شكري
عزيز العظمة سميح القاسم شوقي بغدادي محمّد الأسعد

RIAD EL-RAYYES BOOKS
رياض الريّس للكتب والنشر







عَودَة الاستِعمَار

من الغزو الثقافي إلى حرب الخليج



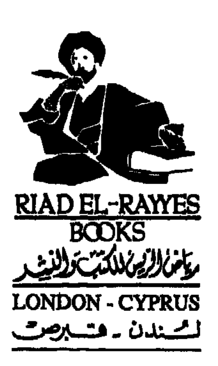
سلسلة كتاب الناقد

عَوْدَة الاسْتِعْمَار

من الغزو الثقافي إلى حرب الخليج

رياض نجيب الريّس

عبد الرحمن منيف — صبري حافظ
فاضل العزاوي — غالي شكري
كمال أبو ديب — عزيز العظمة
جورج طرابيشي — سميح القاسم
أنسي الحاج — شوقي بغدادي
محمد برادة — محمد الأسعد



RETURN OF COLONIALISM

From Cultural Invasion to the Gulf War

BY

VARIOUS AUTHORS

First Published in the United Kingdom in 1991

56 Knightsbridge
London SW1X 7NJ
U.K.

CYPRUS: P.O.Box: 7038 - Limassol

British Library Cataloguing in Publication Data available

ISBN 1-85513-116-1

الطبعة الأولى: تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٩١

المحتويات

اشارة

يسلط هـذا الكتـاب ضـوء الفكـر عـلى مـا حـدث في الخليـج وما حـدث في العالم عشيـة وإبـان وغـداة الحرب المدمـرة «عاصفـة الصحراء»، ومـا انطلق معها من تعبـيرات شاعت ودلّت على الوجهة التي سوف يسلكها العالم بقيادة الـولايات المتحـدة الاميركيـة، كحقيقة واقعـة فرضتهـا الولايـات المتحـدة، ثم راحت تعمل على رفعهـا إلى مصاف الفكـرة المثاليـة وكانهـا اليتوبيـا البديلة للقرن الواحد والعشرين.

هنا، في مقالات هذا الكتاب وجهـات نظر وانطبـاعات وآراء عـدد من ابـرز الكتّاب والمفكـرين العرب، الـذين شغلتهم الحـرب في الخليـج كحدث دراماتيكي عاصف سبقته ومهدت له ورافقتـه أحداث كبـرى، سـوف تترك آثـارها المختلفـة على تطـور المجتمعات في العـالم، بـدأ بعضها يظهر منذ الآن.

ان موت الايديولوجيا، وسقوط الشيوعية، وتفكك الاتحـاد السوفياتي كقوة عظمى، وما سبق من انفـراط عقد التحـالف الاوروبي الشرقي، وانتقـال دولة من مـوالاة الماركسيـة الى اعتماد النظـام الاقتصـادي الحرّ، كل هذا وغيره من احـداث جسام شهـدها العـالم، عكس نفسه ظلالاً رمادية على الـوطن العربي الـذي استيقظ غداة حـرب الخليج على واقع جديد ينذر باوخم العـواقب، ليس أقلّها تفكّك ما تبقى من عرى الوحدة المعنويـة للعرب وسقـوط فكرة وحـدة المصير .

هنـا، في هذا الكتـاب محاولات جـدية لاعمـال الفكر في هـذا المنعطف

التاريخي الذي يمرّ به العالم، وتمّر به المنطقة العربية لا سيما، أن هذه المحاولة الفكرية تشركنا في البحث حول بعض ابرز القضايا التي تشغل المفكرين وتشغل الفكر العربي، ومنها قضية الحرية وحرية التعبير، وقضية التطور الاجتماعي والسياسي للانسان العربي، من أجل وجود انساني رحب ومنفتح، يتجاوز في مغامرته الحضارية المعاصرة، المصاعب الجمة التي طرحتها على الحياة العربية خلال هذا القرن تحديات التطور، تقابلها على المستوى الاجتماعي الامراض المتفشية في البيئات والمجتمعات العربية بفعل انتشار التعصب الديني والسلفية المغلقة والإرهاب الفكري والسياسي الذي يمارسه نمط من التفكير الاحادي، أكان مصدره الدولة الشمولية ذات الطابع الدكتاتوري ، أم الجماعات الايديولوجية ذات الفكر الغيبي ذي النبرة القمعية المعادية في جوهر خطابها لكل اختلاف في الفكر والراي.

كذلك يثير هذا الكتاب قضية الديمقراطية واثرها في تطور المجتمعات العربية، ودور العنصر الاسرائيلي في قطع الطريق على تحديث المجتمع العربي وانظمة الحكم فيه، كحجة تتذرع بها الأنظمة، وكسبب فعلي للتعويق.

اخيراً، لا بد من الاشارة إلى ان نصوص هذا الكتاب نشرت كلها في «الناقد» وشكّلت مادة للنقاش، عبّرت عن نفسها احياناً في مقالات مضادة أو مخالفة أو موافقة، واهمية اجتماعها هنا تنبع اليوم من كونها بانوراما حية للفكر استباقاً لوقوع الحدث ومواكبة لمساره ومحاولة للتوقف عند نتائجه.

الناشر

رياض نجيب الريس

الأرض خراب
والرجال جوف
والمشاعل مطفأة!

منذ سقوط غرناطة، والزمان العربي لم يقهر بمثل شراسة اليوم. ومنذ ضياع الأندلس، ليس في التاريخ العربي شتات مثل شتات اليوم. ومنذ ٢ آب (اغسطس) ١٩٩٠، والكلام العربي بيداء قاحلة. لذلك اسمحوا لي أن أكتب إليكم بلغة منقرضة، لغة الوطن العربي الواحد في عصر الظلمات الجديد.

وسّعوا صدوركم.

واسمحوا لي بلغة سقطت من التداول منذ أكثر من ربع قرن. لغة لم يعد هناك قاموس يحتويها. افتحوا «لسان العرب» أو «محيط المحيط» أو «المنجد» أو «المورد» أو أي قاموس تختارون، وفتشوا عن مفردة واحدة من مفرداتي فيها. لغة أحيلت إلى متاحف التاريخ وعلماء الآثار. بالكاد تدرّس اليوم في مدرسة من مدارس الوطن العربي، من محيطه إلى خليجه، أقلت الوطن العربي؟ ألم أقل لكم إنها لغة منقرضة. أين تجد في قواميس اليوم تعريفاً للوطن وتعريفاً للعربي؟ أنا لم أعد أعرف مرجعاً تُتداول فيه اليوم هاتان الكلمتان.

وسّعوا صدوركم أكثر واغفروا لي إن حدثتكم بلغة لم تعد متداولة اليوم لا في أوساط الحكام ولا في أوساط الشعوب. لغة

القومية الواحدة، ولغة الانتماء إلى وطن واحد ومصير واحد وعروبة واحدة. لغة غابت أو انزوت من أقلام المثقفين والنخبة. لغة التاريخ الواحد والثقافة الواحدة. لغة الحوار الحر ولغة الديمقراطية والتعددية. لغة الاختلاف ولغة التسامح. لغة المنبر العريض لا لغة الرأي الواحد المُنْزَل. لغة لم تعد تفهم معناها الشعوب العربية (وهل أجسر اليوم أن أقول شعباً عربياً واحداً). لغة أسقطها الحكام، منذ وقت طويل، من التداول.

وسّعوا صدوركم.

في لغة التصريح لا في لغة التلميح، كنا نحذّر في «الناقد» - منذ أن صدرت لتكون الصوت الطليعي والمنبر الديمقراطي لكل ما هو أصيل وجديد وخيّر في القَدَر العربي - من الوقوع في عصر الظلمات الجديد، ونحن نخوض في كل ما نُشِر فيها حرباً عبثية ضد طواحين هواء النيو - جاهلية. وكان هناك دائماً حياة لمن نادينا. لكن المحظور قد وقع والكارثة حلت والسد انهار وحلم النهضة العربية قد وئد. وضاعت الأماني - كل الأماني - في متاهات الرمال العربية، حيث لم يعد هناك آثار لأقدام أمجاد مرت من هنا. وأصبح الوطن مسيّجاً بالغزاة، مزروعاً في عراء الذل، نائماً من وهج الفضيحة. وإذا بالقلب قد انكسر، ورايات الهزيمة - ونحن نحسبها نصراً - قد رفعت. وإذا بالنكبات خبر عادي، قد رُوّضنا عليه، معتبرين أن ما سيلحق هو أسوأ مما تقدم. ورضينا بالهوان كما لم يرض أحد به.

أهذه كربلاء جديدة أم عاشوراء متحركة؟ لا. إنه الجرح الذي لن يلتئم والكسر الذي لن يُجْبَر. بل هي النار التي ستحرق كل أرضنا الخراب ورجالنا الجوف، فتطوي كل سفننا أشرعة التفاؤل وتحطم صواريها وهي تبحر في يمٍّ مظلم جديد، من دون أن يكون حتى الشيطان بديلاً.

وسّعوا صدوركم.

في لغة التعصب من الممكن أن نرفع أيادينا ونَتّهم. أشهر عجاف ثمانية مرت، وسيف الاتهام مشهر في وجه كُل مَنْ خط حرفاً في هذه الأزمة ـ العاصفة. وإذا بنا كلنا متهمون بلغة الصوت العالي وبلغة الهمس معاً. واحتار الكثيرون منا وتساءلوا: باتجاه أي قبلة نصلي؟ فلقد تعددت الآلهة وكثرت الفتاوى وازداد الخلاف في فقه هذه المرحلة حول عدد الملائكة، بينما العدو يدكّ أسوارنا. ولم يعد «الاستعمار الجديد» مقولة ترفعها أحزاب معينة، ولا شعاراً تندد به تظاهرة في شارع عربي. لقد أصبح الاستعمار استعماراً حقيقياً وواقعاً ملموساً. كل ذلك دون أن نرفع صوتاً واحداً تساؤلاً، إن لم يكن احتجاجاً، ودون أن نحمل سوطاً واحداً في وجه الغزاة الجدد.

سؤال وحيد يعلو على كل سؤال: ما هذا المأزق؟ وإذا بجواب يتيم: أي مأزق؟ هل فعلاً هناك مأزق؟ بل عن أي مأزق نتحدث. هل هو مأزق جديد؟ مأزق مَنْ؟ مأزق السلطة أم مأزق الشعوب؟ مأزق الكتّاب والمثقفين أم مأزق الناس العاديين؟ مأزق مفتعل أم مأزق حقيقي؟ سؤال وراء سؤال وراء سؤال. وإذا بالصمت القاتل هو الجواب، ونحن نتهرّب باللف والدوران حول الكارثة التي وقعت، وكأنها بقعة زيت نزيلها بالمنظفات المستوردة. ويسقط هذا السؤال التاريخي في مستنقع الجبن.

قبل الحديث عن المأزق هناك حديث عن الوطن.

أي وطن؟ الوطن المعارض لغزو الكويت الذي وجد نفسه مجبراً على الترحيب بالسيطرة الأميركية على المستقبل العربي؟

أم الوطن المؤيد لإلغاء دولة عربية الذي وجد نفسه معارضاً للوجود الأميركي على أرضه، فاتحاً الباب أمام صراعات حدود وحروب، سيكون هو أول ضحاياها؟ أم يا ترى هناك «وطن ثالث»، قد يتجلى من جديد في الصراع العربي ـ العربي على

جثة الوحدة العربية والفكر القومي العربي، مقحماً نفسه في متاهات أسباب الكارثة الاقتصادية ومسوغات البراهين التاريخية والجغرافية، والمحمول على لاهوت فكري، يترسم بداهات لدى أمة تتكلم لغة واحدة وتتماسك في تاريخ واحد له شموليته، وحضارة عربية لها إسلام واحد أيضاً.

هل يمكن لهذا «الوطن الثالث» أن يكون له موقف وسط التقاطعات التي حددت بصرامة موقف الوطنيين الأولين؟

هل يمكن لـ «الوطن الثالث» هذا أن يحفظ للمواطن إنسانيته وحريته وخياراته المتعددة، بقدر ما يحفظ للمثقف ثقافته بجوهرها الديمقراطي وميولها الإبداعية، والتي ترى في التطور الطبيعي للتاريخ مسرحاً لكينونتها ونموها، وفي التطور الاجتماعي إطاراً لهذا النموّ، لا نجاة منه؟

هل يمكن لـ «الوطن الثالث» هذا أن يقيم على أنقاض تصفية المشروع القومي العربي في العالم، آلية ما، تمنع مصادرة المستقبل العربي، برسم صورة جديدة للتطور القومي، مغايرة وبديلة للصورة التي يعدّها لنا العالم الأميركي اليوم؟

وسّعوا صدوركم.

من بين مفردات اللغة المنقرضة سؤال يضاف إلى هجمة هذه الأسئلة كلها: هل سيكون للعرب كأمة ذات ثقافة صادرة عن حضارة عريقة أي مكان بارز في هذا «الوطن الثالث» ـ الذي هو وطنهم بأي تعريف شئنا؟ وكيف ستكون استجابة عرب «الوطن الثالث» للتحدي المطروح أمامهم، والدنيا على أبواب القرن الواحد والعشرين؟ هل لديهم الرغبة أولاً، ومن ثم القدرة، أن يكونوا مركزاً بين المراكز التي ستتبوأ العالم الجديد الذي تُعد خرائطه وخططه في أروقة السلطة في واشنطن ولندن وباريس وموسكو؟

لنفترض - بتفاؤل لا نملكه - أن عرب التسعينات تحولوا من التفتت إلى التماسك، ومن البعثرة إلى الاجتماع، ومن اللاهدف - وهي مجموعة أهداف متعارضة ومتهالكة - إلى الهدف الجامع. ترى ما هي الصيغة التي سيبلور الاجماع عليها، طريقاً لها؟

أسئلة تقلق.

لكن لنفترض أيضاً أن هذا القلق المضني قد نشّط عقل الأمة المترهل وحرك جموده وأحيا خلاياه الميتة، فإذا بطبقاتها المثقفة ونخباتها الصانعة للإبداع، تهدر بتعابيرها المنطوقة والمكتوبة، دعوات إلى ألفعل. لكن أي فعل، والمشهد العربي اليوم هو مشهد زوال، أكثر مما هو مشهد حضور، والفعالية العربية اليوم هي فعالية التبدد أكثر مما هي فعالية النسج.

ويسقط السؤال مجدداً.

لماذا؟

لأن السلطات العربية (وهي المؤسسات المتعددة للأنظمة العربية) لا النظام السياسي وحده، لم تكن في حال من التخبط، كما هي عليه اليوم. ومسالكها نحو خياراتها، لم تكن ضيقة ومحدودة كما هي عليه اليوم. والنخب العربية الفكرية والثقافية، لم تكن بمثل هذا التمزق والضياع، في إقاماتها وهجراتها، كما هي عليه اليوم. والمثقفون الذين ينقصهم الوحي الطالع من مناخات تخلق لهم الدفع والحيوية، ليحددوا أهدافهم، ما زالوا نياماً في كهف السلطة وظلال انقساماتها. وإذا بالنخب العربية المثقفة - بمجمل أطرها وأوسعها - هامشية الحياة، تدب فيها الصوت، فلا يعود له صدى. نُخب فقدت بفعل الهزائم المتكررة لفكرها كل يقين، وتفشى فيها اليأس، بعد أن بحّت أوتار صوتها وترهل جسدها.

لكن هناك الجماهير العربية ـ الناس العاديون ـ الذين هم يقيناً الأقل تأثراً بالترنح العام للأمة، والأكثر تماسكاً من المثقف العربي الذي استشرى الإحباط به ـ الغارق في وحل الهزيمة التي ساهم بصنعها. هذه الجماهير، على امتثالها البادي اليوم، هي في حالة تململ ومخاض، لا يقابلها أسفاً في النخب المثقفة اليوم، مفكر أو مبدع يلتقط عناصر الخطاب المستقبلي. وهنا يكمن تحدي «الوطن الثالث» في عقد التسعينات. وهو عقد موت مشهد الماضي وولادة مشهد المستقبل.

وسّعوا صدوركم.

إن الأسئلة التاريخية الجوهرية، أينما سقطت، لا تندثر. خاصة إذا كانت قادرة على التحريض على ثقافة عربية جديدة لها صلة مباشرة بفكر جماهير الناس العاديين. هذا التحريض الذي يجب أن يخلق ثقافة تجاري العصر وتسهم في معناها الحضاري بكل مجالاته. ثقافة نور وضياء، بما يعنيه هذا النور من احتراق للمُشعِل، وما يعنيه هذا الضياء للمضيء من تضحية. فتكون على الأقل نداً لقوى الظلام الشرسة التي تغالب هذه الأمة ـ وما زالت تقهرها.

وسّعوا صدوركم.

فالأرض خراب، والرجال جوف، والمشاعل العربية مطفأة.

رياض نجيب الريس

الخليج العربي: عودة الاستعمار؟

بعد غزو العراق للكويت في آب (اغسطس) ١٩٩٠، ووصول القوات الأميركية والأجنبية إلى الجزيرة العربية في الصيف الماضي، اتصل بي عدد من الأصدقاء يقولون إن مقالاً من مقالاتي عن الخليج العربي والذي سبق أن نشرته في مجلة «المستقبل» الباريسية المحتجبة قبل حوالي ١٢ سنة، تتداول وتوزع على نطاق واسع في أوساط جامعية ودينية في المملكة العربية السعودية وبعض دول الخليج.

وقد ازداد الاهتمام بهذا المقال عندما بدأت تشير إليه الصحف العربية بشكل أو بآخر.

وقد استغربت في البدء هذا الأمر، لأنني نسيت المقال وقد مرّ عليه أكثر من عقد من الزمن. إلى أن جاءتني في البريد نسخة منه، قبل أن أعثر عليه بين أوراقي. ولما قرأت المقال من جديد أدركت سبب هذا الاهتمام المفاجىء. فالمقال في الدرجة الأولى، توقع كل ما يحدث اليوم في الجزيرة العربية، بقدر ما فضح ابعاد المؤامرة وأدانها. وقد أعادت لي هذه البادرة الثقة بالقارىء العربي، كما أكدت لي أن ليس في الأمر نبوءة. بل لعله

قراءة جيدة للأحداث والتاريخ في عصر عربي ليس عندنا فيه مَن يقرأ ـ إلا متأخراً.

سأحتفظ باسم المكان وباسم الشخص في ملف الذكريات. المكان كيلا أسيء إلى ضيافته. الشخص حتى احتفظ بتعهدي أن لا أبوح باسمه. ليس مهماً أين ومَنْ وكيف. المهم أن الكلام الذي قيل كلام خطير وأنه يمثل قطاعاً كبيراً من عقلية الغربيين هذه الأيام ـ أيام الغنى العربي الفاحش وأزمة الطاقة العالمية المستفحلة.

*

● المكان: بلد خليجي غني بالنفط.
● الزمان: تموز ١٩٧٩.
● الأشخاص: ديبلوماسي بريطاني سابق وصحافي عربي.
● المشهد: فندق حديث في الصحراء.

*

كان المبنى قديماً متداعياً وسط مدينة حديثة نمت بين الرمال، تحيط به أسوار طينية ذات أبراج يقف عليها الحمام، تصعد إليه بدرج لولبي طويل بني حديثاً. في الداخل النوافذ الخشبية المستطيلة تحاول أن تعزل الحر اللافح الآتي من الخارج، والمراوح الكبيرة تتدلى من السقف العالي في عصر المكيفات. كل شيء يوحي أن التاريخ يسكن هذا المكان. وبالفعل فقد أصبح هذا المكان مركزاً للتوثيق والأبحاث والدراسات. وكأن المشهد قد أعد إعداداً يتفق مع مجريات الأحداث.

كنت أزور صديقاً هناك، عندما دخل علينا رجل طويل أنيق أشيب ذو قوام عسكري وملامح أوروبية ووقار سلطوي، وسأل الصديق بلهجة عربية فصحى لا أثر للحن فيها عن معنى من معاني الكلمات الخليجية المتداولة، وعما إذا كانت تعني مكاناً

جغرافياً في الصحراء أم صفة من الصفات. وشعرت، وأنا أتطلع بالرجل وهو يحدث صديقي، وكأنني رأيته من قبل. بدا الوجه أليفاً والملامح معروفة والوقار طبيعياً. وخلت أن صورته نشرت في جريدة ما.

وأثار منظر الرجل وسؤاله فضولي، فسألت الصديق الذي كنت عنده عن هويته. فقال لي: «ألم تعرفه؟ إنه السير (وذكر اسمه) أحد أشهر شخصيات الخليج. لقد كان حاكماً عاماً لعدة بلدان إبان الاستعمار البريطاني ومعتمداً في الخليج ثم مقيماً ثم سفيراً بعد الاستقلال. واليوم تقاعد. إلا أنه يزورنا بين وقت وآخر حيث يعد حالياً كتاباً عن المنطقة». وفجأة لمع في ذاكرتي أنني تعرفت عليه من قبل، وأننا تقابلنا قبل حوالى عشر سنوات عندما كانت بريطانيا تحكم الخليج والجنوب العربي، وعندما كان حاكماً عاماً لدولة لها صولجانها ونفوذها وجيشها وسياسيوها في كل مكان في العالم. يوم كانت كلمته هي القانون ويوم كان الناس يقفون على بابه يطلبون لقاءه ـ ومعه الإذن بالمغفرة.

وغادرت مكتب الصديق في ذلك المبنى القديم وعدت إلى فندقي. وفي المساء حين يبدأ الفراغ الطاحن في الصحراء يأكل من يومنا وأعصابنا وتفعل دورته اليومية الكاملة فعلها، جلست كعادتي في بهو الفندق أقرأ الصحف، عندما دخل الرجل الأوروبي الملامح، العربي النطق، الذي كنت قد رأيته هذا الصباح. تطلع حوله لثوانٍ معدودة وكأنه ينتظر أحداً، ثم جلس إلى طاولة بجانبي وسحب كتاباً صغيراً من جيبه بعد أن طلب شراباً. بعد دقائق، وكان قد وصل الشراب، التفت إليّ وكأنه أدرك أننا التقينا من قبل، فبادرني بالتحية. رددت التحية وقلت له:

ـ ألست أنت السير (وذكرت اسمه)؟

- قال: بلى.

قلت له: «أنا فلان. لعلك تذكر أننا التقينا قبل أكثر من عشر سنوات في (وذكرت اسم البلد) وقد نلت منك حديثاً صحافياً يوم كانت الاضطرابات تعم حاكميتك، ويوم كانت بلادك تحارب الوطنيين، ويوم كانت حرب الاستقلال في مستعمرتك السابقة حديث الوطن العربي وحديث بريطانيا معاً».

وبالفعل تذكر الرجل الذي يقف على مشارف السبعين، وأخذ هو يذكرني بمن حضر الحديث وبأسماء وزراء ومسؤولي تلك الفترة، ويسألني عن أخبارهم ومن مات منهم ومن ظل حياً. وإذا بذلك الرجل قد استعاد فجأة حيويته وطفق معها سيل الذكريات.

ونمت بيننا ألفة ليلية لا يعرف معناها إلا من عرف معنى الانتظار في فنادق الخليج، بحثاً عن موعد أو خبر أو قصة، يصارع فيه الضجر. ولا بد لي من الاعتراف من أنني شغفت بهذا الديبلوماسي البريطاني السابق وذكرياته ومعرفته برجال وتاريخ وعادات هذه المنطقة. وصرنا نتبادل ليلياً التعليقات والأخبار والأحاديث كما نتبادل الصحف والكتب. وكان مؤتمر «أوبيك» الأخير قد أقرّ ذلك اليوم زيادة أسعار النفط، وأخذت الصحف الأوروبية والأميركية تتناقل أخبار أزمة الطاقة في العالم وتعلق عليها وتشير إليها كيفما شاءت.

تطلع الديبلوماسي البريطاني العجوز إلى أكوام الصحف التي كنت غارقاً فيها، وسألني: «ماذا تقرأ». قلت له: «أخبار الأزمة العربية - الكندية وعن غباء جو كلارك رئيس وزراء كندا الجديد وتصريحاته بنقل السفارة الكندية من تل ابيب إلى القدس وردود فعل العالم العربي عليها».

هكذا بدأ الحديث.

*

رفع العجوز البريطاني نظارتيه واستراح على كرسيه وقال لي: «هل تلاحظ أن الرأي العام الغربي قد بدأ تحولاً أساسياً وجذرياً نحو اليمين. لقد عادت حكومة المحافظين برئاسة مارغريت تاتشر إلى الحكم في بريطانيا وبعقلية تدعو إلى التغيير الجذري. وتبع ذلك تغيير في حكومة كندا، وسبق ذلك تغييرات مماثلة في حكومات استراليا ونيوزيلندا. واليوم يتحدثون عن عودة رونالد ريغان، أكثر السياسيين الأميركيين محافظة ورجعية، إلى حلبة السياسة الأميركية، إلى درجة أن بعضهم يعتقد ويعمل ليكون رئيس جمهورية الولايات المتحدة المقبل. كذلك فرانز جوزف شتراوس، الأكثر رجعية ومحافظة في المانيا من ريغان في أميركا، والمرشح ليكون مستشار ألمانيا الغربية القادم. كل هذه مؤشرات حقيقية أن الرأي العام في الغرب قد بدأ يتجه اتجاهاً لا يقبل الشك نحو اليمين. وهذا أمر خطير على العرب أن يعوه».

قلت للديبلوماسي العجوز: «ماذا يعني العرب إذا طار جيمس كالاهان وجاءت مارغريت تاتشر، أو سقط كارتر وفاز ريغان، أو خسر شميت وربح شتراوس، أو فشل ترودو ونجح كلارك؟».

ابتسم الثعلب البريطاني وقال: «هذه هي المشكلة التي لم يستوعبها العرب حتى الآن. هناك من يظن أن الاتجاهات اليمينية في الدول الغربية ما هي إلا تعبير عن ردة فعل الرأي العام تجاه غلاء المعيشة أو ارتفاع الضرائب أو الخدمات الاجتماعية أو نقابات العمال. لا. إنها نهاية لعقدة الذنب لدى البورجوازية الغربية تجاه التطبيق الاشتراكي للأحلام الطوباوية وشعور جديد بالثقة لدى الرأسمالية».

□ «ولكن ماذا يضير العرب من كل هذا، خاصة وأن الدول العربية الغنية لا تطبق الاشتراكية لا حلماً ولا تطبيقاً. وعودة الثقة بالرأسمالية أمر يرحبون به». سألت سؤالي للديبلوماسي

البريطاني وخامرني الشعور بأنني أفحمته.

ـ ابتسم محدثي من جديد وقال: «لا. لا. لا. إن نجاح اليمين هذا يعني أيضاً اتجاهاً متصلباً نحو القضايا الخارجية بعيداً عن القيم التقدمية. إنها عودة إلى تفكير القرن التاسع عشر الاقتصادي في التطبيق الرأسمالي في الداخل والبحث عن أسواق في الخارج والسيطرة عليها واحتكارها. إن هذا التفكير عينه هو الذي قاد في القرن التاسع عشر إلى الاستعمار ودبلوماسية البوارج والمدافع وسياسة الأمر الواقع. إن الهرب من أعباء الدعاية التقدمية التي تدعي أن على القوي أن يساعد الضعيف في الداخل ـ أي أن تعيل الدولة الفرد الذي يعمل والذي لا يعمل ـ ستدفع أيضاً الرأي العام الغربي إلى التخلص من الأوهام ومن القيود الأخلاقية التي كانت تحدد سلوكه تجاه الدول الأخرى. إن تحدي النفط العربي يعطيهم هذه الفرصة. هذا ما يضير العرب إذا نجح هذا الاتجاه بالسيطرة على مقدرات الأمور في الغرب».

«دعني أسألك ـ تابع محدثي كلامه ـ لماذا على المواطن الغربي، وبالذات سائق السيارة المنتظر عند محطة البنزين، أن يتحمل على مضض وبصمت، التهديد اليومي الدائم لطريقة حياته ومعيشته، المتوقفة على مزاج عدد من الشيوخ العرب وآيات الله الإيرانيين؟ بل أي حق أخلاقي للدول المصدرة للنفط، والتي لم يكن لها أي دور على الإطلاق في اكتشاف هذا الذهب السائل، يسمح لها بأن تلعب بمصير الحضارة الغربية كلها؟ أليس من الممكن خلق قضية فيها كل مواصفات الإقناع ولباقة المنطق وقوة حجة الاقتصاد وتبريرات السياسة تدعو الغرب إلى إعادة استعمال هذه المنطقة التي هي بمثابة حبل الوريد لكل مصالح العالم الغربي. بل أضيف أكثر فأقول،

أليس هناك التزام بضرورة عودة الاستعمار كوسيلة وحيدة لتحقيق استقرار العالم».

وجد الحاكم والمقيم والمعتمد والسفير البريطاني السابق أن سؤاله الاستفزازي قد فتح أذني للاستماع بكثير من الدهشة كما فتح شهيته للكلام بكثير من الخبث. ضحك محاولاً التخفيف من حدة السؤال وقال: «لقد أردت أن أسألك هذا السؤال بالذات لأقول لك بأن هذا ما يسأله كل مواطن أوروبي وأميركي عندما يأخذ صحيفته عند كل صباح. إنما الأخطر من ذلك أن الجواب لم يعد كما تتوقع. لقد أصبح شيئاً آخر. لقد أصبح شيئاً خطيراً. إن هناك في الغرب من يدعو جدياً إلى اعادة استعمار بلدان منابع النفط، وتحديداً بلدان الخليج العربي. حتى أن هناك من يعتقد أيضاً أن الاتحاد السوفياتي الذي يخاف، لأسبابه الخاصة، فورة الإسلام عند حدوده الجنوبية، سيرحب بخطوة غربية كهذه».

*

عبّ محدثيّ بقايا الشراب الذي في كأسه وتابع حديثه قائلاً: «أعترف أن ليس من السهل الإجابة على هذه الأسئلة. ولكن من الممكن القول إن احتمالات عودة الاستعمار قد أصبحت مفتوحة وإن هذه الاحتمالات لن تلقى معارضة أخلاقية أو مبدئية كما كان يمكن أن تلقى قبل ثلاث أو أربع سنوات. لأن كثيراً من التحفظات الأخلاقية والمبدئية للاستعمار الغربي قد زالت عندما بدت على خطأ. فجلاء الاستعمار عن افريقيا وآسيا لم يقد إلى الرخاء والحرية، بل قاد إلى مزيد من الفقر والتخلف ومزيد من القهر والاضطهاد. لقد نشأت بعد الاستقلال أشكال جديدة من العبودية السياسية والاقتصادية والاجتماعية. حتى أن غلاة المعارضين للتدخل الأميركي في فيتنام، أدركوا بعد

انسحابها أن نتائج خروج أميركا من فيتنام كانت أسوأ بكثير مما لو ظلت هناك».

سكت محدثي قليلاً، ومن دون أن يتطلّع إليّ، واسترسل قائلاً: «إن تاريخ العداء للاستعمار في الغرب، وخاصة في الأوساط الأوروبية والأميركية المثقفة والتقدمية الأفكار واليسارية الميول، كان قائماً على إعطاء الافريقيين والآسيويين حق الاستقلال ومنع الأوروبيين الرعناء من استغلال هذه الشعوب الضعيفة الطيبة طمعاً بخيراتهم وثرواتهم. إلا أن هذه النظرية لدى المثقفين والتقدميين الأوروبيين، قد سقطت فكرياً وعملياً، كما سقطت نظرية دولة العدالة الاجتماعية والمساواة في الداخل. إن أهمية تحدي النفط أنه بلور خيبة الأمل المتراكمة في الشؤون الخارجية وأدخلها إلى كل بيت، فأصبحت متساوية لدى الفرد العادي الأوروبي والأميركي لمشاكله الضرائبية والحياتية والاجتماعية. وانطلاقاً من هذا الشعور لم يعد يساوي ويقارن دول النفط العربية بالدول الحديثة الاستقلال الفقيرة التي تحتاج إلى حماية من البعبع الغربي الذي يريد ابتلاعها. بل تعزز لديه الشعور كمستهلك غربي، بأنه هو المُسْتَغَل اما المستغِل فهو المنتج العربي».

«هنا تفرض المقارنة نفسها مع الوضع الداخلي - أردف محدثي يقول - حيث كان الضمير التقدمي الأوروبي يقف إلى جانب العامل الذي يُستغل مؤيداً الحق البروليتاري ومتعاطفاً معه. وبعد ربع قرن من هذا الشعور، وجد هذا الضمير التقدمي الأوروبي متناقضاً مع نفسه في وجه العامل والطبقة العمالية البروليتارية التي تستعمل سلاح الإضراب للحد من حريته وبغير وجه حق في نظره. فإذا هو المُعتدى عليه لا المعتدي.

«صحيح أن هذا الضمير - أو هذه الطبقة التقدمية - ليس عندها حلول لتقليص قوة نقابات العمال، كذلك ليس عندها

حلول لتقليص أو للحد من نفوذ دول النفط. لكن في كلا الحالتين، المشكلة أصبحت مشكلة حلول عملية لا مشكلة مواقف أو روادع أخلاقية أو مبدئية. بكلمات أخرى: إذا أراد الغرب أن يحتل من جديد دول الخليج العربي أو يقيم قواعد عسكرية أو استعمارية في الجزيرة العربية، فلن يصيح الرأي العام الغربي بأعلى صوته منبهاً أو معارضاً أو محذراً صيحته المعادية للاستعمار. إن صيحة الغرب المعادية للاستعمار التي أطلقها إبان أزمة السويس عام ١٩٥٦، لن تخرج عن بضع حناجر اليوم، ومن دون أي تأنيب للضمير الأوروبي أو الأميركي أو شعور بالذنب».

*

طلب الديبلوماسي البريطاني المتقاعد كأساً آخر، وكأن شهيته قد انفتحت للحديث، واستمر في حديثه من دون أن يسمح لي بالاستفسار أو التدخل، وكأنه يريد أن يلقي علي أطروحته بكاملها قبل أن يسمح بالأسئلة والأجوبة.

قال: «لقد يسرت نتائج الانتخابات الأخيرة واتجاهاتها اليمنية فرصاً لزعماء الغرب للقيام بأدوار تاريخية. لقد أيقظت أزمة النفط لدى رجل الشارع العادي الإحساس بالعجز والعقم لدى زعمائه. وأدرك أن الحرية ليست وحدها القضية التي تستحق أن يحارب من أجلها. إن المواد الأولية والمواد الخام والطاقة هي قضايا بأهمية الحرية التي يستحق المرء أن يموت من أجلها. إن استعماريي القرن التاسع عشر كانوا على حق بينما كان كل الاقتصاديين على خطأ. لذلك، فإن الإتكال على الحصول على المواد الأولية والطاقة لا يمكن أن يترك للحسابات التجارية وأسواق العرض والطلب وتقلبات أسعار العملة».

«قد تقول لي يا صاحبي إن الظروف الدولية المعاصرة غير مؤاتية لفكرة العودة إلى الاستعمار. وإنها فكرة غير عملية

وصالحة. الزمن وحده كفيل بتكذيبي. إنما ما أستطيع أن أجزم به هو أن المناخ الفكري والأخلاقي في أوروبا وأميركا اليوم لم يعد رافضاً لفكرة كهذه كما كان قبل عدة سنوات، وأن زعامات غربية كثيرة تبحث عن شعبية لها، قد تجد في تحقيق هذه الفكرة وتنفيذها مجالاً لاستعادة شعبيتها المفقودة ودخول التاريخ من أوسع أبوابه. إن كل سيناريو التدخل الذي تذكره الصحف قد أصبح ممكناً وواقعياً بزوال عقدة معاداة الاستعمار. بل أضيف أكثر فأقول إن كل سيناريو يطرح للحصول على الطاقة من دون التدخل العسكري المباشر قد أصبح غير واقعي. ومن السذاجة الاعتقاد أن الغرب سيقبل أن يشد الخناق حول عنقه مجموعة من العرب. لقد تحرّر الرأي العام الأميركي من عقدة ما بعد حرب فيتنام وأصبح على استعداد لتقبل الأمر الواقع الضروري في السياسة الخارجية كما يتقبل الأمر الواقع الاقتصادي في سياسة بلاده الداخلية».

ارتاح الديبلوماسي البريطاني القديم على كرسيه وتلفت حوله من جديد، وكأنه يستكشف المكان ليعرف إذا كان أحد غيري قد سمع حديثه. ثم نظر نحوي ولما رأى على وجهي علامات التعجب الكثيرة، قال لي: «ما رأيك؟ هل اعتبرت كلامي تنظيراً من قبل شيخ يحن إلى صباه؟ صدقني أنني أعرف بلادي والغرب جيداً. لقد خدمت الاستعمار القديم في مناصب عدة أكثر من أربعين سنة. إن الذي أقوله لك يجري التفكير فيه والإعداد له يومياً في أروقة لندن وباريس وواشنطن. متى تدركون يا عرب أن لا مجال للعاطفة في السياسة وأن العبء الاقتصادي الذي يشعر به الغرب اليوم قد تخطى كل حدود العاطفة والصداقة. بل سأتمادى في كلامي وأذكرك أن الذين يقولون إن احتلال الخليج عسكرياً أو إقامة قواعد عسكرية في الجزيرة العربية أمر غير عملي، سيكتشفون سريعاً أن الأمر

الوحيد غير العملي هو تأخير هذا القرار. فكلما تأخر التنفيذ أصبح صعباً ـ سياسياً وعسكرياً. إن تاريخ الاستعمار قد علّمنا أنه متى وجدت الإرادة السياسية، لحقتها دائماً الأداة العسكرية».

*

كان الليل رطباً وقد شارفت الساعة على الثانية صباحاً وأوقفت ادارة الفندق المكيفات في القاعة، وانتصب الاستعماري البريطاني وقوفاً ومد يده ليصافحني وعلى فمه ابتسامة انكليزية لها ألف معنى ومعنى، وقال لي: «تصبح على خير. فكّر قرّاءك العرب أن التاريخ لا يمزح. التاريخ ينتظر أن تقع الفرص في أحضانه. والفرص اليوم كثيرة».

ومشى من دون أن ينتظر أن أرد عليه التحية. لقد أدرك أنه سيتركني أياماً من غير نوم. تطلعت حولي في القاعة الفارغة وأدركت كم هي كثيرة الفرص التي يتيحها العرب اليوم لعودة الاستعمار. وشعرت بالكآبة. ولم يتوقف رنين كلماته الأخيرة في أذني: «متى وجدت الإرادة السياسية لحقتها دائماً الأداة العسكرية». وانتابني إحساس «ديوجين» حاملاً مصباحه في وضح النهار بحثاً عن الحقيقة. وتمنيت أن أجد في متاهات الرمل وفي صحراء الصمت الفارغة ـ الإرادة العربية المفقودة.

يا خوفنا من التاريخ!

*****

وقعت المعركة العسكرية التي كان يتمنى الكثيرون ألا تقع، لأن النتائج التي ستترتب عليها ستكون بالغة السوء والخطورة في آن واحد، الآن وفي المستقبل، على هذه المنطقة بالذات وعلى أجزاء عديدة من العالم، وسوف تكون أسوأ بداية لنظام دولي يراد له أن يكون جديداً.

إن الحرب التي نشهدها الآن لا تهدف إلى «تحرير» الكويت، أو تطبيق قرارات الشرعية الدولية، قدر ما تهدف إلى إعادة ترتيب أوضاع المنطقة، ثم العالم في وقت لاحق، ولأنها كذلك، بالدرجة الأولى، فإن عدد الخاسرين سيكون كبيراً، وسوف نشهد مزيداً من التدهور في العلاقات بين الدول، أو على الأقل اختلالاً في العلاقات بين مجموعات من الدول، أو ما اصطلح على تسميته الشمال والجنوب، في المرحلة الأولى، ثم بين الكتل الاقتصادية الكبرى في وقت لاحق.

إن النظام الدولي الجديد المرغوب الوصول إليه وتحقيقه، كما تراه الشعوب، هو النظام الذي يزول منه شبح الحرب وكل ما يتعلق بسباق التسلح، والقائم أيضاً على التعاون والتبادل والتكافؤ، وصفته الأساسية الديمقراطية وحقوق الإنسان والمجتمع المدني والعقلاني، والمستند إلى الشرعية والعدالة على المستويين الخاص والعام، داخل كل مجتمع، وعلى مستوى العلاقات بين الدول. إضافة إلى حماية العالم الذي نعيش عليه من التلوث والأوبئة وكل ما يهدد الإنسان في المرحلة الراهنة أو في المستقبل.

هذا ما يفترض في النظام الدولي الجديد، فهل ان بدايته أو مؤشرات مساره تدلّ على أننا نسير في الطريق الصحيح؟

باعتباري واحداً من العالم الثالث، من الشرق الأوسط، من عالم عربي له تكوينه وثقافته، وأخيراً كوني من المنطقة الملتهبة التي تدور الحرب الآن على أطرافها أو تنطلق منها، لا بد أن أتخاطب مع الآخرين، رغم الشعور بالأسى، من منطلق عقلاني، لكنه مثقل بذاكرة تاريخية تحس أنها مستهدفة وغير مفهومة في آن واحد.

عندما خاض العرب الحرب العالمية الأولى مع الحلفاء، ضد

الدولة العثمانية التي تشاركهم، أو تشارك معظمهم، الدين نفسه، كانوا مدفوعين بحس العدالة، ومواجهة الظلم، والرغبة في تحقيق حياة حرة كريمة. وما كادت الحرب تنتهي حتى كان العرب أولى ضحاياها، ومن قبل الحلفاء أنفسهم، إذ تخلوا عن العهود التي أعطيت قبل الحرب أو أثناءها، وتحت إقامة صيغة تلائم المنتصرين وحدهم، وهكذا ملأت المرارة النفوس، وسادت حالة من الاضطراب عمت معظم أجزاء المنطقة واستمرت فترة طويلة.

ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن الحرب العالمية الثانية، مع اختلافات يسيرة، واختلاف الذين خدعوا العرب.

ومنذ أن أصبحت المنطقة تتمتع بأهمية خاصة، نظراً لوجود النفط، أصبحت موضع تنافس واهتمام للسيطرة على الثروة النفطية والتحكم بكميات الإنتاج والأسعار والعلاقات مع الدول الأخرى، وفقدت أكثر الدول المالكة للنفط استقلالها ضمناً، وبدأت تتكون في المنطقة صيغ اقتصادية وعلاقات بين دولها اعتماداً على وجود هذه الثروة.

(*) نشر هذا المقال في مجلة «المستقبل» ـ باريس، العدد: ١٢٧ ـ ٢٨ تموز (يوليو) ١٩٧٩. ثم اعيد نشره في «الناقد» ـ العدد ٣٤ ـ نيسان (ابريل) ١٩٩١.



عبد الرحمن منيف

أي عالم سيكون؟ المثقفون العرب والنظام الدولي الجديد

لسنا الآن في صدد بحث تاريخي أو تفصيلي في العلاقات بين الدول، كما أن العلاقات الدولية لا تبنى على مجموعة من الكلمات المصقولة والوعود والأحلام، إنما تقوم، بالدرجة الأولى، على موازين القوى، وعلى المنافع المتبادلة، وعلى التعاون من أجل الوصول إلى صيغة تخدم الطرفين. أما الذين كانوا مستعدين لأن يُخدَعوا أكثر من مرة، فإنهم وحدهم يتحملون المسؤولية.

من هذا المنطلق كان العرب المستنيرون يطالبون بأن تقوم العلاقات على أساس واضح وصريح، اعتماداً على حقائق أساسية في العصر: فالعالم الذي نعيش فيه متشابك العلاقات والمصالح، ولذلك فان العزلة مستحيلة أولاً، وغير ملائمة لطبيعة العصر ثانياً؛ وان أية مادة أو معرفة أو إنجاز، بمقدار ما هو خاص فإنه عام في الوقت نفسه، ولذلك لا بد من تداوله وتمكين الآخر للتمتع بنتائجه، بما في ذلك خيرات الطبيعة، ومن جملتها النفط. ومن هنا، فإن نفط المنطقة يجب أن يكون من أجل خدمة البشرية وتقدمها، وهذا ما كان يستوجب صيغة لتداول هذه السلعة، وبمقدار ما تكون الصيغة منظّمة ودقيقة، من حيث الإنتاج والأسعار وتوزيع الناتج، تكون أكثر سلامة لخدمة طرفي العلاقة، أو أطرافها المتعددة.

والسؤال هنا: إلى أي حد ساعد الغرب في جعل هذه الصيغة ممكنة وقابلة للاستمرار؟

لقد أصبح إنتاج النفط أو أسعاره أحد أهم الأسباب في خلق حالة من الفوضى والاضطراب التي سادت منذ مطلع السبعينات وحتى الآن، إذ بالإضافة إلى التقلبات في الأسعار والإنتاج، فقد أصبحت هذه المادة وسيلة للضغط والمساومة، وعلى أكثر من مستوى؛ كما أن الطريقة اللاعقلانية التي تم استخدامها في التصرف بالريع النفطي، أدت إلى خلق العرب الاغنياء والعرب الفقراء، وما استتبع ذلك من علاقات مضطربة ومتفجرة؛ يضاف إلى ذلك شراء السلاح وتكديسه؛ إلى خلق نماذج اقتصادية مشوهة وتابعة؛ إضافة إلى تخريب الحياة السياسية عن طرق الرشوة والصحافة النفطية وشراء الأتباع والضغط من خلال القروض.. الخ.

ان الغرب، خاصة أميركا، لم يكن بريئاً أو بعيداً عن ذلك، بشكل مباشر أو غير مباشر، من خلال الترويج لصيغ اقتصادية أو فرضها، أو بدعم الحكام الفاسدين والمتخلفين، وبتجاهل رغبات الشعوب وطموحها المشروع، الى خلق البؤر الساخنة لتصريف أسلحته وتجريبها.

إن المفكرين والمثقفين العرب الذين يمتلكون ذاكرة مثقلة بالوقائع السلبية عن العلاقة مع الغرب، والذين يلمسون كل يوم شواهد جديدة على استمرار النظرة وصيغة التعامل، لا يمكن أن يستمروا في خداع أنفسهم وشعوبهم تحت وهْم أن الغرب يمكن أن يكتشف الحقيقة ذات يوم، ولا بد أن يعدل موقفه ونظرته بعد ذلك.

من هنا فإن المثقفين العرب، في المرحلة الراهنة، ونظراً لوجود هذا الحلف الغربي الواسع، يعتبرون أن شيئاً يتجاوز الراهن،

القائم حالياً، هو ما يدفع الغرب لاستئناف حروبه تجاه هذه المنطقة؛ وأن الهدف لا يقتصر على النفط، أو تطبيق الشرعية الدولية، أو الدفاع عن أنظمة، أنه يتجاوزها، وربما كثيراً، لتصفية حسابات التاريخ والحضارات والثقافات والأديان، وقد يكون هذا أخطر ما في الحرب الراهنة.

سوف يأتي يوم نتأكد فيه أن المحاولات التي جرت لاحتواء النزاع الحالي والوصول إلى حلول سلمية له كانت كثيرة وجادة، لكن الذي حال دون تبلورها، دون استمرارها، أو الذي أفشلها: الولايات المتحدة الأميركية. لم تكن تريد حلاً سياسياً، لأن أي حل تفاوضي يؤدي لتنازل يعني خروجاً على الطاعة الأميركية، وعدم تفردها بامتلاك زمام الموقف؛ ويعني أيضاً أن الصيغة التي تريدها الولايات المتحدة لعالم ما بعد الحرب الباردة سيكون فيها شركاء أقوياء، خاصة أوروبا الغربية، ولذلك أحبطت كل مسعى سياسي لكي تفرض أسلوبها وحده؛ ولكي تعطي مضموناً محدداً للنظام الذي تريده في المرحلة القادمة.

إن اكتشافاً من هذا النوع سيعطي المؤرخين دليلاً إضافياً عما كان يجري في العقد الأخير من القرن العشرين. وإذا كنا لا نرغب أن ننوب عن مؤرخي المستقبل ونقول إن الحرب التي خاضها الغرب في نهاية القرن، كانت، في جوانب عديدة منها، مدمرة وخاطئة، كما أنها طبعت المرحلة اللاحقة، وجرّت الكثير من الويلات والسلبيات، وعلى الغرب أيضاً، خاصة أوروبا، وهي لا تختلف، من حيث النتائج، عن الحربين العالميتين، إذ بالإضافة إلى الأعداد الكبيرة من الضحايا، ومن الطرفين، فقد عمقت العداء، وزادت اتساع الهوة بين الشمال والجنوب، ثم بين أميركا من ناحية وبين أوروبا من ناحية، وبين اليابان من ناحية ثالثة وأدت إلى صراعات مريرة، استمرت فترات طويلة!

إن حديثاً من هذا النوع سيكون شأناً من شؤون المستقبل،

واهتماماً من اهتمامات مؤرخيه، لكن في الظرف الذي نعيش فيه، فإن ما يحصل أمام انظارنا نوع من الجنون، ربما يكون أقرب إلى الانتحار، أو لعدم الإدراك الحقيقي والعميق للجغرافيا والتاريخ والعلاقات بين الثقافات والحضارات والشعوب.

قد نريد هنا أن نقلل من قوة أميركا وأهميتها ودورها، لكن يجب ألا نغفل، لحظة واحدة، عن أن أميركا بمقدار قوتها وتفوقها، فإنها تفتقر إلى النظرة التاريخية، تفتقر إلى لغة سرية ربما وحدها الشعوب العريقة هي التي تمتلكها. وتفتقر أيضاً إلى العلاقات الجغرافية والتاريخية التي تربط بين الشعوب. صحيح أن التاريخ بمقدار ما فيه من عمق، فإنه لا يخلو من سلبيات أيضاً، وتاريخ العصور الوسطى الذي يراد له ان يطوى، بأكثر من معنى، فإن اميركا تحاول اليوم إذكاءه وإعادته إلى الحياة، وكأن لم تمر تلك القرون عليه. هذه الملاحظة يمكن أن يفهمها الأوروبيون أكثر من الأميركيين، وهي تعني شيئاً كثيراً، خاصة في عالم اليوم والغد.

يضاف إلى ذلك: أنه لا يمكن استبدال الثقافة بالإعلام، أو الحضارة بالتقدم التكنولوجي، أو الإنسان بالآلة.

لقد أثبتت الحرب الحالية أن الإعلام، رغم قوته واتساعه ومهارته، لا يمكن أن يحلّ مكان الثقافة، وان الشيء المؤقت والمراقب والموظف لخدمة حدث طارىء، قد يحجب الحقيقة يوماً، لكن بمجرد وجود ثغرة، في هذه الآلة الكبيرة يمكن أن تعطبها، أن تجعلها تنقلب على صانعها، وأبسط الأدلة على ذلك قصف ملجأ العامرية في بغداد، إذ رغم الكثير من محاولات التنصل، والثناء على الآلة، ومهارة العاملين عليها، فقد ثبت للعالم كله ان الحقيقة لا بد أن تظهر، وأن الحضارة أعمق جذوراً، وأن الإنسان، كإرادة، وكطاقة عقلية، يتفوق ويتجاوز

الآلات التي يصنعها، ويبدو أن هذا لا يريد الأميركيـون، أو لا يستطيعون، أن يستوعبوه أو يتصوروا وجوده.

انني أورد هذه الفروق ليس بهدف التحريض أو إثارة النعرات القومية، ولكن لأدلل أن شعباً له تاريخ ويتواصل مع حضـارته وثقافته، وجـذوره، يختلف عن ركاب بـاخرة جمعتهم الصـدفة وروح المغـامـرة، ويتصـورون أنهم بـأمـوالهم، أو بـالفخـامـة الخـارجية، يمكن أن يـوجدوا تـاريخـاً، ويتصلـوا مـع النبض الحقيقي لـلإنسان الـذي عـاش عـلى هـذه الأرض منـذ آلاف السنين وسوف يستمر فوقها إلى فترة لاحقة غير محدودة.

لقد خسر ثوار الحرب الأهلية الإسبـانية الحـرب لكنهم كسبوا الحضـارة والمستقبل، ولم يكن فـرانكو إلا كـابـوسـاً مـرّ بـين فترتين. وكـانت أوروبا الحـرة، والتي واجهت الهتلريـة في وقت لاحق، بدأت أولى معاركها مع فرانكو. ولا حـاجة للقـول هنا أن من جملة الأسباب التي عجلت بهزيمة ثـوار اسبانيـا، ومن ثم وصـول هتلر إلى اجتيـاح أوروبا، أن فـرانكـو اتخـذ المتـاحف والأبنيـة الأثـريـة درعـاً، ولم يكن لـدى الثـوار جـرأة لقصف تاريخهم ومستقبلهم، ولذلك آثروا الانسحـاب تاركـين للهمجية الديكتاتورية أن تنتصر.

الآن، الطـائـرات الامـيركيـة الحـاملـة لآلاف الأطنـان من المتفجرات، والتي تريد أن تلقي حمولتهـا، أن تتخلص من هذه الحمولة، لكي تعود إلى قواعدها بسـلام، هذه الطـائرات تقـوم الآن بما عجزت عنه آلاف السنين، والمليئة بالقسـوة والحروب، انها تدمر الحضارة والآثار والنصب التاريخية.

جسر الشهداء الذي قصف، أقدم جسر في بغداد، يسمى الجسر القديم، وهو باتجاه واحد، لأنه لا يحتمـل سيارتـين. وعلى هـذا الجسر سقط شهـداء بورتسمـوث عام ١٩٤٧، وضمنهم شقيق

الشاعر محمد مهدي الجواهري. لماذا يقصف هذا الجسر الآن؟

وأهم نصب في المنطقة العربية، وربما في مساحة أوسع، نصب الحرية، الذي أبدعه جواد سليم، ويطيب لي أن تقول زوجته الانكليزية كلمة للدفاع عن نصب زوجها، والذي يقابل أحد الجسور في بغداد، يحتمل أن يكون قد قصف أو أنه موضوع على القائمة! وكذلك الحال بالنسبة للآثار التاريخية التي عمرها آلاف السنين.

إن شعباً متحضراً يمتلك نظرة تاريخية لا يمكن أن يتعامل مع الآثار والفن بهذه الطريقة، ولا يمكن أن تبلغ به القسوة أن يضع على قائمة أهدافه ما يعني تاريخاً وحضارة وشيئاً عزيزاً يهم الكثيرين، يهم الجميع. قد أكون مدفوعاً بنوازعي الأدبية والفنية وأنا أتحدث عن الحرب، لكن لنحاول أن نرى الصورة من الجانب الآخر:

الحشد الأكبر الموجود حالياً في الخليج هو لأميركا. هذا الحشد لا يدل على حرص أميركا على الشرعية الدولية قدر ما يدل على حجم المصالح التي لها هناك، وهذه المصالح، بالدرجة الأولى، هي النفط. والنفط المستورد، الآن، ليس حاجة أساسية لأميركا لاستمرار اقتصادها، كبلدان أخرى، صحيح أن هذه الحاجة تزداد سنة بعد أخرى، ولا بد أن تعتمد على موارد خارجية، لكن في المرحلة الراهنة يعني لها النفط شيئين: الأرباح، ومحاولة التحكم بطرق حياة الآخرين في المستقبل.

وهنا نصل إلى النقطة المفصلية الثانية في هذه المقالة: من يتحكم بمصادر الطاقة، من يكون أقوى في هذا المجال، يكون في وضع أقوى في التنافس الاقتصادي.

النظام الدولي الجديد يعني، بشكل موجز، التنافس الاقتصادي

بين كتل كبرى. والكتل الاقتصادية كما تبدو الآن: الولايات المتحدة وكندا؛ أوروبا الغربية، خاصة بعد وحدة ألمانيا، أي السوق الأوروبية، مع احتمال اتساع هذه السوق وتطورها؛ اليابان وبعض دول شرق آسيا، وعلاقتها بالصين؛ وأخيراً الاتحاد السوفياتي. لذلك سيكون النفط أحد العناصر الهامة بالنسبة للكتل الاقتصادية المتنافسة. فاليابان تستورد كامل حاجتها من الخارج؛ وأوروبا تستورد الجزء الأعظم أيضاً من الخارج؛ أما الولايات المتحدة التي تتحكم، من خلال شركاتها وعلاقاتها بالدول النفطية، بالقسم الأكبر من ملكية وتجارة النفط الدولية، مما يعزز وضعها الاقتصادي، وبالتالي التنافسي، وأيضاً لاحتفاظها بأموال النفط على شكل ودائع وأسهم، أو من خلال مبيعات السلاح. خاصة للدول النفطية، فإنها الآن في وضع يمكّنها من فرض صيغة للنظام الدولي الجديد.

وهكذا نلاحظ أن النفط في عالم ما بعد الحرب الباردة سيكون أحد العوامل الأساسية الذي يعطي للصراع الدائر في المنطقة الآن أبعاده واحتمالاته، النفط كطاقة، النفط كأسعار، النفط كإمدادات. وعلى ضوء هذا الصراع. كنتائج على الأرض، ثم كعلاقات بين أطراف التحالف، ونصيب كل طرف من هذه الكعكة، سيحدد طبيعة النظام الذي يمكن الوصول إليه أو فرضه للمرحلة القادمة.

لكن أغلب ما يُخطط له قد لا يستطاع تنفيذه، لأن المخططين كثيراً ما يغفلون العوامل غير المنظورة أو يقللون من أهميتها. فعالم ما بعد الحرب الباردة لا يحتمل قطباً واحداً مهما كان هذا القطب قوياً. والتاريخ الإنساني لم يقدم لنا إلا نماذج قليلة، ولفترات قصيرة، على إمكانية وجود قطب واحد للعالم، وعلى قدرته للاستمرار، فما عدا روما القديمة، فإن الإمبراطوريات سرعان ما تنهار. وهذا الاحتمال الآن أضعف

من أية فترة سابقة لتغير طبيعة العالم والعلاقات والزمن، ومن هنا فإن نظاماً دولياً جديداً يتحكم فيه قطب واحد أمر متعذر أو بالغ الصعوبة، وهذا ما يستدعي الانتباه المبكر لمنع كوارث قادمة.

لا تتصور أميركا أن تتراجع أو أن تخسر مواقعها، لكن الوقائع المادية على الأرض تقول عكس ذلك، فإذا قارنا ما يشكله اقتصادها الآن للاقتصاد العالمي، بالمقارنة مع العقود الماضية، نلاحظ تراجعاً كبيراً، كما أن العجز في الميزان التجاري بلغ أرقاماً كبيرة.

الآن، في مرحلة ما بعد الحرب الباردة، وفي إطار النظام الدولي الجديد، تحاول أن تستعيد المبادرة، وأن تعوّض ما فاتها. لكن عالماً طابعه المنافسة الحضارية بين كتل كبرى، وعالم ينقسم إلى شمال يملك القسم الأكبر من القوة والخبرة والتقدم، وجنوب تزداد ديونه ومشاكله يوماً بعد آخر، لا يتيح الإمكانية لاستمرار الدورة الاقتصادية من ناحية، كما لا يتيح فرص السلام والتعاون، هذا عدا عن طموحات الشعوب ورغبتها في التحرر والمساواة والتكافؤ على جميع المستويات.

إن ما يخفى على الكثير من الغربيين، وبنسب متفاوتة، وبعض الأحيان يفاجئهم، هو أن للآخرين، الجنوب، العالم الثالث، حقاً مشروعاً في الحياة، ولهم طموحهم وثقافتهم؛ وكثيراً ما كانت أخطاء الشمال، بالدرجة الأولى، السبب في تفجر المشاكل والعداء وعدم الثقة.

فالموجة السلفية التي تسود منطقة الشرق الأوسط الآن هي إحدى ردات الفعل على القهر والظلم لأنظمة ولعلاقات فرضها الغرب، سواء في إيران الشاه أو في المنطقة العربية، خاصة النفطية، الآن. فالكويت ليست مهمة، وهي ليست واحة للديمقراطية بالنسبة للمنطقة؛ أهميتها نتيجة الثروة النفطية

الكامنة تحت رمالها؛ وهذا الغرب الحريص على الشرعية الدولية، والذي بعث بقواته وأساطيله من أجل تحرير الكويت، دون قيد أو شرط، الغرب نفسه أصمّ أذنيه طوال عشرات السنين عن قضايا أكثر أهمية بالنسبة للمنطقة، ولم يفعل شيئاً من أجل تنفيذ قرارات الشرعية الدولية نفسها.

من هنا يشعر المثقفون العرب أن الغرب يرفع بعض الشعارات، ويتعامل بها كأقنعة وسواتر، وتتفاوت دلالات هذه الشعارات تبعاً للموضوع الذي يجري التعامل معه. فالديمقراطية مثلاً تختلف دلالاتها من مكان لآخر، وتتفاوت الشعوب في مدى استحقاقها أو الأنظمة الدكتاتورية التي تعاني منها شعوبها تلقى كل الدعم من الغرب. والبذخ الذي يعيش فيه الحكام يتم السكوت عليه من الغرب في الوقت الذي تفقر الشعوب وتجوّع. هذا عدا عن عشرات السلبيات الأخرى التي يتم التستر عليها. أكثر من ذلك القمع وانتفاء الحريات لا يراها الغرب ولكن يرى العداء له، ويرى الموجة الدينية الخطرة.

لذلك يعتبر المثقفون العرب أن جزءاً هاماً مما تعانيه المنطقة العربية نتيجة تواطؤ بين الأنظمة الديكتاتورية والرجعية المسيطرة هنا، وقطاع واسع من الغرب، على المستوى السياسي والإعلامي، وحتى على مستوى الفهم أو رغبة الفهم تطلعات وهموم هذه المنطقة. وقد يستخرج بعض الأكاديميين نظريات عفا عليها الزمن حول الاستبداد الشرقي، أو طفولة بعض الشعوب، أو سيطرة الجانب العاطفي وطغيانه على الجانب العقلي.. الخ، لتفسير ما يجري في المنطقة.

إن موقفاً كالذي تقفه الدول الأوروبية الآن، وهذه الحرب الاعلامية التي تحاول تشويه الآخر أو تغيّبه، إضافة إلى اعتماد «نظريات» أو تسعير العداء استناداً إلى تاريخ فترات معينة، إن من شأن هذا أن يعيق ويصعب إمكانية الحوار

والتفاهم، ومن شأنه أن يقيم حواجز سميكة من العداء وسوء الفهم، وبالتالي تصبح شعوب المنطقتين ضحايا لسياسات خاطئة وأنانية.

يميز عدد كبير من المثقفين العرب بين الغرب كسلطة والغرب كشعوب وحضارات وثقافات، ويميز هؤلاء أيضاً بين أوروبا وأميركا من جوانب متعددة، ففي الوقت الذي يعتبرون أن القرب الجغرافي مع أوروبا يجعلها أكثر قدرة على فهم تطلعات الشعوب نحو الحرية والديمقراطية والمساواة، ويعتبرون أن جزءاً من حضارة عصر النهضة كان نتيجة تفاعل الحضارة الأوروبية مع الحضارة العربية الإسلامية، كما ان التطورات التي حصلت في القارة الأوروبية خلال القرنين الماضيين، بكل ما فيها من سلبيات وإيجابيات، كانت بحكم الحاجة لتجاوز الصعوبات التي واجهت شعوب تلك القارة، من حيث تعنت الطبقات القديمة... هذه الأمور، وغيرها أيضاً، يدركها عدد كبير من المثقفين العرب، ويحاولون، قدر الإمكان، أن يستخرجوا منها الدروس والعبر من أجل بناء علاقات الحاضر والمستقبل، لكن محاولة من هذا النوع لا تلقى تفهماً وتجاوباً كافيين من الطرف الآخر لأسباب متعددة ومتداخلة، الأمر الذي لا يجعل الحوار مستمراً أو مجدياً.

ان عدداً من المزايا الكامنة لعلاقات محتملة بين العرب وأوروبا، ولم تستثمر بعد، ولا تتوفر لأميركا، يقابلها في الجانب الأمريكي عقل براغماتي قادر على التعامل مع الوقائع دون عقد، ودون عبث التاريخ. ولأن العالم أصبح صغيراً، فإن النظرة إلى الجغرافيا للعقل الأميركي أصبحت مختلفة أيضاً.

إن المعركة الدائرة الآن، وهي متعددة الجوانب، لا تقتصر على المعركة العسكرية فقط، كما أن لها أطرافاً متعددة أيضاً، شديدة الأهمية والخطورة في آن واحد، وأهميتها لا تقتصر على

النتائج العسكرية، لأن طبيعة النظرة إلى الآخر الكامنة وراءها، وما يريده كل طرف من الطرف الثاني، وكيفية التعامل مع الوقائع والحقائق الصغيرة والكبيرة، الثقافية والتاريخية والدينية والحضارية، وأيضاً الإعلامية، سوف تنعكس بشكل قوي على المستقبل. كما أن طبيعة العلاقات التي توحّد أو تباعد بين مناطق ومصالح وكتل سيكون لها تأثير بالغ على التطورات اللاحقة.

وإذا كان لا بد من كلمة أخيرة في هذا المجال فهي أن من جملة مظاهر الحرب الدائرة الآن محاولة تغييب الرأي العام، وإعادة صياغة قناعات البشر، وانتزاع المكاسب التي تحصلت في فترات سابقة للثقافة والرأي المستقل وحق الجمهور في معرفة الحقيقة، وأيضاً حقه في الاعتراض والاختلاف.

لو تأملنا بهدوء ما يجري في المجالات المذكورة، وغيرها، نجد ان ما تحدث عنه جورج أورويل في «١٩٨٤» لا يقتصر على نظام أو على منطقة جغرافية أو مرحلة تاريخية، لأن أبرز تجلياته ما يجري الآن، وعلى مستوى عالمي: غسل الدماغ، إعادة تشكيل الذاكرة، وخلق الإنسان النمطي. وقد يكون هذا من جملة المساوىء التي نراها في المعركة الراهنة، والتي ستكون عنوان المرحلة المقبلة.

فالولايات المتحدة جاءت للدفاع عن العربية السعودية في مواجهة احتمال غزو عراقي، قريب، وانتقلت بعد فترة إلى تحرير الكويت، ثم وضعت هدفاً: تحطيم الآلة العسكرية العراقية ثم إسقاط النظام، كل ذلك ترافق مع إعادة صياغة المنطقة، سياسياً وجغرافياً، ضمن نسق يلائم المرحلة القادمة. يجري كل ذلك خطوة بعد أخرى، وعلينا أن نستمع إلى جميع البيانات، وأن نصدقها، وعلينا أيضاً أن نوافق ثم أن نمتثل، وكل من يبدي قولاً مخالفاً، إذا استطاع، يشكك فيه ويصبح

منبوذاً، وقد يوصف بأكثر من ذلك، وسوف يعامل ويعاقب تبعاً لذلك.

ان القصة المشهورة حول الذئب والحملان (الخراف الصغيرة) تتكرر باستمرار، فهذه الحملان يجب أن يأكلها الذئب، لكن يجب أن تتوفر الأسباب الوجيهة لذلك، وعليه، فإن الحمل الذي يشرب من رأس النبع أو من نهايته تسبب بتعكير المياه على الذئب، ولا بد أن يأكله. وهكذا، فإن الأسباب الموجبة موجودة دائماً، وعلينا أن نصدق، أن نوافق، أن نمتثل!

قد تنتهي الحرب الدائرة الآن «بمنتصر» ومهزوم، وقد تنتهي بتسوية، لكن الحرب الحقيقية ليست هي الأسباب المعلنة، وليست الشعارات التي ترفع، والكلمات التي تقال، إن لها أسباباً أخرى، أغلب الأحيان، خفية. وأكثر الحروب فجيعة هي تلك التي تطيح برؤوس وأنظمة كانت تفترض أنها جزء من تحالف المنتصرين.

إن استعادة الرأي العام لدوره، استعادة الإنسان لإنسانيته وأهميته، وحقه في المعرفة والمشاركة، وقدرته أن يكون أميناً لقناعاته وثقافته وعصره، ما يجعله جديراً بأن يساهم في بناء النظام الدولي الجديد، نظام ما بعد الحرب الباردة، وإلا لا فائدة، ولا أمل، لا هنا ولا هناك.

فاضل العزاوي

كيف تفسد الثورات؟

يروي الكاتب الإيطالي البرتو مورافيا في رواية قصيرة له بعنوان (الحفلة التنكرية) التأرجح الروحي لفاتح مأخوذ بهوس العدالة والحرية: ما ان يدخل المدينة التي حررتها قواته ويقيم فيها سلطانه حتى تتحول العدالة والحرية على يديه إلى جرائم ترتكب وعبودية أقسى من العبودية التي أسقطها. هذه الموضوعة تشكل في الحقيقة جوهر التاريخ البشري. ما تكاد الأيديولوجيا تتحول إلى نظام قائم في الواقع حتى تفسد تدريجياً ويتحول الأبطال أنفسهم إلى مجرمين وضحايا، باسم الضرورات الواقعية التي لم تفكر فيها الأيديولوجيا والتي لا يمكن لها أن تفكر فيها بطريقة ملموسة، مسبقاً. ان ثمة خندقاً عميقاً، يفصل الفكرة في الرأس عن الفكرة في الواقع. إما أن تخضع الفكرة للواقع، وهذا يعني إعطاء الأولوية للحياة، أي التنازل عن دعوى الحقيقة المطلقة للأيديولوجيا في مواجهة الأيديولوجيات الأخرى التي ينبغي أن تمتلك الفرصة نفسها لإثبات صحتها في الواقع، أو أن يخضع الواقع للفكرة، وهو أمر غالباً ما يقود إلى الجريمة.

يمتلك الفاتح (في الوطن العربي والعالم الثالث: قائد الانقلاب العسكري دائماً) امتيازاً لا يمكن أن يتخلى عنه أبداً. إنه هو الذي قتل الوحش. ولا بد للشعب من أن يدفع الجزية للبطل

إلى الأبد: يخرج الشعب في البداية ليصفق للبطل الذي يجلس فوق العرش الذي كان يحتله الوحش من قبل، ربما مع بعض التغيير في الديكور. ولكن ما تكاد هذه الحفلة تنتهي وينصرف الشعب، حتى يشعر البطل بالضجر والإهمال، وبتقصير الشعب تجاهه. فلولاه لظل الشعب خاضعاً للوحش حتى النهاية. وهكذا يصبح هاجسه الأول هو الهتاف باسمه. كان الزعيم عبد الكريم قاسم الذي قاد ثورة ١٤ تموز في العراق يردد دائماً: «أنا الذي صنع الثورة، لا أنتم». في الحقيقة ان منطق عبد الكريم قاسم هو منطق الجميع. ولكن هذا المنطق بالذات هو ما يحول البطل نفسه الى وحش جديد، يترصده بطل آخر، يسقطه في اللحظة التي يقدر فيها عليه.

ان الأمر لا يتعلق بالنوايا، مهما كانت هذه النوايا مخلصة، وإنما بآلية عمل السلطة نفسها، بتطورها، بالمسافة القائمة بين الفكرة والواقع. إن الفاتح الذي يضع نفسه فوق الآخرين لا يفعل ذلك من دون مبررات وضرورات. فهو منذ اللحظة التي يغتصب فيها عرش الوحش، يدرك أنه قد أصبح وحشاً، مهما كان ادعاؤه الايديولوجي انسانياً. وبالتأكيد، فإن هذا الوحش الجديد لا يعترف أبداً بالدم الذي يلطخ أو سيلطخ يديه، ما دام يمتلك رسالة عظيمة الى المستقبل. ان الفاتح منذ اللحظة التي يغتصب فيها السلطة، يقسم الناس إلى فصيلتين: الشعب وأعداء الشعب.

في البداية يخرج الأعداء من كهف الوحش القديم. ولأنه لا بد للثورة من أن تحمي نفسها، فإنها تقطع رقابهم أو تعلقهم على المشانق. وإذا ما أظهر الفاتح حكمة مبكرة فإنه قد يرسلهم إلى السجون. وفي كل الأحوال، فإن الثورة لا تكون ثورة من دون أعداء. إذا لم يكن ثمة أعداء فإنها تبتكرهم من داخلها هي نفسها. فالفاتح يحتاج دائماً إلى معارك، ينتصر فيها مثلما

انتصر على الوحش في الانقلاب الذي قاده بنجاح ضـده. كانت الأجهـزة الستالينيـة تطلب من أكثر الأعضـاء إخلاصـاً داخل الحزب أن يعترفوا بارتكاب جرائم لم يقترفوها، لأن ذلك يخـدم الحـزب، أو أن يضحوا بـأنفسهم في الاعتراف بـالتـآمـر مـع آخرين، يفترض أنهم معادون. كان هؤلاء يـرمون بـالرصـاص وهم يهتفون بحياة الحزب أو حتى بحياة ستالين.

ان الحاكم الذي يغتصب السلطة بانقـلاب أو ثورة ويصرّ عـلى مواصلة القيادة باسم الحق الـذي اكتسبه بـالقوة، إنمـا يعيد المقصلة إلى بدايتها، ذلك أن التبرير الوحيد الذي يتمسك به في امتلاك الشرعية، وهي شرعية مثقوبـة في كل الأحـوال، هو أنـه يعد الناس بالفردوس. ما الذي يتضمنه البيان الأول لـلانقلاب العسكري الذي يلقب نفسه دائماً بـالثورة؟ إعـادة الحريـة إلى الـذين اغتصبت حريتهم، الإصـلاح، إنهاء الفسـاد، احتـرام حقوق المواطنين، العدالة... الخ. إن الأمر ليس دائماً مسرحيـة مدبرة. فقد يمتلك الحاكم الجديد نوايا طيبة، ولكنه لا يمكن إلا أن يكون جلاداً، اذا مـا ربط شرعيته بـالسيف الذي يحملـه في يده. فعلى الرغم من كل المهرجانات والمظاهـرات والمواكب التي تمـر من أمام الـدكتاتـور البطل، عـلى الرغم من كـل الأغـاني والقصائد التي تمجـد صنيعه الأسطـوري، على الـرغم من كل الصحف التي تعتبره وحيد زمانه، فإنه لا يجرؤ على أن يعرض نفسـه لامتحـان حقيقي في الـواقـع. إن ضعفـه يكمن، رغم الادعاءات كلها، في خوفه من منح الآخرين حق الاختيار. أقصى مـا يمكن أن يقبل بـه، وهـذا لا يحـدث دائمـاً، هـو أن يكـون المرشح الوحيد في استفتاء لا يملك فيه أحد حتى القـول سواه. لا يهم هذا إذا كانت النتائج المعلنـة صحيحة أم لا، وهي عـلى الأغلب ٩٩,٩ في المائة من الأصـوات المؤيدة، ذلـك لأن العملية كلها تقوم على تلفيق يشمل النظام كله.

إن الرئيس العربي يظل متشبثاً بمقعده الأسطوري حتى النهاية، لا يغادره مهما فتك به المرض والخوف والشيخوخة (تذكروا المجاهد الأكبر بورقيبه!) إلا إذا استدعاه الله إليه أو أطاح به انقلاب، يدبره على الأغلب وزير دفاعه أو أحد المقربين منه. وإلى أن يحدث ذلك، فإن الدعاية الرسمية المرتبطة بالعقلية العربية التهويلية التي تقدس السلطة، ترفع الحاكم إلى مستوى الآلهة. كان اللقب الرسمي لعبد الكريم قاسم هو «الزعيم الأوحد» و «الرجل الذي لا ينام». أما عبد السلام عارف، وهو شخصية قائمة على مزيج من العصاب والكذب والجهل الفكري والسياسي، فكان يفضل لقب «قائد الثورات الثلاث». وفي مصر كان أنور السادات الذي لم يعرف أبداً بالتقوى، يحبذ لقب «الرئيس المؤمن»، ولكن أيضاً «بطل العبور» وأخيراً «بطل السلام». عزاؤنا أن هذه الظاهرة التي تحوّل القائد العسكري إلى خرافة، لا تقتصر على العرب وحدهم. في تشيلي يطلق بينوشيت على نفسه اسم «الرئيس المنقذ» وفي الكونغو يسمي موبوتو نفسه بـ «الرئيس الهابط من السماء».

إن ما يطفو على السطح هو الذي يمنح الجوهر معناه، بل إنه هو نفسه يتحول إلى جوهر، يطغى على أي جوهر سواه. وفي الحقيقة ان النظام، أي نظام، لا يمتلك الامتياز الذي قد يضفيه على نفسه، بدعوى أيديولوجيته، يوتوبياه، شعاراته يرفعها الا بقدر ارتباطها بالحرية، وهي حرية تتحقق في الواقع قبل كل شيء، ذلك لأن الأيديولوجيا مهما كانت انسانية فإنها لا تشكل ضمانة ضد الجريمة. وربما كان الادعاء الأجوف للأيديولوجيات الإنسانية بأنها تحتكر الحقيقة المطلقة، هو البذرة الأولى التي تنمو منها الجريمة. ان هوس امتلاك الحقيقة المطلقة التي تمسك برقبة التاريخ وتدخله في الزقاق الذي تريده، وهو دائماً زقاق مغلق، لهو أسوأ ألف مرة من عدم

اليقين التاريخي. ففي حين ان ملكية الحقيقة المطلقة تقربنا من الآلهة، يهبط بنا اللايقين التاريخي الى موقعنا بين البشر الآخرين. ليس هذا بالتأكيد دعوة إلى اللاموقف بقدر ما هو تأكيد على الموقف الذي ينبغي أن يفكر به في كل مرة. ليس هذا اعلان موت للأيديولوجيا وانما محاولة لتحريرها من قيودها، باعتبارها وعياً يتخذ أشكالاً مختلفة لوجود ملموس، لا وجود مطلق، مرة من خلال ربط الوعي بالحرية، وأخرى من خلال اعتبار الإبداع جوهر كل تقدم. وهكذا، فإن الرؤية الاجتماعية (السياسية والاقتصادية والقانونية والتربوية والفنية والأخلاقية) تحدد في كل مرة في كل مجتمع، وفي كل مرحلة من جديد، في ضوء الهدف الذي تسعى الايديولوجيا للوصول إليه، وفي ضوء المصالح التي تتضمنها. إن الخراب يرتبط دائماً بالكسل الفكري الذي يبحث عن وسائد أبدية، يتكىء عليها، باستبدال الوعي الاجتماعي المعقد الذي يتجلى عند الأفراد في مستويات مختلفة ويختلط بهواهم الشخصي وتاريخهم وحساسيتهم، بوعي ذي صفة شمولية، ولكن أيضاً بالوعي الايديولوجي الذي تنتجه السلطة، وهو في الأغلب وعي الحاكم الذي يبحث عن تبرير لأفعاله.

لا يمكن للأيديولوجيا، أية أيديولوجيا أن تقدم ورقة تزكية لأحد. ان أكثر الايديولوجيات تقدمية يمكن أن تنتج مواقف وأنماط سلوك رجعية عندما ترتبط بأفعال الناس في الحياة، لأن الدعوى فكرة عامة مؤجلة، مرمية في المستقبل، في حين أن الموقف الملموس يعكس الواقع الفعلي والطبيعة الحقيقية. ولكن ذلك لا يتم بسبب الايديولوجيا، وان كان المظهر أيديولوجياً، وإنما بسبب انكار الحياة لصالح الايديولوجيا. إن الأمر يشبه، حتى عند كثير من الماركسيين، موقف المثالية التي تعتبر الحياة وهماً عابراً، صورة منحطة لمثل أسمى في عالم آخر، يمثل الحقيقة.

إن شاعراً محافظاً مثل ت. س. اليوت ورساماً سورياليـاً مثل سلفادور دالي كانا بالتأكيد أكثـر وعياً بـإشكاليـة العالم الـذي يعيشان فيه من ألوف الشعراء والرسامـين الذين اقتصر همهم على تحويل الأيديولوجيا الى قصائد ولوحـات، وبصورة مـا على وضع المثال في تعارض مع الحياة المساء فهمها. إن قيمة بـابلو بيكـاسو لا تنبـع من الايديـولـوجيـا، وانمـا من وعيـه العميق بإشكالية الحياة، وقدرته الفائقة على النظر. وسواء عند بيكاسو (الشيوعي سياسياً) أو عند اليوت (الكاثوليكي المحافظ)، فـإن الايديولوجيا ليست سوى أفق عام من الـرموز الانسـانية التي تمثل الوحدة البشرية.

مشكلة الايديولوجيين الذين يتظاهرون بامتلاك الحقيقـة المطلقة (الجواب الماركسي أو القوماني أو الديني) هي أنهم لا يقدمـون موقفاً ملموساً، يستمد قوته من الضرورات الفعلية للحيـاة بقدر ما يقدمون موقفاً، تلوي عنقـه مقولات الـوصفة الايـديولـوجية التي يفترض أنها تصلح لكل شيء. الايـديولـوجيا بهـذا المعنى هي العصا السحرية التي ألقى بها موسى أمام فرعون فتحولت إلى حيّة تسعى. من سوء حظ الكثير من الايديولوجيين الذين لا يملكون موهبة كارل ماركس بالتأكيد، هو أنهم تحولوا مع الزمن إلى سحرة. ولكن إذا كانت عصا موسى قد أنقذته أكثر من مرة، العصا التي شقّ بها البحر، فإن السحر الايديولوجي المعـاصر قاد في الكثير من الأحيان الى الجريمة. إن الرهان على المستقبل وقبل كل شيء عـلى الفردوس الـذي سوف يتحقق فـوق الأرض ذات يوم، يمكن أن يتحول إلى عقيدة عمياء، تلغي الحـاضر، أو أن ينتمي إلى اليـأس وفقدان الإيمـان حتى إذا ظلت لافتـاتـه معلقة على الواجهات.

لقـد ارتكب ستالـين باسم المـاركسية جـرائم أكثر من جـرائم جميـع القياصرة الـذين سبقـوه، مجتمعـين. إن هـذا لا يعني

بالتأكيد أن النظام القيصري كان أفضل من النظام الستاليني (الصورة الأسوأ للنظام الاشتراكي)، ولكنه يشير الى أن جرائم النظام القيصري كانت ناتجة عن طغيان، يستمد تبريره من دفاع طبقة تضع نفسها فوق الشعب، عن امتيازاتها، ولذلك فإنها جرائم يمكن فهمها، جرائم التاريخ نفسه، أما جرائم ستالين فكانت تستمد تبريرها من الشعب نفسه، من المستقبل، من قوة الحقيقة المطلقة التي أصبح هو ساحرها الجديد، سكرتيرها العام، زعيمها العظيم في العالم كله.

إن ستالين في الحقيقة لا يشكل دليلاً على عمى الايديولوجيا، بقدر ما يدل على أن الايديولوجيا، كل ايديولوجيا يمكن أن تتحول إلى أداة للجريمة، إذا ما مسخت على يد من يعتبر الولاء له شرطاً لإثبات الولاء للايديولوجيا. وبهذا المعنى غالباً ما تكون الجرائم، ذات المسوح الايديولوجية جرائم هوى، أيقظته شيزوفرينيا الحقيقة التي يتمثلها القائد في ذاته. إن الظاهرة الستالينية لا تقتصر على الماركسية وحدها. فالعمى الايديولوجي الذي يرتبط بالتعصب كان موجوداً دائماً في التاريخ. وهو في كل الأحوال تعبير عن اليأس باسم الإيمان، عن رمي الواقع في الوهم، عن الذهاب إلى الجنة في رفقة الشيطان. ولذلك، فإن العميان الأيديولوجيين غالباً ما يكونون قادرين أيضاً على الانتقال من قطب إلى آخر، حتى من دون شعور بالإثم، مثلما يضحّون بأنفسهم في ظروف أخرى. انهم يدمرون التاريخ مثلما يصنعونه. كانت معجزة فرانكنشتاين قدرته على الخلق، ولكن الوحش الذي خلقه دمر كل شيء.

الثورات ترتبط بالحلم في مواجهة واقع ينبغي هدمه. ولكن ما يكاد أبناء الثورة يقيمون سلطتهم حتى يكفون عن الحلم، مصطدمين بالصخرة الباردة للواقع، حيث تبنى الحياة بأدوات الحياة نفسها، ومع ذلك فإنهم لا يتنازلون عن الامتياز الذي

حصلوا عليه باسم الحلم، بل انهم مرغمون على ادعاء الحلم الذي يكون قد تحول إلى جثة بين أيديهم. ان الفاتح بعد النصر هو غيره قبل ذلك، والضحية غالباً ما ترث من الجلاد عاداته. وحينذاك ينتقل الحلم الذي قد يغير اسمه الى حالمين جدد. أما الفاتح الذي يجلس فوق الكرسي المغري للسلطة، فلن يمتلك سوى الذكريات، وهي ذكريات تعدل بين الحين والآخر، طبقاً لضرورات السلطة. وثمة آخرون يتنكرون مع الزمن حتى لتاريخهم، منتقلين إلى ما قد يصفونه بـ «النضج السياسي» والذي غالباً ما يعني شيخوخة الثورة وفقدان كل صلة فعلية بماضيهم الخاص. ولأنهم جاؤوا باسم الايديولوجيا، فإنهم يفرغونها من كل معنى ويحولونها إلى شبح خرافي يحرسهم، مرة من الأعداء وأخرى من الشعب الذي ينبغي أن يظل على اعتقاده أن الشبح الجديد هو الملاك القديم نفسه، بعد أن مرت عليه السنون.

الحكمة المرّة التي يقدمها لنا التاريخ هي أن الحكام الأقل ايماناً بالأيديولوجيا، كانوا دائماً أكثر انسانية من أولئك الحكام المأخوذين بهوس إقامة الفردوس فوق الأرض. يسقط الظل بين الفكرة والواقع حالما تبدأ لحظة السلطة. إن الجنة التي يتطلع الناس للوصول إليها تمتلك اغراءها، ولكن ما يكاد البشر يحاولون تشييد هذه الجنة فوق الأرض، حتى تتحول الملائكة نفسها إلى شياطين، ويكتشف الناس في النهاية انهم قد بلغوا الجحيم عن طريق الجنة.

*

كان المسيحيون الأوائل الذين يلقى بهم إلى الأسود التي تفترسهم في الحلبة، يصلّون من أجل خلاص أرواح أعدائهم، غافرين لهم ذنوبهم. ولكن ما كادت الكنيسة تمتلك السلطة (أمثلة القرون الوسطى) حتى راحت تحرق الأبرياء أحياء.

القسس الذين ساروا في ركاب الفاتحين قدموا بركاتهم دائماً للقتلة، حتى لكأنهم سلوقيو موت، خارجة من الماضي. وفي العصر الحديث كان الدكتاتوريون غالباً ما يستمدون شرعيتهم من البركات الإلهية التي تبرر الموت. وفي أفضل الأحوال كانت الكنيسة تغمض عينيها وتصمت لقاء الأموال التي تستلمها. هل يمكن لأحد أن ينكر أن الجنرال فرانكو ارتكب جرائمه ضد الشعب الاسباني، بمباركة من القسس الذين اعتبروه السيف الذي شهره الرب في وجه الإلحاد الشيوعي والفوضوي؟

وفي الإسلام عفا محمد دائماً عن ألدّ أعدائه، عفا حتى عن التي أكلت كبد عمه، ودخل مكة التي قاومته وشردته، من دون أن يسفح قطرة دم واحدة. كان يعرف أن الكثيرين من الذين أعلنوا إسلامهم إنما فعلوا ذلك في ظل الهزيمة، ولكنه منحهم فرصة التعلم من الحياة، مكتفياً بالإسلام المعلن ومعتبراً الايمان قضية خاصة بين الإنسان وربه. كان الإسلام لا يزال فكرة، تطلعاً إلى العالم الأسمى، فكرة لم تكتمل إلا في أواخر أيام النبي عندما ألقى خطبته الشهيرة، خطبة الوداع «اليوم أكملت لكم دينكم ورضيت لكم الإسلام ديناً».

ولكن محمداً كان نبياً، لا حاكماً حتى إذا كان قد قدم أمثلة في الحكم، فالدولة الفعلية لم تشيد الا بعده، في خضم الصراع الشديد الذي خاضه المسلمون فيما بينهم من أجل السيطرة على السلطة. وهي سلطة عمدت بالدم أيضاً مثل أية سلطة أخرى في التاريخ. ما كاد الإسلام ينتقل من طور الرسالة إلى طور اقامة النظام، حتى بدأت الفتنة تفتك بالمتصارعين على السلطة وتدحرجت رؤوس كثيرة هنا أو هناك باسم الدفاع عن الإسلام الذي كان كل طرف يفسره بالطريقة التي تناسب مصالحه. وفي الحقيقة ان النظام ظل دائماً دون الحلم الذي بشرت به الرسالة، أي أن النظام المتطابق كلياً مع الفكرة

المحمدية، لم يتحقق في أي وقت من الأوقات. ومع انتقال الحكم إلى الأمويين ومن ثم العباسيين وطيلة قرون حتى الزمن الذي نعيش فيه، لم يكن الإسلام سوى غطاء للأنظمة، بغض النظر عن النيات. وهو أمر ما كان يمكن أن يكون غير ذلك.

إن أهم خطر يواجه الإسلام الآن يكمن في الدعوة إلى تحويله من عقيدة إلى نظام للحكم (ثابت أزلي) لم يوجد أبداً ولن يوجد في المستقبل أيضاً. إن القوة الروحية والثقافية للإسلام (وهذا هو جوهره) تكمن في دعواه من أجل العدالة الاجتماعية والمساواة والحرية، لأن أشكال التنظيم القانوني والإداري للحياة، تلك الأشكال التي تتغير باستمرار وتطرح إشكالات مرتبطة بها، هي قبل كل شيء إشكالات الصراع الاجتماعي من أجل التقدم. أما إذا اعتبرنا الإسلام شكلاً إدارياً وقانونياً وأخلاقياً ثابتاً، فهذا يعني أننا ننقله من الحياة إلى الموت أو نحكم عليه مقدماً بالموت، لأن ما لا يتغير هو ضد القانون الطبيعي للحياة، وهذا يعني وضع الإسلام ضد الحياة. إن النماذج التي قدمها محمد للحكم والإدارة والتنظيم، هي قبل كل شيء نماذج هادية، ينبغي فهمها ضمن علاقاتها الاجتماعية والتاريخية، قبل أن تكون نماذج للتقليد والتكرار. إن سلوك محمد يدلنا على الطريقة التي نتعامل بها مع الأشياء، لا إلى الأشياء بحد ذاتها، إلى الروح الكامنة وراء الفعل، لا إلى الفعل بعينه. والثقافة، أي ثقافة، هي إعادة إنتاج للقيمة الفكرية، لا تكرار للفعل المشخص بذاته.

امتاز الدين بأنه يقيم يوتوبياه في العالم الآخر، بينما تسعى الايديولوجيات غير الدينية إلى اقامة مملكتها فوق الأرض، أي أن الدين يتضمن منذ البداية اعترافاً باستحالة بناء الفردوس فوق الأرض، لأن مملكة الله، حيث الخير المطلق والسعادة الابدية، الجنة التي يحلم بها الجميع موجودة في السماء. إن

الأرض ليست سوى معسكر عقاب، مركز للتجربة، وآدم وحواء لم يطردا من الجنة إلا بعد أن أخفقا في الارتقاء إلى مستوى الفكرة الإلهية. إن عليهما الآن وهما فوق الأرض أن يثبتا جدارتهما في مواجهة الشر، حتى يستحقا الأبدية التي تتطابق فيها الفكرة مع الوجود. لقد فقدا مرة وإلى الأبد حصانتهما ضد الشر. إن ايديولوجيا الفردوس الذي انحدرا منه، لا تشكل بالنسبة اليهما ضمانة ضد الخطأ: الحكمة العميقة للدين تتبدى في الرموز التي تتضمن فهماً عميقاً لما يعتبره الدين طبيعة بشرية (مواجهة الواقع) وطبيعة إلهية (الايديولوجيا). إنهما لا يتطابقان أبداً، على الرغم من أن ما هو بشري يسعى للوصول إلى ما هو إلهي. يخطىء من يعتقد أن سيزيف كان تعيساً. ربما كان متعباً ولكن سعادته تكمن في الصخرة التي يحملها، الصخرة التي لا تصل. ان الواقع لا تقطنه الملائكة فحسب، وإنما الشياطين أيضاً. والإنسان نفسه يمثل وحدة الملاك والشيطان. كل إنسان يحمل في رأسه فكرة ما عن العالم الأفضل، عن السعادة، عن الحقيقة، ولكنه في الوقت نفسه مرغم على المساومة، على التعامل مع الحقائق التي يقدمها الواقع.

لقد أنكر بطرس المسيح ثلاثاً قبل صياح الديك، لأنه كان يريد أن يعيش. ان قوة الدين تكمن في رفضه فكرة العصمة من الخطأ، حيث كل موقف هو امتحان جديد للإنسان. ولم يبدأ انحدار الدين عن مثله الا بعد أن أمسكت به السلطة وحولته إلى خادم لها بعد أن كان سيداً، إلا بعد أن أصبح هناك رجال دين، يمنحون أنفسهم الحق في الكلام باسم الفردوس، وفي النيابة عن الله. وفي الإسلام أصبح الخليفة، أمير المؤمنين، الناطق الرسمي باسم الفردوس، حتى إذا كان قصره قائماً في الجحيم، بعد أن امتلك حق تمثيل الدين والدنيا في شخصه.

لقد أوجدت السلطة مع الزمن إلهاً خاصاً بها، ديناً يـرتفع فيـه الحاكم الفاسد على البشر الآخرين، في شخصه يسقط الفـاصل بـين الايديـولوجيـا والواقـع، فهو بعـد كل شيء الايـديولـوجيا والواقع معاً.

في قصة قصيرة للكـاتب الالماني الكبـير هاينـريش بول بعنـوان (القزم والدمية)، ضمن مجموعته (عندما اندلعت الحرب) يقوم البطل، وهو جندي في مؤسسة عسكرية، تتولى استقصاء الرأي العام، بتوجيـه سؤالين إلى عـدد من الناس العـاديين في أثنـاء الحـرب: «هل تؤمن بـالله؟ وكيف تتصـور الله؟» تقـول احدى النسـاء: «الله حـزين. ينبغي علينا أن نـواسيه». ويـرى أحـد الرجال: «كان الله موجوداً ولكنهم قتلوه». وتقول امـرأة أخرى: «هناك إلهان، إله للأغنياء وإله للفقراء». ثم تضيف: «احدهمـا شديد، ولكن لا سلطان له، وآخر رقيق ولكنه طاغ، طاغ».

إن الـذين يريـدون اقامـة أنظمة دينيـة، أنظمة تتطـابق فيهـا السماء مع الأرض، إنما يرتكبون خطأً كبيراً بحق الدين نفسه، وهـو خطأ يشـير إلى سذاجـة فهمهم للدين والـدنيـا في آن. في الحقيقة ان التاريخ نفسه يظهر ان الدين المتحـول (شكلياً) إلى نظـام، وهو تحـول مدعى عـلى أية حـال، انما ينتمي إلى نظـام يحكمه الشيطان، إلى نظـام قائم عـلى الجريمـة. ومثلما في كـل الأديان الأخرى، لا توجد في الإسلام أيضاً وصفة جاهزة، تقوم عليها الشريعة. ان الذين يطالبـون بتطبيق الشريعة الإسـلامية ينبغي أن يقـولوا لنـا أولاً: أية شريعـة يعنون؟ ان كـل مـذهب يمتلك تصوراً خاصاً بـه عن الدولـة الإسلاميـة التي يريـدهـا، وهي تصورات سوف تقود الإسلام المتحول إلى أنظمة سياسية فقهيـة الى ظلمات القـرون الوسطى، إلى الحـروب والمجـازر. في فتـرة من تاريـخ العراق كـان العثمـانيـون، (وهم من السنـة) يقطعون رؤوس جميع رجال الدين والـوجهاء الشيعـة، في اليوم

الأول من دخولهم إلى أية مدينة عـراقية بـاعتبارهم كفـرة. أما إذا نجـح الفرس (وهم من الشيعـة) في اجتيـاح العثمـانيـين، فكانوا ينكلون قبل كل شيء برجال الدين السنة، بل وحتى نبش قبورهم، باعتبارهم كفرة أيضاً. إن الأمر لا يتعلق فقط بـالجهل والبربرية وانما بخطر منح النظام، أي نظام، الحق في التحـدث باسم الدين، إذ ان ذلك يؤدي بالضرورة الى الجريمة والإرهاب والتطرف. ما من شك أنه كـانت للحرب العـراقية ـ الايـرانية، وهي أكبر كارثة حلت بالبلدين في كل تاريخهما الطويل، أسباب سياسية، ولكن الجوهر الـذي جعل الحـرب ممكنة وحـوّلها إلى جريمة استمرت ثمانية أعوام، هو وضـع ايديولوجيا في مـواجهة أيديولوجيا أخرى، هو نباح السلطة، العمى المتحـول إلى بنادق وطائرات ودبابات وصواريخ. والمهزلة هي أن الايديولوجيا التي أشعلت الحرب باسم أوهـامها الألف، اضطـرت باسم الضرورة إلى التنازل عن دعاواها هي نفسها لصالح بقاء النظام، معترفة بالفاصل القائم دائماً بين الايديولوجيا والنظام: النهاية الحتمية لطيران مخفق بأجنحة من شمع.

ولكن هذا ليس التناقض الوحيد في موقف دعاة الدولة القـائمة على التطبيق الحرفي للشريعة الإسلامية. فالإسـلام نفسه ينفي مثـل هـذا الادعـاء، عـلى الأقـل، من دون تحقيق المجتمـع الإسلامي المتطابق مع الفكرة الإسلامية، من دون ظهور الدولة التي ينعـدم فيهـا الظلم وتسـود العـدالـة الأرض. هـل يمكن للإسلام أن يبيح لجعفر النمـيري مثلاً أن يقطـع أيدي وأرجـل الناس، بتهمة السرقة، تطبيقاً للشريعة الإسلامية، في بلد يقتلـه الجـوع ويعم فيه الفسـاد ولا يتورع حتى حـاكمه عن خيـانـة وطنه (فضيحة اليهود الفلاشـا مثلاً)؟ هـل يمكن للإسـلام أن يبيح للنظام في ايران أن تسلم الفتاة المحكومة بالاعدام إلى من يغتصبها، لأن الإسلام يحرم إعدام الفتاة العذراء؟

هـذا الإسلام الـذي يرتبط ببتـر الأطـراف وتعليق الأكف عـلى

واجهات المساجد وضرب الأعناق بالسيوف في مهرجانات شعبية ورجم النسـاء بالحجـارة واتخاذ العبيد والجـواري وتحـويـل النسـاء إلى عاهـرات باسم الشرع (زواج المتعـة)، لا يمكن أن يشكـل جوهـر الرسـالة التي حملهـا محمد إلى البشريـة. وإذا كانت ثمة أمثلة في الماضي، قبـل أكثر من ١٤٠٠ عـام على مثـل هذه النظرة إلى الحياة الإنسانية، وهي نظرة مرتبطة بـالظروف والتقاليد والعادات التي كانت سائدة حينـذاك، فإنهـا لا يمكن أن تعبر اليوم ضمن التقدم الحضاري والأخلاقي الذي أحرزته البشريـة عن مـوقف الإسـلام، الا إذا أردنـا تـدمـير الـروح الحضـارية لـلإسلام وربطهـا بالبـربريـة والعبوديـة والجهـل وانتهاك الحقوق الأساسية للإنسان. هذه البربـرية التي تقـدم اليوم على طبق الإسلام تريـد في الحقيقة (دفـاعاً عن مصـالح معينة وبتشجيع من جهات مخابراتية في الغرب ضد كل حركـة تقدمية في الوطن العربي والعالم الإسلامي) فصلنا عن ماضينا الروحي والثقافي، منعنا من امتلاكه حضاريـاً وإبقاءنـا في قرون الصفر. إن الإسلام الذي يريدونه لنا هو الإسلام على الطريقة الأفغانية: الجهاد من أجل الله بأسلحة وأموال وخبـراء وكالـة المخابرات المركزية الأميركية، حيث تسلخ جلـود الأسرى أحياء ويرمون للـذباب والكـلاب (قارنـوا هذا المـوقف بموقف محمـد المتسامح من أسرى معركة بدر، وقد كانوا من المشركـين، حيث اشترط عليهم تعليم صبيان المسلمين القراءة والكتـابة أو دفـع فدية قبل إطلاق سراحهم). هـذا الإسلام الـذي يريـدونه لنـا، الإسلام القائم عـلى الجريمـة والجهل، حيث يسقط القتـلى من أجل خلاف على رؤية هلال العيد (حـدث ذلك في مصر، ١٩٨٨) وحيث يعلق جند الله مفاتيح الجنة على أعنـاقهم، وهي مفاتيـح مصنوعة في هـونغ كـونغ وتـايلند عـلى أية حـال، لا علاقـة له بالإسلام الـذي جاء نـوراً وهديـاً للعالمـين. إن محمداً حـزين، حزين جداً.

إن الإسلام يرتبط بالحياة الدنيا أكثر من غيره من الأديان، ولكنه لا يقدم شكلاً ثابتاً لنظام الحكم، رغم كل الادعاءات التي تسيء قراءة الاسلام. فلو كان الإسلام نظاماً لانهار مع الأنظمة الكثيرة التي قامت في التاريخ باسمه. ولو كان الإسلام يقدم وصفة جاهزة لنظام دولة لرأينا قيام مثل هذه الدولة في مكان ما من التاريخ. هذه الدولة القائمة على وصفه جاهزة، منزلة من السماء لم توجد أبداً. ان الذين يقولون ان الدولة الاسلامية تحققت في عهد الخلفاء الراشدين لا يشيرون إلى أن ذلك العهد القصير (٦٣٢ ـ ٦٦١ م) شهد صراعاً مريراً على السلطة، حتى قبل مواراة محمد التراب، صراعاً دمغ كل التاريخ الذي تلاه. لقد واجهت الخلفاء الراشدين مشاكل صعبة في ابتكار أجوبة مقبولة عن أسئلة الواقع، وهي اسئلة خاصة بكل زمان، لا يمكن للاسلام أن يقدم أجوبة أبدية ومطلقة عنها، انما تعتمد على اجتهاد الناس في تعيين الطريقة التي يواجهون بها الواقع. ومع ذلك اختلفت أجوبة الصحابة الذين قام الإسلام على أكتافهم في تحديد طبيعة الدولة التي يريدونها. بل ان هذا الاختلاف قادهم الى معارك دموية وحولهم من إخوة في الإسلام إلى أعداء، يكيد أحدهم للآخر. لقد حانت ساعة النظام.

لا شك أن الحمية الاسلامية لم تفارقهم، ولكن الصراع هذه المرة لم يكن من أجل الإسلام، مهما كانت الادعاءات، وإنما من أجل النظام، النظام الذي يخدم مصلحة هذه الفئة أو تلك. هذه المسافة القائمة بين مطلب الدين ومطلب السلطة وضعت الناس، بعد وفاة محمد، وجهاً لوجه مع الحرية: إن عليهم أن يختاروا أفعالهم بأنفسهم بعد الآن ويتحملوا مسؤوليتها، في ضوء النظرة المحمدية التي أصبحت العنصر الحاسم في تطور الثقافة العربية ـ الاسلامية فيما بعد.

على الرغم من أن الأنظمة كلها كانت تمثل مصالح الفئة التي

تبسط سلطانها بقوة السيف، فإن العقلية الاسلامية كانت هي الإطار العام للحكام والمحكومين على حد سواء. بهذا المعنى وحده يمكن للمرء أن يتحدث عن الدولة الاسلامية أو الحضارة الاسلامية، أي الدولة أو الحضارة التي أقامها المسلمون، بمعزل عن مدى الاقتراب أو الابتعاد عن التعاليم الدينية. إن لقب أمير المؤمنين لم يكن سوى لقب دنيوي، اخترع ليفصل بين السلطان والرعية، ليمنحه قدسية الدين في ممارسة سلوك سياسي، هو سلوك كل حاكم في العالم. وفي كل الأحوال، فان تبرير نهج سياسي معين باسم الدين، الإتكاء على السماء للدفاع عن قضية فوق الأرض، تحتمل الجدل، يشكل تجريماً للدين وانحداراً به أكثر مما يعني التقوى والالتزام بالدين. ما من أحد يمكن أن يقول ان أنور السادات كان يعبر عن وجهة نظر الله عندما ذهب إلى اسرائيل أو وقع اتفاقيات كامب ديفيد. ولكن العلماء الشاطرين في الأزهر سرعان ما اكتشفوا ان الله من مؤيدي كامب ديفيد «وإن جنحوا للسلم فاجنح لها». إن أنور السادات وحده مسؤول عن قراره. أما البحث عن تبرير لهذا الموقف عند الله (وهو أمر ينطبق في كل المواقف الأخرى في الحياة) فيتضمن منتهى الشعوذة التي تهدم الإسلام نفسه. إنها الشعوذة نفسها التي نجدها في التاريخ كله، الشعوذة التي تختلط اليوم بالوهم والشيزوفرانيا والجهل في مواجهة إشكالات الواقع المعقدة: شعوذة الدكتاتورية التي تنتج آلية القمع الخاصة بها، بغض النظر عن السروال الذي تضع نفسها فيه.

*

في الوطن العربي والعالم الثالث لا يصعب على «البطل» القادم على ظهر دبابة أن يخلق قاعدته الجماهيرية الخاصة به، تلك القاعدة ذات الأصول الفلاحية على الأغلب والتي يخلقها الذل

والفقر. إن هذا الحاكم الجديد يعمد دائماً إلى دمغ دولته بالطابع الديني، كما لو أنه ينتقم من المدينة. لا شك أن الأصول الفلاحية للقادة الانقلابيين تؤثر في ميلهم الى الثقافة الفلاحية (أغاني الريف، اغاني الغجر، الشعر الشعبي، الفولكلور)، ولكن الأهم من ذلك هو أن الريف في العالم الثالث كله ما زال المنتج الأكبر للتعساء المستعدين لبيع أنفسهم الى الشيطان لقاء كسرة من الخبز. معظم الجلادين الذين يمارسون التعذيب والقتل والاغتيالات في ظل الأنظمة العربية القائمة هم من القادمين من هذا المستودع الكبير للبؤس. ان الدكتاتورية لا تقبل إلا من يعتبر نفسه آلة، وفي الريف كثير ممن يجد في هذه المهنة الخلاص الذي يحلم به.

ان الريفي الذي تحوله الدولة من حطام بشري مهمل، ملقى في قعر العدم، إلى شرطي، سائق سيارة أجرة، ضابط، شاعر، صحافي، مدير عام أو حتى إلى وزير، من دون أية مؤهلات فعلية، لا يمكن أن يملك سوى الطاعة العمياء، هو الذي اعتاد خدمة سادته الصغار في الريف، ذلك أنه يعتبر معارضي النظام خصوماً شخصيين له، يريدون حرمانه من لقمة عيشه. ومع هذا الزحف الريفي المرتبط بالسلطة تفقد المدينة طابعها الحضاري السابق لصالح التخلف، وتتراجع الأخلاق المدينية أمام أخلاق الذل، وتنحط الثقافة أمام طغيان جهل جديد، يمتلك سلطة ان يكوّن ثقافة. ومن ناحية أخرى يصاب الانتاج بالعطب، بعد أن يفرغ الريف من سكانه العاجزين عن القيام بأي عمل انتاجي فعلي في المدينة. انهم يسودون المجتمع، ولكنهم يظلون على هامشه، مسببين المزيد من الانهيار والانحطاط.

هذه العملية لا تتم عفوياً، فالدكتاتورية تنتقم دائماً من المدينة التي تدافع عن قيمها الحضارية بالضرورة، من خلال تحويل

المدينة الى ريف، لأن ذلك وحده يضمن له التأييد الذي تطلبه. ونظراً للطابع العسكري للدكتاتورية على الأغلب، فإنها بعد أن تحول المدينة الى ريف، تعمد الى تحويل المجتمع إلى عسكر (في بعض المجتمعات العربية يطلب من الأطفال الوشاية بآبائهم ونقل ما يقولونه في البيت، كما يطلب من الآباء الابلاغ عن أبنائهم المعارضين)، حيث ينبغي على كل فرد في المجتمع، من الأطفال والنساء وحتى الشيوخ، أن يطيع كل ما يصدر إليه من أوامر، مثل دمية لا حياة فيها. المواطن الصالح هو الذي يغني، لا الذي يصرخ، هو الذي يقول «نعم» دائماً وقبل كل شيء، هو الذي يسبح بحمد النظام وأفضاله عليه إلى أبد الآبدين. والكثيرون يعتادون هذا الوجود تحت درجة الصفر، مثل مرضى لا يوجدون من دونه، مثل مرض عام يلتهم الروح، يشعرهم بأخوة الأصفار.

لا شك أن ثمة فوارق بين دكتاتورية وأخرى. فقد يكون الغطاء الأيديولوجي لنظام ما ثورياً ويسارياً، وقد يكون قومياً أو دينياً، وقد يكون يمينياً محافظاً، ولا شك أن ثمة فوارق أيضاً في الانجازات التي تحققها والأهداف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تعلنها، ولكنها جميعاً سوف تنتهي ذات يوم إلى طريق مسدود، خالقة من داخلها نقيضها الذي سوف ينفيها. كل دكتاتورية تتعفن مع الزمن، لا لأنها تقوم على انتهاك الحقوق والحريات، على مصادرة الرأي، على الإرهاب، وإنما أيضاً لأنها تعجز عن تجديد نفسها، عن تجديد جهازها الذي يصاب بالترهل واللامبالاة والفساد مع الزمن، ولكن قبل كل شيء لأنها تعجز عن تجديد أيديولوجيتها التي تظل تكرر نفسها حتى تفقد اللغة معناها. إنها تفقد مع الزمن قدرتها على الإرهاب بالقدر نفسه الذي بدأت به، تفقد ثقتها بنفسها. انها تظل تعيش على الوعود التي تغري بها الشعب والأكاذيب التي تسوقها.

وعلى الرغم من أن ذاكـرة الشعوب ضعيفـة، فإن لهـذه الحيلة حدودها أيضاً. ولأن التركيبة التي يقوم عليهـا النظام لا يمكن أن تكون نزيهة، مرة بسبب طابعها المنافق وأخرى بسبب عـدم وجود أية رقـابة ديمقـراطية عليهـا، فإنهـا تفسد، بـل وتزداد فساداً مع كـل يوم جـديد، يمـر عليها. وكلمـا فسدت انشغلت بنفسـها وضعفت قدرتها على الإرهاب والقمع. ومع الزمن يـألف الناس القمع حتى انهم لا يعودون يهابونه، ممتلكين القدرة من جديد على المواجهة.

ما من شك أن ثمـة أنظمة اغتصبت فيهـا السلطة من الشعب، تحقق انجـازات بهـذا القـدر أو ذاك، بـل ان بعضهـا لإظهـار تفـوقه، كثيـراً ما يميـل إلى المشـاريـع الكبـرى التي يسميهـا بـ «المشاريع الاستـراتيجية»، وهي في الحقيقـة مشاريـع ذات أهداف سياسيـة دعائيـة أكثر من كـونها مشـاريع اقتصـادية مـخططة، وهذا مظهر من مظاهـر الأنظمة النفطيـة. والأكثر من ذلك ان معظم هذه المشاريع يظل مهملاً حتى بعد دفع المليارات من الـدولارات. تظل المعـامل والمصـانع ملقـاة في العراء تحت الشمس والمطر حتى من دون حراسـة، يأخـذ من شاء حـاجته منهـا. ولأن كل شيء تعـرض للتلف، غالبـاً مـا ينتهي المشروع، ولكن من دون رثـاء بـالطبـع في الصحف المطيعـة، عـلى عكس بشرى الـولادة التي كانت قـد زفتها ذات يـوم إلى الشعب على صدر صفحتها الأولى. إن الأمر يبدو سورياليـاً للوهلـة الأولى، ولكن للوهلة الأولى فقط، لأنه يمتلك منطقه الخاص بـه. فالمـدير العام القادم من البرية لا يدرك أن كل معمـل يحتاج إلى أرض يبنى عليها، لأن الأرض مبذولـة في الريف. وحتى إذا مـا أدرك ذلك فإنه قد يوجّه كتاباً رسمياً إلى جهة ما، يطلب فيها الأرض. ولكن الكتاب قد يضيع في أدراج موظف ما. وحتى إذا لم يضـع وبلـغ هدفـه، فإن أمـام المسؤول مهمـات كثـيرة أخـرى أكثـر إلحـاحاً، والأكثر من ذلك: من يكـون هذا المـدير العـام الذي لا

يخلو طلبه من الوقاحة؟ ومن أية عشيرة هو؟ والمدير العالم نفسه ينسى أيضاً، وحتى إذا لم ينس فإنه يؤمن بالصبر، حيث تكون العجلة من الشيطان. وتصل المعامل التي كلفت الملايين أو المليارات من الدولارات، فيطلب هو أو يطلب غيره وضعها مؤقتاً في أي مكان. وتوضع في أي مكان، ولكن ربما إلى الأبد. هذه القصة ليست واقعية فحسب وإنما حذفت تفاصيل كثيرة منها لتبدو معقولة، وهي في الحقيقة اختصار لقصة أنظمة بأكملها، مبنية على اللاعقلانية وانعدام المنطق والفوضى والغرض.

لا يكمن الخطأ في نيات الحاكم أو نيات نظامه وإنما في طبيعة السلطة، الشكل الذي تتخذه الدولة. إن الحاكم العربي يطلب الولاء، والولاء في نظره شخصي دائماً، من الولاء له يكون الولاء للوطن. فهو يعتبر الوطن ملكه الخاص والدولة دائرته التي ينظمها وفق هواه، رئيس عشيرة يكرم من يشاء ويذل من يشاء، وهو نفسه القانون، يقرر حقك في الحياة مثلما يقرر حقك في الموت. إنه لا يدرك أبداً أن الولاء يمكن أن يتخذ أشكالاً متعددة، وأن الولاء المختلف هو أفضل من الولاء المفروض. لقد أدركت البورجوازية الأوروبية قبل قرنين من الزمان هذه الحقيقة التي تركز عليها كل قوتها السياسية: ان الولاء الحقيقي يرتبط بالقناعة القائمة على حرية المختلفين وان القوة تتجلى دائماً في القدرة على احترام الرأي الآخر ومنحه الفرصة عينها التي نمنحها لأنفسنا. ان نظاماً يقوم على فرض الولاء على مواطنيه لا يمكن أن ينتج سوى المسوخ، لأنه يستهدف حرية الضمير التي من دونها يكون الولاء خيانة مستمرة للذات.

ان نظاماً يؤمم الانسان باسم الولاء للعقيدة القومية أو الدينية أو الطبقية، انما يحكم على نفسه بالموت، لأن العقيدة نفسها

تمـوت إذا ما انتهت إلى غـرفة مغلقـة، تسكنهـا الأشبـاح. إن الأزمة الحقيقية للانسان العـربي هي أزمة حـرية ضمـيره قبل كل شيء. فهو مخيّر بين أن يدافع عن هذه الحريـة ويتحول إلى ضحية (جثة في مقبرة، سجين في معتقـل بين أيـدي الجلادين، لاجيء مطارد ينتقل من بلد إلى آخر) أو أن يتنـازل نهائيـاً عن حريته ويتحول إلى مسخ من أجـل أن يكون مقبـولاً. ولكن هذا الاختيـار الصعب يؤدي إلى الشيزوفـرينيا في الطـرفـين، حيث يهدم الجلاد الضحية بالقـدر نفسه الـذي تهدم فيـه الضحية جلادها. لقد كسبت الضحية كرامتها ولكنهـا فقدت كـل حق في وطنها وحياة مجتمعهـا. (ثمة أنظمـة تحرم ضحـاياهـا من كل حق: سحب جـوازات السفـر، مصـادرة الممتلكـات والأمـوال، المطاردة والاغتيال). أما الجلاد فيأخذ حصته من النظام ولكنه يفقد نفسه (مأساة الدكتور فاوست الذي قبل بشروط مفيستو). والأسـوأ من ذلك أنـه يدرك محنتـه، ولكنها محنـة لا يحق لـه إظهارها، بـل ان شعوره بـالجرح يـدفعه الى المغـالاة في ولائه، حيث لم يعد أمامـه طريق آخـر، يسلكه. ان النظـام يطلب إليه الولاء، ولكنه مرغم في الحقيقة على تقديم ما هو أكثـر من ذلك. فالولاء يلزمه بـأن يقدم تقـارير مخـابراتيـة عن الناس الـذين يعيش بينهم بمجـرد انتمائـه الى حزب السلطـة (ثمـة أنظمـة تعاقب مؤيديها بالإعدام أو السجن المؤبد، ضمن قوانين معلنة، منشورة في الصحف إذا أخفوا أو تستروا على أية معلومات عن نشاط آخر. وقد طبقت هذه القـوانين التي لا مثيـل لها في كـل التاريخ البشري، مع الأسف على فنانين وأدباء أيضاً)، كما أنه يعني الـدفاع عن النظـام دائماً والتطبيـل له وإثبـات الجدارة والقدرة على خـدمته. وكلمـا اكتشف انه هـو بالـذات الضحية الأسوأ للنظام، اشتدت صرخة الجلاد في حنجرته. هذا النظـام القائم على تأميم الإنسان هو في الحقيقة أكبـر منتج للضحـايا، في وقت يقل فيه انتاجه في كل المجالات الأخرى.

لا يمكن وضع كل الايديولوجيات بالتأكيد في طبق واحد. فثمة أيديولوجيات تسعى، انطلاقاً من المصالح الاجتماعية التي تعبر عنها، إلى اعادة الانسانية إلى التاريخ، وأخرى تؤسس نفسها داخل الحقد الأعمى، معيدة التاريخ إلى بربريته الأولى. ثمة ايديولوجيات تضع نفسها داخل التاريخ، من دون أن تكون معصومة من الخطأ في فهمه، وأخرى تضع نفسها ضد التاريخ كله، معتبرة الجريمة وسيلة للوصول إلى أهدافها البدائية. وإذا كانت المسافة بين الايديولوجيا الفاشية ونظامها معدومة، باعتبار أن الجريمة تتجلى في الايديولوجيا والنظام معاً، فإن المسافة القائمة بين الايديولوجيا ذات المسعى الانساني والنظام، هي دائماً المسافة القائمة بين الضحية والجلاد. ومن سوء حظ التاريخ أنه لا يتقدم إلا على أشلاء الضحايا التي ينتجها بنفسه، مثل قدر لا فكاك منه. والمهمة الكبرى، المهمة المعقدة والصعبة لكل أيديولوجيا انسانية، تكمن في قدرتها على أن تكون مع ضحايا التاريخ بالقدر الذي هي فيه مع التاريخ. ان الذين يقفون مع التاريخ ضد الضحايا يتحولون بالضرورة الى جلادين، رغم نياتهم الانسانية البعيدة. أما الذين يقفون مع الضحايا ضد التاريخ فيعبرون عن شفافية ضمائرهم، ولكن دون قدرة على رؤية الأفق الأبعد. ومع ذلك، فإن الأمل يكمن في قدرة النظام ذي الأيديولوجيا الانسانية على التعلم من أخطائه وجرائمه مع الزمن والارتقاء بفهمه للتجربة الانسانية، وهي تجربة لا تستوعب ـ وهنا تكمن مرارة التاريخ ـ الا بعد خوضها حتى النهاية، بعد الكثير من الخسائر والضحايا أيضاً. حتى البورجوازية الأوروبية، مكتشفة القيمة السياسية للحريات الديمقراطية، لم تسلم بهذه الحريات الا بعد صراع ضد الأطفال والنساء، بل وضد شعوب بأكملها. وهي حتى اليوم تعيش على تدمير فئات معينة في الداخل وعلى تجويع العالم الثالث وتخريبه روحياً وسياسياً واقتصادياً في الخارج،

خالقة بذلك عالمين يفصلهمــا جدار من التمييــز والتعالي: الغنى والتقدم العلمي والديمقراطية هنا، والفقر والجهل والدكتاتوريــة هناك.

في واقع الحال ان العلاقة بين الايديولوجيــا والنظام هي عــلاقة ترابط وتضاد في آن. فالايديولوجيا تقدم مشروع نظــام، مضبباً دائمــاً. ولكن هذا المشروع دائمــاً أيضاً هــو نتاج فكــري عــام وليس نتــاجاً لحــركة واقــع مشخص بالــذات، وهــو لا يكتسب معناه إلا داخل النسغ الحي للواقع. كل نظــام يتضمن (روحاً) أيديولوجية، بيد أن هذه الروح نفسها يمكن أن تكــون مبدعــة وخلاقة أو منحطة، غارقة في الجريمــة، لأن الأجوبــة عن أسئلة الــواقع هي دائمــاً أجوبــة الذين يجيبــون، لا الأجوبــة المطلقة للأيديولوجيا. لا شك أن هذه الروح الايديولوجية كانت موجودة في زمن ستالين، ولكنها لم تمنعه من ارتكــاب جرائمــه، بل انــه ارتكبها باسمها. انه لم ينكر اليوتوبيا كما لم تنكرها ضحايــاه. فقد كان الجميــع، وستالــين من بينهم، يعتقدون أنهم يقيمــون الاشتراكية، يسلكون الطريق المؤديــة إلى الفردوس. ولكن هــذه الطــريق كانت دائمــاً طــريق الحيــاة في تعقيــداتهــا، لا طــريق المــلائكة المشجــرة في الجنة، طــريق هذا القــائد أو ذاك، هــذه المجموعة أو تلك: هل كان فلاديمــير ايليتش لينين أكثــر أو أقل مــاركسية عندما سمح في ليلة ٥ إلى ٦ من كانون الثاني (ينايــر) ١٩١٨ باستخدام العنف في مواجهة الأحزاب القائمة الأخرى، واحتلال البرلمان؟ ان الأمر هنا لا علاقة له بالايديولوجيــا، وان كان هذا قد حدد المستقبل القادم للاشتراكيــة كله. انــه موقف اجتهادي، اتخذ في ظل ظروف معينة. موقف قد يكون صــحيحــاً أو خطــأ. وفي كل الأحــوال، ما يمنــح هذا المــوقف معنــاه ليس الأيديولوجيا وإنما الحياة. وقد أثبتت الحياة خطــأه بعد أكثــر من سبعين عامــاً. ان الأمر هنــا لا يتعلق في ما إذا كــان ممكناً حينذاك اتخاذ موقف آخر وإنما في «استخدام العنف لأول مرة

عند حل مشاكل البناء السياسي، ذي الطابع القومي الشامل» والانقطاع الذي حدث في «الاتجاه الانساني لتطور روسيا، ذلك الاتجاه الذي بدأ بثورة غير دموية»، كما يشير إلى ذلك الكاتب الروسي بوريس فاسيلييف في تحليل رائع، نشر مؤخراً في (الازفستيا) كان يمكن بالتأكيد للينين أن يتخذ موقفاً مغايراً، دون أن يقلل ذلك من ماركسيته، بل ربما أظهر حكمة هي في التاريخ أعمق من متطلبات الصراع الآني.

في الحكم على صواب هذا الموقف أو خطئه، لا يجد المرء الجواب في الأيديولوجيا أو حتى في تطبيق دروس تجربة سابقة على تجربة أخرى، تختلف عنها في المكان والزمان والظروف المحيطة بها، ذلك أن تقييم أي موقف، يتم من خلال تحليل بنيته نفسها، لا بنية موقف آخر، من داخله لا من خارجه، من دون أي انكار للفائدة التي يمكن أن تقدمها التجربة العامة للتجربة الخاصة، باعتبارها عنصراً داخلاً في البنية، لا عنصراً متحولاً إلى قانون. إن التحليل الذي قدمه كارل ماركس عن تجربة كومونة باريس يعتبر نموذجاً في دقة الكشوفات التي قدمها. ولكن الخطأ يكمن في اعتبار دروس الكومونة دروساً ملزمة لكل ثورة في العالم. من درس كومونة باريس ظهر درس دكتاتورية البروليتاريا الذي تحول من مفهوم لحماية النظام إلى احتكار للسلطة والغاء كل القوى الأخرى داخل المجتمع. وهكذا جرى رفع هذا الدرس التنظيمي ـ السياسي الى مستوى القانون الايديولوجي، مقروناً بالرسالة التاريخية للطبقة العاملة. لأول مرة في التاريخ فقدت الدكتاتورية، ككلمة لغوية، دلالتها السلبية وحصلت على الشرعية، باسم الضرورة التاريخية. ولكن الغريب ان هذه الأنظمة المعلنة لدكتاتورية البروليتاريا، أطلقت على نفسها عناوين وتسميات وصفات حتى فقدت اللغة السياسية معناها الاصطلاحي المحدد. لقد بدأ المرض ينخر جسد الاشتراكية منذ اللحظة التي اعتبر فيها

الماركسيين طريقة العمل جزءاً من الأيديولوجيا. وهكذا لم تعد الاشتراكية كفاحاً مستمراً داخل المجتمع من أجل الإلغاء النهائي لاستغلال الانسان من قبل الانسان، إلى التحرير الشامل للبشرية من كل العبوديات التي ارتبطت بالتاريخ الانساني، وإنما أصبحت نظاماً قائماً في الواقع. (هذا هو الفردوس اذن!) بل وراح الايديولوجيون السوفيات يصفون اشتراكيتهم بـ «الاشتراكية المتطورة أو المتقدمة». ولكن ما كاد غورباتشوف يفتح النافذة المغلقة للفردوس حتى فاحت رائحة العفن الذي تخفى دائماً وراء انسانية الايديولوجيا، داخل تاريخ قام على الدكتاتورية والفساد ومصادرة الحريات. ظهر أن نموذج الانسان الذي أوجدته الدكتاتورية مفرغ من كل قيمة حقيقية، ذات علاقة بالقيم التي تبشر بها الايديولوجيا: مجازر ضد الأطفال والنساء في معارك عرقية، قادة حزبيون يوجهون مافياتهم الخاصة العاملة في التهريب والسرقة والقتل أيضاً. في بولندة حدث ما يشبه الفضيحة: الطبقة العاملة تنتفض ضد الحزب الذي يفترض أنه حزبها، بعد أربعين عاماً من استلام السلطة. وفي بعض البلدان الأخرى تحول الحكام إلى مومياوات رجعية، تمارس دكتاتورية بدائية، معتبرة الدولة الاشتراكية اقطاعاً عائلياً، تمارس دكتاتورية بدائية، معتبرة الدولة الاشتراكية اقطاعاً عائلياً، موزعاً بين الزوجات والبنين والبنات والأقارب الآخرين وكل من يمّت إلى الآلهة الجديدة بصلة قربى أو نسب.

ومع ذلك، فإن هذا ليس حكماً على فساد الأيديولوجية أو موت الاشتراكية، مثلما لا يدل النظام «الاسلامي» القائم على قطع الرؤوس والمشانق الجماعية على فساد الاسلام، كما لا يدل النظام «القومي» العربي الذي قام دائماً على القمع المنظم للناس على انحطاط فكرة الوحدة القومية. ان الانطلاق من الايديولوجيا وحدها باعتبارها نظاماً للأفكار، لا يمكن أن يحدد

طبيعة النظام، تلك الطبيعة التي تمتلك آلية خاصة بهـا، كما لا يفسر النظـام القائم في الـواقع القـوة التاريخيـة التي تمتلكهـا الأيديولوجيا. فقد يفشل نظام ما يمتلـك دعواه العقـائديـة، في مرحلة ما، في ظروف مـا، في مستوى تطـور ما، ولكنـه يمكن أن يشكل القوة المدافعة للتاريخ في مرحلة أخـرى، ظروف أخـرى، مستوى تطور آخر. إن اشتراكية تقوم على التعددية والحريـات الديمقراطية سوف تختلف بـالتأكيـد عن اشتراكيـة تقوم عـلى دكتاتورية حفنة من القادة.

طـوال عقود من الـزمن ظل مـوظفو الأيـديـولـوجيـا يشتمـون الديمقراطية، باعتبـارها منتـوجاً بـورجوازيـاً، وكأن ارتبـاطها بالبورجوازية دليل على فسادها، في الوقت نفسه الذي يعترفـون فيه بالأهمية التاريخية للثورة التي قادتها البورجوازية. انهم لا يرفضون مثـلاً الأشكال السيـاسية والعسكـرية والاقتصـادية التي أوجـدتها البـورجوازيـة، بل وحتى الأنظمـة الاقطـاعيـة والعبـودية، مثـل الجيش والشرطة ونظـام المـوظفـين والأجـور والتجارة والدولة، وهي أمور تستهدف الايديـولوجيـا ازالتها في النهاية، لأنها تجدها الآن مفيدة وضرورية، نظرياً على الأقل، لا شيء يبـدأ من الصفـر. ان رفض الـديمقـراطيـة لم يتم اذن، انطلاقاً من الأيديولـوجيا وانمـا بدعـوى الضرورة التي تكرس الدكتاتورية، وهي طـريقة أسهـل بكثير من التـوجه إلى النـاس ومحاولة اقناعهم. ان النقد الذي وجهه لينـين إلى الديمقـراطية البورجوازية، باعتبارها هي الأخرى تمثل دكتاتوريـة طبقة، من خلال احتكار الرأي الذي تمارسه الأجهزة الإعلامية والفكريـة التابعة للبورجوازية، يرتبط بالهدف، لا بشكل الديمقراطية. وهو هدف يتعرض في كل مرة للتحـدي، حيث يمتلك البـديل الآخـر فرصة القول والوصول الى الناس. وفي كل الأحوال، فـإن إلغاء الهدف (سلطة البورجوازية) لا يعني أبداً الغـاء الشكل الـذي يمكن اعطاؤه محتوى آخـر. إن تأميم معمـل لا يفترض الغـاء

الادارة، حتى إذا تغير الاشخاص، كما أن السائق هو الذي يحدد المدينة التي يقصدها القطار، لا القطار نفسه. هذا المثال المخطىء الذي قدمته ثورة أكتوبر في روسيا السوفياتية بعد فترة وجيزة من الاستيلاء على السلطة في العام ١٩١٧ لم يخرب الروح الانسانية والثورية لثورة اكتوبر وحدها، وإنما حمل المرض إلى العالم كله وإلى العالم الثالث بالذات. فقد حصلت الدكتاتورية لأول مرة في التاريخ على بطاقة تزكية، أو على ما يسمى بالشرعية الثورية، باسم العدالة الاجتماعية والتقدم. صحيح ان للدكتاتوريات في العالم الثالث أسسها الخاصة التي تقوم عليها، ولكنها بدون المثال الذي قدمته لها الاشتراكية، ما كانت لتجرؤ على أن تمتلك كل هذه الوقاحة في رمي ردائها المطلخ بالدم فوق الحقيقة.

ان التقدم التاريخي كله يعتمد اليوم بعد الخسائر الكبيرة على اعادة الاعتبار الى الديمقراطية وانقاذها من احتكار البورجوازية لها وتحريرها نهائياً من احتكار الرأي الذي تمارسه الأجهزة الاعلامية المرتبطة بالاحتكارات، لتكون ديمقراطية قائمة على حرية فعلية للفكر، على تعددية تمثل تعدد المصالح والاتجاهات، على برلمان منتخب، منه وحده تستمد الحكومة شرعيتها، على برلمان يفرض رقابته على الحياة كلها، على صحافة حرة، لا سلطة لأحد عليها، على استقلالية الاذاعة والتلفزيون لتكون ناطقة باسم المجتمع، لا الحكومة، على إنهاء تبعية القضاء ليكون قادراً على فرض القانون على الجميع. ان المنطق الجامد (الخائف في الحقيقة) الذي يرفض الديمقراطية باعتبارها شكلاً بورجوازياً ينقض نفسه بنفسه. فإذا كانت البورجوازية تمتلك القوة الاقتصادية وتوجه المؤسسات الاعلامية والفكرية القادرة على احتكار الرأي داخل دولتها، فمن أين لها القوة لتفعل ذلك أيضاً داخل المجتمع الذي تنتهي فيه سلطتها؟ بعد أكثر من سبعين عاماً من النظام الاشتراكي،

ما زال مدراء الايديولوجيا يتحدثون عن النفوذ الكبير للأفكار البورجوازية، وهم يقصدون بذلك التطلع المشروع للناس نحو الديمقراطية وحرية الرأي والضمير. في الحقيقة ان هذا النفوذ للأفكار التي تحقق انسانية الانسان سيظل قائماً حتى تستعيد الاشتراكية وجهها الانساني الذي مسخ باسم العدالة. ان تخويف الناس بالوحش الرأسمالي، باتهام كل فكرة انسانية وحضارية بالانتماء الى «العدو» الطبقي، سقط في محكمة التاريخ، بل انه أفاد الرأسمالية أكثر مما أضرّ بها. انه جزء من الثمن الباهظ الذي دفع دائماً.

ان الكهنة الكسالى يكرهون الديمقراطية، لا خوفاً من عودة محتملة للبورجوازية إلى السلطة، وانما لمعرفتهم ان الحرية تفقدهم عروشهم التي لم يحتلوها بجدارة. فهم لم يقتلوا الديمقراطية داخل المجتمع فقط، وانما داخل الحزب أيضاً. هل ثمة خطر من أن تؤدي الديمقراطية داخل الحزب إلى وصول البورجوازية إلى القيادة أيضاً؟ إن العالم بالتأكيد ليس بالسوء الذي يحاولون تصويره.

من قلب هذه الوصاية السحرية ظهر «قانون» وحدانية تمثيل الطبقة العاملة الذي يستمد تبريره من «قانون» وحدتها كطبقة غير مالكة لوسائل الانتاج، تبيع قوة عملها. ان الأمر يقوم في الحقيقة على مغالطة موجهة ضد التعددية قبل كل شيء، تمثل أحادية نظر الفكر قبل أن تمثل أحادية مصلحة الطبقة العاملة. هذا الموقف يستبدل ما هو آني بما هو تاريخي وما هو فكري بما هو ملموس. ان المصلحة التاريخية المطلقة للطبقة العاملة تكمن في تحرير نفسها من الاستغلال، ولكن العلاقة بين هذه المصلحة التاريخية والتاكتيك السياسي المعبر عنها، وبصورة أشمل بين صورة المستقبل وصورة الطريق المؤدية إلى المستقبل أعقد وأكثر تنوعاً من أن تكون مجرد شارع عام بين محطة

وأخرى. هذا التنوع وهذا الغنى هما تنوع وغنى الحياة نفسها، حيث يتحققان في كل مرة بطريقة خاصة، مشكلين بنية جديدة للواقع، من خلال الاستجابات المختلفة للظروف والمصادفات، ويرتبطان بمدى وعي الناس، الأصدقاء والأعداء، بعواطفهم وهواهم أيضاً. ان الحزب الاشتراكي لا يكون اشتراكياً لأنه يؤمن باشتراكية تتحقق في المستقبل، وانما من خلال البرنامج الذي يضعه للواقع الذي يمكن أن يفهم أو لا يفهم بألف طريقة مختلفة، في ارتباطه بالمصلحة التاريخية، الواقع الذي يتغير كل يوم ومعه تتغير مواقع القوى المحققة لتطور التاريخ. هل كان الحزب الشيوعي في ظل ستالين يمثل العلاقة بين مستقبل التاريخ والواقع؟ هل كان الحزب الشيوعي (حزب العمال البولندي الموحد) يعبر عن مصلحة الطبقة العاملة طوال الأربعين عاماً الماضية؟

ان مفهوم الاحادية الذي يرتدي بذلة الوحدة، لا ينطلق من الايديولوجيا، وانما من الضرورة التي صاغت الاشتراكية صياغة مخطئة: أولاً احادية تمثيل الطبقة العاملة الواحدة، ثانياً: احادية قيادة المجتمع (نظام الحزب القائد الواحد)، ثالثاً: وحدة الحزب والقيادة (منع التيارات والاتجاهات داخل الحزب)، رابعاً: التأكيد على وجود اشتراكية واحدة في العالم كله (المقصود: النموذج السوفياتي حتى مجيء غورباتشوف). كل هذه «الواحديات والوحدانيات» الخيالية تنتقي القوانين الديالكتيكية نفسها، لصالح فكر يكاد يكون ديناً هابطاً من السماء، لا نابعاً من الأرض. ان الاحادية التي انحدرت بالفكر الى الحضيض، هي في الحقيقة الوجبة الوحيدة التي قدمتها الدكتاتورية دائماً، تلك الوجبة السامية التي هدمت حياة الملايين من الناس الذين تطلعوا وما زالوا يتطلعون إلى مستقبل أفضل، تتحقق فيه الحرية.

إن وحدة المصلحة الطبقية لا تعني بالضرورة أن يكون هناك

حـزب واحـد ليعبـر عن هـذه المصلحـة، إلا إذا اعتـرفنـا بـ «الطريق الواحدة»، «الوصفة الواحدة»، و «الموديل الواحد»، حيث يـدخل النـادي الأممي من يضع تـوقيعه تحتهـا، إلا إذا اعترفنا أن هناك دائماً حـلاً واحداً صحيحـاً لكل مشكلـة، غير قابل للجدل، حلاً لا يدركه الا المخـول بالحـديث باسم الطبقـة العـاملة ومصلحتهـا الآنية والتـاريخية. إن وحـدانية التمثيـل والتعبير هي أفكار للتناقض داخل الحياة، لصالـح وهْم لا يقبل التناقض، يرتبط بالمطلق.

ان المـواقف التقدميـة للبشر في مـواجهـة مشكـلات الحيـاة لا تتشكل بالتـأكيد بطـريقة واحـدة، كما لا تـوجد جـرعة تعطى للناس أجمعين، فيفكرون ويشعرون بطريقة متساوية. لا ينطبق هذا على المجتمع والطبقة وحدهما وانما على الحـزب أيضاً. ان «الوحدة الفكرية» داخل الحزب، كل حزب (وهم لا يعنون بذلك الخطـوط العامـة والمبادىء الأسـاسية الضروريـة، وانمـا كـل المـواقف والتفاصيـل) ليست مستحيلـة فحسب، وانمـا يؤدي التمسك بها الى تناقضات، تقمع باستمرار، تناقضات موجـودة ولكن ينبغي الا تخـرج إلى العلن، بحيث لا يعود الشخص هـو نفسه: انه يؤمن بشيء وينفـذ شيئاً آخـر، بل انـه ممنوع حتى من التبشير بموقفـه. مثل هـذا الموقف لا يمسـخ الفرد فحسب وانما الحزب أيضاً وأخيراً المجتمع.

ان التعددية ليست حيوية داخـل المجتمع وحـده، وإنما أيضـاً داخل الماركسيـة القادرة عـلى تقديم بـرامج ومـواقف مختلفة، تعكس مستـويات الـوعي المختلفة والقـدرة عـلى فهم الابـداع التـاريخي. ليكن هناك بيكـاسو في مـواجهة رسـامي العضلات العمالية، ليكن هنـاك تروتسكي الى جـانب ستالـين، ليكن هناك غورباتشوف الذي يقدم برنامجاً مختلفاً عن برنامج بـريجنيف. ان ذلك بالتأكيد سوف يغني الماركسية أكثر مما يفقرها ويقرب

الاشتراكية أكثر مما يبعدها، اذ انـه سوف ينقـذها عـلى الأقل من الكسل الفكري الذي تفرضه الأحادية واحتكار الرأي الذي تمارسه الدكتاتورية، من دون حياء أو خجل.

*

وفي الـوطن العربي يعتبـر نظام الحـزب الواحـد (الذي يتخـذ أشكالاً سياسية مختلفة) كـل خطوة يقـدم عليها منـةً، يتفضل بها على الشعب الـذي لا يملك سـوى حق التصفيق، حتى إذا تعلق الأمـر بهلاكـه. وما دام لا أحـد يملك حتى الكـلام سوى الأخ الأكبر، أب الشعب، القائد التاريخي الـذي لا مثيل لـه في العالم، تتحول حتى الهزائم والجرائم الى انتصارات ومعجزات، وهي الكلمات الأكثر رواجاً عادة في قاموس الدكتاتوريات.

ان الأمـر لا يتعلق بأفضليـة أيديـولوجيـا على أخـرى، وانمـا بالنظام الأكثـر قدرة عـلى تحقيق انسانيـة الإنسان. وإذا كنـا نؤيـد التوزيـع العادل للثـروة بـين النـاس ونـرفض الجـوهـر الاستغـلالي للنظام الـرأسمالي، فليس ذلـك لأننا نـريد عـدالة، تصنعها الدكتاتورية (وهي عدالة مزيفة في كل الأحـوال) وإنما لأننا نريد عدالة، قائمة على الـديمقراطيـة، وقبل كـل شيء على قناعة الناس بهذه العدالة واختيارهم الحر لها أو رفضـهم الحر لها. هذا وحده ينقذ العدالة من سلطة الأكذوبة.

ان الأيديولـوجيا عنـدما تنتقـل من المجتمع الى الـدولة في ظـل الـدكتاتـوريـة، لا تفـرغ من محتـواهـا المعلن فحسب، وإنمـا تتضمن بالضرورة عناصر فاشية، من خلال تحويل المجتمع كلـه إلى أصفار، صياغتـه على نسق الـوهم الذي يمتلكـه الحاكم في رأسه. وعندما يرتبط ذلك كله بـالأمية الثقـافية عنـد الحكام في بلـدان العالم الثـالث وبربـرية الأجهـزة المنفذة والجهـل العام داخل المجتمع، يتحول التطور إلى بنية ارهابيـة، تشبه المهـزلة: كتّاب (في الأقطار العربية بالذات) يمجدون الدكتاتورية، جماهير

ترقص وتصفق وهي تلتهم الساندويتشات تحت أعواد المشانق في الساحات العامة، شعراء (كبار أيضاً!) يطالبون باعدام زملائهم الآخرين وهم يتحدثون عن ناظم حكمت وبابلو نيرودا. كل ذلك يحدث باسم فردوس هو أسوأ من جحيم.

داخل هذا الفردوس الكاذب جهدت الأنظمة العربية المقنعة بالقومية أعواماً طويلة من أجل فرض أيديولوجيتها (وهي في كل الأحوال أيديولوجيا مضطربة ومتناقضة، تفتقر حتى الى التناسق المنطقي) على الجماهير بقوة السوط الذي تحمله في يدها. كان الذين يرفضون الانتماء إلى كنيسة الشيطان (في بعض الأقطار العربية على الأقل) يعتقلون ويعذبون أحياناً حتى الموت أو يفرض عليهم الصمت. وفي النهاية كانت الصحف تخرج كل صباح لتعلن البشرى: «لقد أصبح الشعب كله عقائدياً مثلنا». كانوا يريدون من الجميع أن يكونوا مثلهم حتى لا يكون هناك شاهد على الحقيقة. في واقع الحال ان الدكتاتورية، رغم كل مهرجانات التأييد التي تنظمها بالتعاون مع أجهزتها القمعية، ترتعد فرقاً ورعباً حتى من صوت واحد، يفكر بطريقة مغايرة. ان بؤس الأيديولوجيا المتحولة الى نظام قامع يكمن في مسعاها الساذج الى اضفاء اسمها على كل شيء، من الأدب والفن والنقد الأدبي وحتى علم الجمال والفلسفة والتربية والأخلاق، كما لو أن الأيديولوجيا التي تمسك بالسيف في يدها، قادرة على اجتراح المعجزات كما لو أنها كاليجولا الذي يطلب القمر، لأنه يشعر فجأة بالرغبة في امتلاك المستحيل (كاليجولا ـ البير كامو). ولكن كاليجولا ما كان ليطلب القمر لولا شعوره بسلطانه الذي لا حدود له، ذلك السلطان الذي يقرّبه من الجنون. «كل هذا يثبت أنني محاط بالأكاذيب وخداع النفس» ـ كاليجولا مخاطباً هيليكون ـ.

إن بؤس الدكتاتورية التي تتخفى وراء شعاراتها الأيديولوجية

في العالم الثالث، وفي الوطن العربي بالذات، يكمن في حقيقة أنها لا تظل أمينة حتى لهذه الشعارات. فهي تتنكر لها بعد أن تكون قد استخدمتها ضد الشعب. وفي فترة أخرى قد تفتك هي بالذات بالشعب إذا ما أراد التمسك بالشعارات التي كانت ترفعها. قبل عشرة أعوام كان بعض الأنظمة العربية مستعداً لإعدام من يتحدث عن «حق اسرائيل في البقاء». أما اليوم، فإن الجميع يطالبون شعوبهم بالواقعية. وبالتأكيد، فإن هذا الانتقال الدراماتيكي من قطب إلى آخر، تمّ من دون أن يستشير أحد شعبه. وقد لا يكون بعيداً اليوم الذي تعدم فيه هذه الأنظمة من يرفض الاعتراف بدولة اسرائيل. بل ان بعض عباقرة التاريخ من موظفي الأنظمة اكتشف فجأة ان اليهود عرب أيضاً وأنهم ينتمون الى الجذر العربي نفسه.

ليس هذا سوى مثال واحد على آلية عمل النظام الدكتاتوري العربي، القائم على الغاء الحريات الديمقراطية وانتهاك حقوق الانسان: قمع في الداخل وانهيار أخلاقي وسياسي أمام القوة في الخارج. وبالتأكيد، فإن الواقعية السياسية في مواجهة التحديات التي تواجه «أبطال» النظام الدكتاتوري في الخارج لا تنطبق على الداخل. فهناك هم أرقام وهنا هم آلهة.

بعد عقود عدة من الصراع المعقد انتهى نظام القمع العربي الى الإخفاق الحتمي، وهي نهاية لا يمكن للمرء أن يأسف عليها. فلقد أقام هذا النظام صروحاً من الأوهام، على قاعدة من الدكتاتورية والشيزوفرينيا العاطفية وانتهاك حقوق الانسان الأساسية والجهل الثقافي وعبادة الفرد: لقد سرحت الأنظمة التي أعطت نفسها حق الكلام باسم الثورة العربية والحرية من الخدمة، منذ اللحظة التي نادت فيها بالحرية.

ثمة من يتحدث عن الأزمة، ولكن الأمر أكثر من أزمة. انه تلف الروح. ثمة من يتساءل: ما الذي أصاب الناس حتى لكأنهم

فقدوا كل حس بالحياة؟ ولكن السؤال لا يدرك ان هؤلاء الناس قد بلغوا عن قناعة مرحلة اليأس النهائي، حيث كل شيء سيان في نظرهم. فلقد عبروا الجحيم منذ زمن بعيد.

إن ما يطلبونه الآن ليس المزيد من الشعارات التي ارتبطت في أذهانهم بامتهان الكرامة الإنسانية، وإنما تحريرهم من الأغلال التي صنعتها لهم الأنظمة، باسم كل شيء في الحياة، وقبل كل شيء الغاء تأميم الانسان العربي واعادة الحرية الى ضميره الجريح.

«لماذا تقيدني هذه الأغلال وتمنعني من نجدة أولئك الذين يغرقون؟ لماذا لا يحمل حريقنا صرختنا حتى نهايات العالم؟ اسمعني، أنت أيها الصبر النافد. اننا قادمون لإنقاذك». ـ انطون دي سان اكزوبري (ريح، رمل ونجوم) ـ صرخة الحريق هذه هي صرخة الأمل في آن.

فاضل العزاوي

من وهم الدكتاتورية إلى مملكة الحرية

ما من أحد يمكن أن يكابر الآن على الأقل، مدعياً مثلما فعل السحرة الايديولوجيون دائماً من أن «الاشتراكية» بخير وأن ما حدث يمكن أن يحدث في أحسن العائلات. فقد أثار السقوط هذه المرة دوياً، يصعب حتى على من في أذنه صمم أن يتظاهر بأنه لم يسمع عويل الضحايا: شيء ما مات في التاريخ والجميع يشيعون جثمانه الآن إلى مثواه الأخير، ولكن ليس دون أسى حتى في قلوب الذين قاوموا العملاق الذي كان ظله يمتد فوق نصف الكرة الأرضية، ولكن ليس أيضاً دون شعور بالغبطة حتى في قلوب الذين كرسوا حياتهم كلها للثورة. فقد تنفس هؤلاء الصعداء الآن، شاعرين بأنهم قد تحرروا من آخر الخرافات الايديولوجية المقدسة.

أجل، إن ثمة حزناً عميقاً يملأ القلوب. فقد عاش الكثيرون حياتهم كلها، مأخوذين بأوهام يوتوبيا لا تختلف عن أية يوتوبيا أخرى، معتقدين أنها بسبب دعوى علميتها، هذه المرة، يمكن إثباتها مثل أية معادلة رياضية. الفانتازيا نفسها تحولت إلى «مدن واقعية» بنيت في الاتحاد السوفياتي وأوروبا الشرقية وبلدان كثيرة في العالم الثالث، حتى أن البريجنيفيين عثروا على مصطلح، لا يأتيه الشك من يساره أو يمينه: «الاشتراكية

القـائمة في الـواقع» ثم «الاشتـراكية المتحـررة جـداً» وأخيـراً الإعلان الدراماتيكي عن «بدء الدخول في المجتمع الشيوعي».

ومـع ذلك من لم يـر المرض حتى قبـل ربع قـرن! الـذين رأوه اعتقدوا أن هذه الايـديولـوجيا التي تقـول إن للتاريـخ حتميته التي لا تـرد، سـوف تقضي عـلى كـل الجـراثيم التي يمكن أن تهاجم هذا الجسد العملاق. كان الأمر موضوع زمن فقط. كـل ما يحتاجـه المرء هـو أن يقلب كتب ماركس ولينـين ليعثر عـلى وصفات طبية سحـرية لجميـع الأمراض من التـراخومـا حتى البلهارزيا. كان الشاعر الروسي ايفجيني ييفتشنكـو أحد هؤلاء الـذين رأوا المرض منـذ العـام ١٩٦٥، حيث أعلن: «كـلا، إن الثورة لم تمت. كل مـا في الأمر هـو أنها مـريضة.» أمـا الذين رأوا الملك عارياً بالـرغم من الخياطـين المحيطين بـه، مدفـوعين بهوى الحقيقة، فقد قطعت ألسنتهم أو أرغموا على رؤية البـذلة الملكيـة التي لم تـوجـد أبـداً. وفي بلـدان العـدو الطبقي كـان الراؤون يحظون بلقب «الخونة» بـامتياز مـا داموا قـد اختاروا الوقوف في الضفة الأخرى. ولكن لا بـد للمرء هنـا من أن يميز بين نمطين من النقد الذي يوجه إلى الماركسية الآن أيضـاً: نقد يقـع ضمن صراع الأفكـار الضروري من أجـل الـوصـول إلى الحقيقـة التـاريخيـة، ونقـد سيـاسي يستهـدف تبـرئـة ذمـة الرأسمالية والدفاع عن مواقف النظـام الآخر. إن البـير كامـو ليس بـريجينسكي، وجـورج أورويـل ليس هنـري كيسنجـر بالتأكيد.

*

إن صدمة النصف الثـاني من العام ١٩٨٩ جعلت المـلايين من الناس تواجـه، لأول مرة منـذ ثورة أكتـوبر الـروسية في العـام ١٩١٧، بـل ومنذ أواسط القـرن التاسـع عشر، حيرة تـاريخية كبرى. شعرت فجأة بفراغ كبـير يهدد حيـاتها ومستقبلهـا. إن

الأمر لا يقتصر، هذه المرة، على خسارة معركة وإنما على سقوط ايديولوجيا. لم يعد الأمر مرضاً يمكن تحمل ما يسببه من آلام وإنما أكبر جنازة في التاريخ. لقد أصبحنا فجأة أكثر فقراً: لا يوتوبيا في المستقبل، تجعلنا ننام في أسرتنا، مطمئنين إلى مصير البشرية. لم يبق سوى شتاء الواقع البارد. كلا، لن تكون هناك حتمية، تمنحنا طمأنينة القلب، وإنما مستقبل غامض مثل كل شيء آخر في الحياة. وسوف يتوجب على سيزيف أن يحمل صخرته المرة تلو الأخرى حتى من دون أمل في الوصول إلى القمة.

ماذا نقول لمئات الألوف من الناس الذين ضحّوا بحياتهم من أجل يوتوبيا، تبددت عن وهم؟ ماذا نقول للذين ماتوا تحت سياط الجلادين؟ للذين صعدوا المشانق أو وقفوا أمام فرق القتل السوداء، مغنين النشيد الأممي ومعلنين «هذا آخر انفجار»؟ هل ماتوا هم أيضاً من أجل لا شيء؟ أم من أجل المستحيل؟ كثيرون هم الذين اكتشفوا الآن أنهم يجلسون في عربة مندفعة في الزمن، تقودها أحصنة عمياء وحوذي ميت. الذين آمنوا شعروا أنهم خسروا حياتهم، فاقدين كل شعور بالمعنى الذي يبرر وجودهم. والذين عادوا الاشتراكية سقطوا في الفراغ أيضاً بعد أن اختفى الشيطان من العالم. ومهما اختلفت العواطف والمواقف، فإن منظر الجنازات يقبض القلب. وربما كان الجميع ينتظرون الآن بصبر نافد الانتهاء من الدفن. بعد ذلك يمكن نسيان المرحوم حتى إذا تحدثوا عنه بين الحين والآخر، مرتشفين القهوة في بيت التاريخ.

ليس الأمر كله عزاء وأسى. فثمة بهجة سرية حتى في القلوب المحطمة التي أفرغت من أوهامها، شاعرة بالعودة إلى امتلاك الحس السليم بالحياة، ذلك الحس الذي كان قد اختفى وراء طبقة كثيفة من لغة ميتة، لا تكاد تتضمن أي معنى، لغة

مكررة، فقيرة، عامة، عاجزة حتى عن صياغة نفسها بحرية. كان يكفي المرء أن يقرأ جملة حتى يصاب بالغثيان. وبالطبع، فإن هذه اللغة لم تكن حتى تقليداً للغة كارل ماركس المتفجرة أو للغة لينين الصحافية المحشوة بالشتائم، وإنما نسخة، طبق الأصل من اكتشافات بريجنيف «الحائز على جائزة لينين في الأدب» ومدير الايديولوجيا، سوسلوف وبقية جوقة المكتب السياسي، وهم في الأغلب أميّون حتى في الماركسية التي اعتبروا أنفسهم كهاناً في معبدها. كانت ثقافتهم «الثورية» التي يريدون بها تغيير العالم كله تقوم على ملخصات بائسة تنحدر من زمن ستالين الذي كان قد لطخ يديه بدم أكثر من دم جميع الضحايا في ظل القيصرية كلها.

فبالرغم من أن الماركسية بدأت فكرة ثورية، تطمح إلى تغيير العالم القديم، فإنها ما كادت تقع في أواسط العشرينات في يد ستالين، حتى انحدرت إلى نمط من البربرية التي أضفت على الايديولوجيا طقوساً طوطمية، حيث يعني كل انتهاك للمحرمات الموت المؤكد. لم تعد هناك حياة، وإنما فكرة في رأس رجل، لم ينظر إليه أحد بجد في البداية، أراد أن يكون راهباً ثم انتهى عندما وقعت الثورة بين يديه إلى أن يلعب بالتاريخ مثلما يشاء.

إن تجربة ستالين تكشف لنا مدى العمى الذي يمكن أن تبلغه الايديولوجيا عندما تقوم على الإيمان بحقائق نهائية في الحياة. فقد خلق ستالين ديناً جديداً يمتلك رموزه الخاصة به، من ايديولوجيا كان امتيازها الأول هو أنها أرادت خلق الحياة بأدوات الحياة نفسها. بل إنه رجع بالماركسية إلى المرحلة الطفولية في التطور البشري، المرحلة السحرية التي تمتلك فيها الطلاسم والتعاويذ قوة ميتافيزيقية، وإذا ما أردنا طلب العون من سيغموند فرويد، فإن الأفكار هنا لا تكون كلية القدرة فحسب، وإنما تتحول إلى «قيم عصابية». المريض هنا لا يلقي

بالأ لما يحدث في الواقع، وعما إذا كان ما يفكر به يتطابق مع حركة الحياة. ما يهمه قبل كل شيء هو وجدانه الداخلي، وهو وجدان مهلوس دائماً. ويكمن الخطر في أن يفلح شخص من هذا النمط، يخفي انفصامه وراء دعاوى الايديولوجيا في الوصول إلى القيادة. ويكون الخطر قاتلاً عندما يمنحه النظام السياسي فرصة الانفراد بالسلطة، أو عندما لا تكون ثمة رقابة فعلية على أفعاله. إن نموذج ستالين يكشف لنا مدى الجريمة الذي يمكن أن تبلغه «العصابية الايديولوجية» التي قد تتخذ أيضاً طابعاً دينياً (الكنيسة في القرون الوسطى) أو قومياً (الحركة النازية في ألمانيا والفاشية في إيطاليا).

*

إن نقد الستالينية ليس أمراً جديداً حتى على الأحزاب الشيوعية. فقد تولى المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي هذه المهمة في العام ١٩٥٦. ولكن هذا النقد ظل «نصف قلبي» وشكلياً في آخر المطاف، لأن الستالينية لم تكن مجرد رجل ارتكب أخطاء وجرائم لا تعد، وإنما بنية كاملة متجسدة في الايديولوجيا والحزب والدولة على حد سواء. لم يكن ستالين خطأ في النظام بقدر ما كان الوجه الأكثر فضائحية لخطأ جوهري في الطريقة التي توصل كارل ماركس الذي درس تجربة كومونة باريس المخفقة في العام ١٩٧١ إلى أن الثورة لا يمكن أن تنتصر من دون إقامة دكتاتورية البروليتاريا. وإذا ما رجعنا إلى موقف ماركس في «نقد برنامج غوته» فإننا نجده يقول: «ما بين المجتمع الرأسمالي والمجتمع الشيوعي تقع فترة التحول الثوري من أحدهما إلى الآخر. وتتطابق مع هذه الفترة فترة انتقال سياسية، لا يمكن أن تكون دولتها شيئاً آخر غير الدكتاتورية الثورية للبروليتاريا». وفي فترة تالية اعتبر لينين هذه المقولة في خضم جدله العنيف مع أبرز ممثلي الديمقراطية

الاجتماعية وبالذات مع الألمانية روزا لوكسمبورغ التي فجرت أخطر جملة في القرن العشرين «الحرية دائماً هي حرية الرأي الآخر» المفتاح الذي يفتح به باب الثورة المغلق. وطور لينين الفكرة ليقصرها على فئات محددة، حيث كتب يقول في عمله «المبادرة الكبرى»: «دكتاتورية البروليتاريا تعني: أن طبقة معينة فقط، عمال المدن بالأخص وعمال المعامل بالأعم، عمال الصناعة، هي في وضع يؤهلها لقيادة جماهير الكادحين والمستغلين كلها...». ويشير القاموس الفلسفي الذي كان الحزب الاشتراكي الألماني قد أصدره والذي يمثل الموقف الرسمي للحركة الشيوعية العالمية، أن استخدام العنف يعتمد على نمط المحاولات (يقصد المحاولات الخفية والعلنية الموجهة ضد النظام الاشتراكي): «فهو يمكن أن يمتد من حجب الحقوق السياسية وحتى الإدانة القضائية واستخدام الوسائل العسكرية». ويؤكد المصدر عينه على «أن دكتاتورية البروليتاريا هي نواة نظرية الثورة الماركسية ـ اللينينية». ويجزم: «الماركسي هو فقط ذاك الذي يمد اعترافه بصراع الطبقات ليشمل الاعتراف بدكتاتورية البروليتاريا». ولكن هذا «الحق» في الدكتاتورية عند لينين أصبح حكراً على الحزب الشيوعي وحده، من منطلق أنه طليعة الطبقة العاملة. وفي الواقع الفعلي، نظراً «للطابع العسكري والتنظيم الحديدي» للحزب، وهو ما حدده لينين بدقة، وانعدام الديمقراطية حتى داخل الحزب، حيث ينعدم وجود أكثر من مرشح (هو مرشح القيادة دائماً) لاحتلال أي مركز، فإن دكتاتورية البروليتاريا لا تعني في المدى الأخير سوى دكتاتورية حفنة من الأشخاص في المكتب السياسي، بل وشخص واحد على الأغلب، هو القائد الذي تتحول أقواله إلى حكم وكلماته إلى تعاليم، يستهدي بها الشعب. وبالطبع، فإن مفهوم «حزب من طراز جديد» هو الحزب الذي وضع أسسه لينين، لا يرفض فقط أن تكون هناك

أجنحة متصارعة داخل الحزب، وإنما أيضاً أية أفكار خاصة، أي أن الثوري لا يكون ثورياً إلا إذا نفى نفسه هو بالذات.

إن المفهوم اللينيني لم يكن مناقضاً فحسب لروح «تغيير العالم» الذي بشر به ماركس، وإنما أنهى كل إبداع حقيقي ممكن داخل الحزب والمجتمع. وسواء كان لينين قد أدرك آلية عمل الدكتاتورية في مرحلة لاحقة أم لا (يبدو أنه لم يدركه أبداً)، فإنه انطلق من موقف أخلاقي مثالي عندما افترض أن الشيوعيين هم جنس من الملائكة. في الواقع أن الأمر أعقد من النوايا الإنسانية الطيبة لملايين الشيوعيين في العالم، بل وحتى استعدادهم للتضحية. فقد أدت آلية عمل الدكتاتورية إلى وحدانية فقيرة، إلى نمط من العصاب الايديولوجي الذي يرفض كل جدل باسم مصطلحات تمتلك قوة سحرية. مع الزمن لم يعد يحق لك أن تتحدث عن أي شيء إلا إذا دعمته بحكمة ما من الأخ الأكبر أو من الأساتذة الكبار. ولسوء الحظ إن بعض هؤلاء الاخوة الكبار كان يتدخل في كل شيء في الحياة. كان ستالين مثلاً يهوى الموسيقى الفولكلورية ويحتقر ما عداها. أما خروتشوف الأكثر ظرافة وتنوراً فكان يعتبر أن أعمال بيكاسو لوحات مرسومة بذيل حمار. بل إن بعضهم كان يكتب الشعر أيضاً (ماوتسي تونغ، هوشي مينه). صحيح أن ستالين لم ينظم الشعر، ولكنه حذف مفهوم نقض النقيض من الديالكتيك الماركسي ليؤكد مفهومه البدائي عن أن الثورة الاشتراكية التي تنقض المجتمع البرجوازي، تبدأ من الصفر، من دون أن تعود فتمتلكه، وهو عكس ما قصده ماركس.

كان في إمكان الاخوة الكبار أن يفتوا بمنع أي علم أو فن على أساس أنه رجس من عمل البورجوازية. فقد حرم علم النفس والتحليل النفسي وعلم الاجتماع أعواماً طويلة، كما شمل المنع موسيقى الروك التي استعادت اعتبارها بعد عشرين عاماً،

والفن التجريدي وموسيقى البيتلز والظاهرة الهيبية. وما عدا «العصابية الايديولوجية» الفقيرة، المعادية لروح الحياة والتطور والإبداع، ما عدا الزي الموحد الذي ارتداه التاريخ، أصبحت جميع الانجازات الفكرية والفنية للبشرية مجرد نفايات أنتجتها «الرأسمالية في مرحلتها الأخيرة» لتضليل الطبقة العاملة: السوريالية، الفرويدية، الفن التجريدي، الوجودية، الطليعة، الرواية الجديدة. وفي الاقتصاد والتطور العلمي والتكنولوجي كانت الكارثة أكبر وأشمل.

فقد رفض الاخوة الكبار دائماً الاعتراف بما يحدث خارجهم: الطرق الحديثة في تنظيم الاقتصاد وإدارته، الثورة التكنولوجية، التغييرات الجذرية في بنية الرأسمالية، حيث يختفي البروليتاري بمعناه التقليدي لصالح المهندس والتقني الذي يدير الانتاج بالكومبيوتر، مع تغير في علاقة العامل بالآلة. وعملياً لم تعد الطبقة العاملة تشكل أكثرية المجتمع. وعلى المدى الأبعد سوف تتقلص تدريجياً، ربما إلى درجة الاختفاء، تلك الفئات التي أوكل لينين حتى دكتاتورية البروليتاريا إليها. فثمة مصانع كبرى الآن في ألمانيا واليابان والولايات المتحدة الأميركية تدار كلياً عن طريق الروبوتات، موحية بالتطور المقبل للبشرية: نهاية العلاقة اليدوية بالعمل.

*

امتلكت الماركسية جاذبية في البلدان التي أخفق الشيوعيون في استلام السلطة فيها أكثر من البلدان التي احتلوا فيها مقاعد الحكم، متحولين مع الزمن إلى مومياءات حية في معبد خرافي. ليس الدم وحده، وهو دم أريق طويلاً، هو ما لطخ ضمير الثورة وإنما الانحطاط الأخلاقي والفكري الذي بلغه القادة الدكتاتوريون بعد أن فقدوا كل صلة حقيقية بالحياة. قبل أن يقدم النازي أدولف هتلر على إعلان الحرب العالمية الثانية

بأيام، وقّع الشيوعي جوزيف ستالين معاهدة عدم اعتداء معه، أعطت الاتحاد السوفياتي الحق في احتلال دول البلطيق وجزء من بولندة وضمّها إليه، وهو ما نفذه ستالين حال اجتياح القوات النازية للأراضي البولندية. وقد ظل ستالين يتفرج على هتلر، وهو يزحف نحو باريس ويحتل أوروبا، دولة بعد أخرى، من دون أن يفعل شيئاً. بل إن الوثائق الجديدة التي تم الكشف عنها الآن، تُظهر أن ستالين كان سلم المئات من الشيوعيين الذين هربوا من ألمانيا إلى الاتحاد السوفياتي، إلى هتلر الذي أعدمهم على الفور. ولم يدخل الاتحاد السوفياتي الحرب ضد ألمانيا إلا بعد أن اجتاحت القوات النازية الأراضي السوفياتية في العام ١٩٤١، أي بعد عامين من نشوب الحرب العالمية الثانية.

في الواقع إن الماركسية لم تكن في نظر هؤلاء القادة سوى تجريد خال من المعنى، يبرر بقاءهم في الحكم، ففي الوقت الذي كانت فيه هذه الأنظمة تقرع طبول الأممية لتطريب أو تخدير شعوبها، كانت تصافح بحرارة في كل مكان أيدي الدكتاتوريات الملطخة بدم الشيوعيين واليسار. كانت صفقة تجارية واحدة تكفي لتجعل القادة الأمميين يرقصون ويهزون أوساطهم طرباً في حفلات الموت التي كان دكتاتوريو العالم الثالث يقيمونها لشعوبهم. وبلغ الانحطاط بهؤلاء حداً جعلهم يعقدون اتفاقات تحالف وصداقة مع أحزاب دموية، معادية لكل ما هو إنساني.

لقد سقطت الاشتراكية الستالينية في ضمير الناس قبل أن تسقط في الواقع مثل جدار خرب، لم يكن يحتاج إلا إلى ركلة قدم لينهار. كانت «الاشتراكية القائمة في الواقع» قائمة، لأن الدبابات هي التي كانت تحميها. أما عندما فرضت الديمقراطية نفسها كأعلى قيمة في زمننا، فقد انهارت أضاليل الدكتاتورية كلها وخرج المارد من القمقم لينتقم من الهوان

الذي لحق بفكرة الاشتراكية نفسها على مر عقود من الزمن وظهر الوجه الحقيقي لكثير من القادة الكذبة: أعضاء قيادات ووزراء انتقلوا من دون خجل للعمل كجواسيس لدى وكالة المخابرات المركزية الأميركية. في ألمانيا نشر أيفون كرينز الذي خلف ايريش هونيكر في رئاسة الحزب والدولة مذكراته لقاء مليون ونصف المليون من الماركات الألمانية في واحدة من أحط صحف الرصيف المختصة بنشر أخبار الجنس والجرائم والأكثر معاداة للشيوعية وهي «بيلد تسايتونغ». وعملياً، فإن الذي أسقط أنظمة أوروبا الشرقية وسلمها إلى الغرب هو المخابرات السوفياتية. ولم يجد الرئيس السوفياتي ميخائيل غورباتشوف غضاضة في أن يعلن أنه اكتشف أن علاقات بلاده مع ألمانيا الاتحادية وحدها هي أكثر فائدة من علاقاتها مع جميع الأنظمة الاشتراكية السابقة. وهكذا مثلما خلق السوفيات هذه الأنظمة وربوها لتخدم أغراضهم، فإنهم ذبحوها عندما رأوا أن مصلحتهم تتطلب ذلك، حتى من دون أسف على مصير رفاقهم الذين سلموهم إلى «العدو الطبقي». إن الخيانة هنا مزدوجة: مرة عندما ضللوا الملايين من الناس في العالم باسم وهْم «ثورتهم العالمية» وجعلوها تتحمل عذاب الثورات والحروب والسجون والاعدامات، وأخرى عندما قرروا رمي كل شيء للكلاب المستعدة للنهش. لقد ذبح اليسار في العالم كله لأن «الاشتراكية القائمة في الواقع» عثرت أخيراً على نفسها في الرأسمالية.

وإذا كان لا بد للمرء من أن يتحدث عن الثورة المضادة، فإن الاشتراكية الستالينية هي الثورة المضادة الوحيدة للاشتراكية. وإذا ما بدت الاشتراكية، بل وحتى أفكار العدالة الاجتماعية التي تمثل طموح البشرية منذ مئات السنين منبوذة الآن وخرساء، فذلك لأن كهنة الحقيقة المطلقة شوهوا سمعتها، بعد أن وضعوا أغلالهم في عنقها. لم يقتل أحد ماركس غير

الناطقين باسمه، ولم تحصل الرأسمالية على شهادة حسن سلوك أفضل من الشهادة التي قدمها لها اشتراكيو اليأس.

إن الثورة المضادة تتجلى قبل كل شيء في معاداة العقل والعودة إلى البربرية: في الاتحاد السوفياتي وبلغاريا حنطوا جثمان لينين وستالين وديمتروف على طريقة الملوك ـ الآلهة الفراعنة ووضعوهم في توابيت زجاجية ليتبارك بهم الشعب. في الصين تمكن العمال من صنع ساعات أفضل، ووضعت النساء أطفالهن بلا ألم، بسبب الاستماع إلى صوت ماوتسي تونغ وهو يتلو تعاليمه (خبر إذاعته وكالة شينخوا الصينية في العام ١٩٦٥). في كوريا أصبح كيم ايل سونغ وابنه وأمه وأبوه قادة تاريخيين، مبشراً إيانا بأول قيادة شيوعية وراثية في التاريخ. في بلغاريا فرض جيفكوف على الأتراك المسلمين، بالدبابات التي اجتاحت قراهم، تغيير أسمائهم إلى أسماء بلغارية أصيلة. بعد أكثر من ٣٠ عاماً من الدكتاتورية باسم الشيوعية لا يخجل الآن من القول، وهو يقف أمام المحكمة، إن الشيوعية أكبر خطأ يرتكبه المرء وأنه لو عاد شاباً لاختار طريقاً آخر، وأن لينين نفسه كان سيفعل الشيء نفسه. وفي رومانيا الغارقة في الظلام، بسبب نقص الكهرباء كانت اللافتات ترتفع في كل مكان «عهد تشاوشيسكو هو عهد النور». كان «محرر الفقراء في العالم»، وهذا أحد ألقاب تشاوشيسكو الكثيرة يوبّخ الرومانيين كل مساء في التلفزيون الذي يبث لمدة ساعتين فقط، مدعياً أن الأزمة الاقتصادية مفتعلة بسبب الطريقة المسرفة في الأكل، ناصحاً إياهم بتناول جذور الأشجار الشهية. وماذا بعد؟ في كامبوديا: شيوعية العصر الحجري (إبادة المثقفين، قتل حوالى ثلاثة ملايين إنسان). في فيتنام: مأساة الهاربين من الجوع في قوارب مرمية في البحر. في أثيوبيا: موت الملايين جوعاً كل عام، تحول النظام من الماركسية ـ اللينينية إلى تأييد الصهيونية. وحتى في كوبا، الرمز الأكثر ثورية لبلدان العالم الثالث أعلن

فيديل كاسترو مؤخراً أنه كان قد اقترح على خروتشوف، أثناء أزمة الصواريخ في بداية الستينات، مفاجأة الولايات المتحدة الأميركية وضربها بالصواريخ النووية. وقبل ذلك كان ماوتسي تونغ قد ضغط على القيادة السوفياتية للإقدام على شن حرب عالمية نووية ثالثة من أجل إنهاء الرأسمالية في العالم حتى إذا أدى ذلك إلى إبادة نصف البشرية.

ولكن لنطرح السؤال الأكثر أهمية وخطورة: ما هي الاشتراكية التي فجرت كل هذه الثورة في حياة القرن العشرين؟ هل كانت هناك اشتراكية حقاً؟ إذا كانت تلك الاشتراكية قد انتهت إلى الفشل الآن، فما هي الاشتراكية القادمة؟ لا بد من أن نشير هنا إلى أن ماركس أعطى صورة اقتصادية عامة عن المجتمع الشيوعي الذي قال عنه إنه سيكون مجتمع المستقبل، حيث تمثل الشيوعية في نظره «قفزة البشرية من مملكة الضرورة إلى مملكة الحرية». أما اقتصادياً فسوف تقوم على نهاية الطبقات والإلغاء الكامل للملكية الخاصة وعلى الملكية الاجتماعية للثروة والانتاج، مع تطبيق مبدأ «من كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته». وفي هذا المجتمع سوف يلغى الحزب والدولة والجيش والشرطة وتزول النقود. ويبلغ الناس درجة من الوعي، تجعلهم يعملون من تلقاء أنفسهم وخارج كل ضغط ويحصلون على كل ما يريدون، دون حسيب أو رقيب. وبالطبع لن تكون ثمة فوارق بين الناس: مجتمع جدير بالملائكة إذا ما قارناه بما هو قائم في الواقع الآن. إنه صورة أرضية من الجنة التي يعدنا بها الدين، بعد موتنا بالطبع.

أما الاشتراكية في نظر ماركس ومن بعده لينين، فتمثل المرحلة الانتقالية الوسيطة بين الرأسمالية والشيوعية. ولكنهما لم يقدما لنا أي تصور تفصيلي عن الطريق الذي ينبغي سلوكه مؤقتاً للانتقال من مملكة الضرورة إلى مملكة الحرية. ستالين

وحده هو الذي قرر الطريق الذي ينبغي سلوكه: سيطرة الدولة على الاقتصاد وإداراته عن طريق الأوامر المركزية، وهذه في الأصل فكرة رأسمالية، ذات طبيعة عسكرية، لا علاقة لها بالفكر الاشتراكي السابق بكل اتجاهاته.

في واقع الحال إن اقتصاد الأوامر حدد في الوقت نفسه الطبيعة القمعية للنظام كله وألغى أي تطور ممكن للإنتاج بعد أن سلب العمال حتى الحق في الاحتجاج، من دون أن يمنحهم أي شعور جماعي بالملكية. فقد ظلوا يعملون للدولة بأجور أخفض وشروط أقسى باسم التضحية من أجل المستقبل. ومهما كانت المبررات التي قدمت ويمكن أن تقدم الآن أيضاً عن العدو الطبقي، فإن كل شيء كان مكرساً ضد بلوغ حلم ماركس في الدخول إلى مملكة الحرية: إحتكار السلطة، تحريم الأحزاب، منع حرية الرأي، صحافة أحادية التفكير، رفض الإبداع الفني والأدبي خارج توجيهات الحزب، منع العمال من الإضراب، منع أية مظاهرة لا تكون مؤيدة للقيادة السياسية. الجيش الذي كان يفترض أن يلغى أصبح الجيش الأقوى في العالم. الدولة التي كان يفترض أن تتلاشى أصبحت مطلقة الحضور وسيطرت على كل شيء. وتحول نصف الشعب إلى شرطة ورجال أمن ومخبرين سريين. الوثائق الكثيرة التي تم الكشف عنها الآن في أوروبا الشرقية تظهر أن أجهزة المخابرات كانت تراقب حتى القادة السياسيين والمخابرات تراقب المخابرات. وفي آخر الأمر لم تعد حتى ثمة حدود بين الجلادين والضحايا.

لقد احتاجت البشرية إلى ٧٣ عاماً من تاريخ حافل بالانقلابات لتتأكد من أن دكتاتورية البروليتاريا التي وضع أسسها ماركس وطورها لينين، خطأ فكري، وجريمة في الواقع الفعلي، وأن اقتصاد «الأوامر المركزية» الذي يشكل جوهر «الاشتراكية القائمة في الواقع» والتي ابتكرها ستالين، شكل جوهر الثورة

المضادة التي انحدرت بفكرة الاشتراكية إلى الحضيض. أما التنظيم اللينيني ـ الستاليني للحزب والدولة والمجتمع، فإنه يتضمن في داخله جرثومة اللاحرية التي لا يمكن لها إلا أن تقود إلى فساد كل شيء، حتى الروح.

إن الأزمة الحقيقية، وهي أزمة البشرية كلها تكمن في أن سقوط «الاشتراكية القائمة في الواقع» ألغى كل تصور آخر عن المستقبل. لا يكاد يوجد أحد الآن (وهذا هو حال جميع الأحزاب الاشتراكية والشيوعية) يستطيع أن يقدم جواباً مقنعاً ومختلفاً عن الاشتراكية الساقطة وعن الرأسمالية القائمة في الواقع. إن معظم أحزاب أوروبا الشرقية الاشتراكية المنحدرة من أصل شيوعي لا تفعل شيئاً أكثر من العمل السياسي ضد البطالة ومن أجل الحصول على مزيد من الضمانات الاجتماعية، من دون أن تجرؤ على أن تفتح فمها بكلمة واحدة ضد الاقتصاد الحر والملكية الرأسمالية للإنتاج. بل إن الحزب الشيوعي نفسه يكافح من أجل الأخذ بمبدأ الاقتصاد الحر وإعادة المعامل والمصانع إلى القطاع الخاص وبيعها للاحتكارات الكبرى، حتى من دون أن يجد أحداً يشتريها. وفي الاتحاد السوفياتي أيضاً أصبح المدافعون عن النظام القديم يوصفون بالرجعيين والمحافظين، في حين اكتسب الليبراليون المتحمسون للرأسمالية صفة المجددين والمصلحين. ولكن أي تجديد وأي إصلاح؟ إن غورباتشوف نفسه يعتقد أن ألمانيا الاتحادية أكثر اشتراكية من الاتحاد السوفياتي وأن الاشتراكية انتصرت في ظل الدولة الرأسمالية، لا في ظل الدولة الاشتراكية التي كانت قائمة. ولذلك، فإن حلم الشيوعيين الآن يتجسد في إقامة نظام شبيه بالنظام الألماني. ترى هل ينبغي على شيوعيي العالم أن يعتبروا بون الآن مكّتهم القادمة بعد أن أطفأ الكرملين أضواءه؟

*

إن حيرة كبرى تعصف بالبشرية الآن. صحيح أن «الاشتراكية القائمة في الواقع» لن تثبت جدارتها ولكن الرأسمالية، كنظام اقتصادي، لا يمكن أن تجسد حلم البشرية في العدالة.

وإذا كان لماركس أية قيمة حقيقية فهي أن تحليله لبنية الاستغلال الرأسمالي يكتسب أهمية خاصة الآن بالذات. ورغم النجاح الاقتصادي الذي حققته الرأسمالية والفاعلية التي أظهرتها بالمقارنة مع الجدار المسدود الذي انتهت إليه الستالينية، فإنها شطرت العالم إلى عالمين: عالم الغنى والرفاه، وعالم الفقر والتخلف. وفي الداخل أيضاً تنحدر فئات كثيرة نحو قعر المجتمع: ملايين العاطلين عن العمل في المجتمعات الرأسمالية الأكثر تقدماً. في ألمانيا الموحدة يزيد عدد العاطلين عن العمل على خمسة ملايين إنسان، وثمة حوالى أربعة ملايين يعيشون على المساعدة الاجتماعية. أما عدد الأميين في ألمانيا الاتحادية السابقة فكان يقدر ما بين مليونين إلى ثلاثة ملايين إنسان. وثمة أكثر من نصف مليون إنسان من دون سكن، يعيشون في الشوارع. وفي الولايات المتحدة الأميركية تشكل البطالة حالة جماهيرية، حيث يعيش أكثر من ٤٥ مليون إنسان في حافة الفقر أو تحتها، بينما يزيد عدد المشردين والذين لا يملكون سكناً على ثلاثة ملايين إنسان. أما عدد الأميين فيقدر بأكثر من ٣٠ مليون إنسان. والوضع في البلدان الرأسمالية الأخرى ليس أفضل حالاً، حيث تواجه بلدان كثيرة أزمات اقتصادية حادة: التضخم المتزايد والنمو المتباطىء.

ومع ذلك، فإن الرفاه الذي حققه الغرب، مستوى الحياة الأعلى المتحقق في زمننا، جرى قبل كل شيء على حساب البلدان النامية الغارقة أكثر فأكثر في الفقر والتخلف والحروب والدكتاتوريات. الملايين من الناس تموت في كل عام جوعاً بينما يفرض الغرب أسعاره، في السوق العالمية التي يسيطر عليها،

على المواد الخام والمنتوجات التي يستوردها في هذه البلدان.

في الحقيقة إن العلاقة القائمة بين بلدان التقدم وبلدان التخلف يمكن أن تؤدي في المدى الأخير إلى كارثة، يصعب التنبؤ بآفاقها. فقد اتخذت الرأسمالية العالمية دائماً موقفاً أخلاقياً مزدوجاً من هذه البلدان. بعد أن انتهت الهيمنة الكولونيالية عملت كل شيء من أجل تأبيد التخلف الاجتماعي في البلدان التي تركتها لمصيرها. لقد ساند الغرب دائماً، هو الذي يدعي الديمقراطية والدفاع عن حقوق الإنسان، الأنظمة الأكثر تخلفاً، وهي في الأغلب أنظمة اقطاعية أو دكتاتورية، تمارس أبشع أشكال التنكيل والقمع ضد شعوبها. ولا يكاد يوجد مثال واحد، يظهر أن الغرب ضغط على نظام ما في العالم الثالث بالفعل (بعيداً عن كلمات الدعاية الشكلية، ليتخذ موقفاً أكثر إنسانية تجاه مواطنيه). فقد كان الغرب هو الذي يدرب الشرطة السرية في هذه البلدان على أفضل الطرق في إخراس المعارضة. إن معظم القيود التي توضع في أيدينا مصنوعة في ألمانيا الاتحادية أو الولايات المتحدة. وإذا ما تحدث المرء في كثير من بلدان العالم الثالث عن الغرب فلا بد له من أن يتحدث عن الجريمة قبل أي شيء آخر.

أما الازدواجية الأخلاقية الأخرى في موقف الغرب تجاه بلدان التخلف، فتتجلى في أنها تضع في أيدي الدكتاتوريين آخر ما تكون قد ابتكرته من أسلحة لقاء الثروات المهدورة لهذه البلدان. فهي بدل أن تقدم لهذه البلدان التكنولوجيا الصناعية والزراعية المتقدمة، تزودها بأحدث الطائرات والدبابات وأسلحة الدمار الأخرى. ونظراً لأن قادة العالم الثالث «أبطال» دائماً، يتوقون إلى الحروب التي يخسرونها في العادة، فيحولون هزائمهم وجرائمهم إلى «انتصارات كلامية» ويشعرون بأنهم «منتدبون» من الله من ميزانيات بلدانهم على شراء الأسلحة أو

يغرقون أنفسهم في الديون، من غير مبالاة بعذابات شعوبهم التي تتضور جوعاً. وتكون الفكاهة مريرة بالنسبة للغرب عندما تقع هذه الأسلحة أحياناً في أيدي أناس يعادون الغرب (أسلحة الشاه التي وقعت في أيدي آيات الله في إيران) أو يورطون أنفسهم في أزمات تجلب نقمة الغرب عليهم (أزمة الخليج بعد الاحتلال العراقي للكويت). وإذا كان العالم الثالث متخلفاً في كل شيء تقريباً عن البلدان الرأسمالية، فإنه يكاد يقرب من أعلى تكنيك سلاحي يملكه الغرب، من دون قدرة على استخدامه بالطبع عندما يجد الجد (مثال العراق في حرب المائة ساعة مع الأميركيين). وفي العالم الثالث أيضاً يمكن لطوفان الأسلحة أن يؤدي إلى انفجارات غير متوقعة، نظراً للروح القومية المتقدة التي تفتقر إلى أنظمة سياسية مستقرة تستوعبها. لقد تعامى الشرق والغرب على حد سواء طوال عقود من الزمن عن قضية التسليح في العالم الثالث. ولم يتحدث عنه أحد إلا بعد اتفاق المعسكرين على خفض أسلحتهما. إنهما يريدان الآن تجريد البلدان التي قد لا تلتزم بقواعد اللعب الجديدة من الأسلحة التي كانا هما بالذات قد باعاها لها. ولكن لماذا ينبغي على هذه البلدان أن تسلم باتفاقات، تشعر أن لا علاقة لها بها؟

وثمة ازدواجية أخلاقية أخرى في موقف الغرب من بلدان العالم الثالث، تتعلق باعتبار هذه البلدان، مجرد مقبرة ايكولوجية له. إن مختلف النفايات والسموم والمواد المشعة ترسل إلى هذه البلدان حتى من دون تفكير بالآثار التدميرية على السكان والبيئة هناك. في الواقع أن هذه البلدان تدفع ثمن الجريمة الايكولوجية في العالم كله، على الرغم من أن الغرب هو المسؤول عنها: البحار والمحيطات الملوثة بالنفط والسموم، التجارب النووية المستمرة، الغابات الطبيعية المدمرة، الغازات الصناعية التي تزيد من ثقب الأوزون المهدد للحياة البشرية.

لقد حققت الرأسمالية انتصاراً مفاجئاً ما كانت حتى لتحلم به وفي الطرف الآخر بهزيمة ساحقة حتى من دون أن يخسر حرباً. ثمة بالتأكيد منتصرون ومهزومون. ولكن لا النصر نصر ولا الهزيمة هزيمة بالمعنى التاريخي الأخير. إن انهيار الاشتراكية لم يتم لضعف في إيمان الناس بالعدالة في التاريخ، وإنما لأن آلية عمل النظام نفسه تعرضت إلى التصدع. ومهما كانت العواصف الايديولوجية، فإن الحكم النهائي هو للواقع. ففي الوقت الذي نجحت فيه الرأسمالية في قيادة أخطر ثورة صناعية ـ تكنولوجية في عصرنا وحققت فائضاً هائلاً في الانتاج، سقطت الاشتراكية في الندرة وأخفقت حتى في تلبية المتطلبات الأساسية للناس، بل إنها أفقرت الناس روحياً وثقافياً وقادتهم إلى السذاجة والبربرية التي نشهد آثارها الآن في كل مكان من هذه البلدان.

وهكذا عدنا مرة أخرى إلى شقاء اللاعدالة الذي تمثله الرأسمالية، إلى نقطة الصفر، بل وحتى إلى ما قبل ماركس، عندما كانت الاشتراكية مجرد حلم طوباوي يصلح أن يكون موضوعاً لقصص الأطفال. ولكن هل يعني هذا أننا انتظرنا المسيو غودو من غير طائل؟ هل يعني أن البشرية ظلت تلهث طيلة ١٥٠ عاماً وراء سراب، اخترعه ماركس وانجلز؟

إنني أعتقد أن الاشتراكية بشكلها التاريخي الذي تحققت به، وبالذات الشكل السوفياتي الذي جاءت به ثورة أكتوبر ١٩١٧ قد حكم عليها بالموت وانتهت إلى الأبد وهي في المعيار التاريخي الأخير، وفي الطريق الذي اختطته لنفسها لم تكن سوى ثورة مضادة، شوهت كل ما هو جوهري وإنساني في فكرة العدالة والتقدم والحرية في التاريخ. هذه الجنازة الكبرى هي التي حررت الملايين من الناس من الوهم وقبل كل شيء من التضحية بالحرية باسم العدالة، والواقع الفعلي باسم الايديولوجيا. ولكن

مهما بدا ذلك غريباً ومتناقضاً، فإن تطلع الناس إلى العدالة لم يكن في أي وقت أقوى وأعمق مما هو عليه الآن.

المشكلة الأساسية التي يواجهها اليسار في زمننا هي أنه لم يعد ثمة مفهوم محدد للاشتراكية أو لما يمكن أن تكون عليه. فإذا كان الشيوعيون قد دانوا «الاشتراكية القائمة في الواقع» وغسلوا أيديهم من جميع الأسس التي قامت عليها، فأية اشتراكية يؤمنون بها إذن؟ إن من يقرأ برامج الأحزاب الجديدة المنحدرة من الأحزاب الشيوعية القديمة في أوروبا، لن يعثر على أي مفهوم محدد للاشتراكية. لقد انتهى الجميع من التأميم وسيطرة الدولة على الانتاج. إن أقصى ما يتحدثون عنه هو إيجاد شبكة من الضمانات الاجتماعية لتخفيف صدمة اقتصاد السوق. لقد كفوا الآن حتى عن مطلب إشراك العمال في أسهم مصانعهم، لأن المصانع نفسها مفلسة، لا يمكن انقاذها إلا عن طريق رساميل أجنبية، وحيث يختفي أي مفهوم بديل عن الاشتراكية القديمة يفقد الشيوعيون المجددون أو المصلحون، كما تسميهم البورجوازية، كل امتياز في كسب الناس إلى جانبهم، في الوقت نفسه الذي يثقل كاهلهم تاريخهم المدان. إنهم موجودون الآن بحكم الاستمرارية التاريخية. ولكن هذه الحركة سوف تضعف اليوم بعد الآخر ما لم تتحرر من وهم البحث عن ايديولوجيا فوق الواقع. لقد انتهت خرافة الايديولوجيا المقدسة التي تجلس مثل أية عرافة في المعبد وتضع قوانين تطور الحياة في أي مجتمع وتتنبأ بالمستقبل. فالحياة تصاغ في كل لحظة تاريخية وفي كل مجتمع بألف طريقة وطريقة. والمهمة لا تكمن في معرفة طريقة أزلية واحدة تحقق تقدم الحياة، وإنما في ابتكار هذه الطريقة كل مرة من جديد.

إن الخطأ التاريخي الكبير الذي ارتكبه الشيوعيون هو أنهم

جعلوا من الاشتراكية «نظاماً قائماً في الواقـع» في حين أنهـا لا يمكن إلا أن تكـون جـزءاً من يـوتـوبيـا منفيـة إلى المستقبـل، تخترقها الأحلام. وطبقاً للـديالكتيـك الماركسي أيضـاً، فإن كـل نظـام يولـد نقيضه الـذي ينفيه، وليس ثمـة ما يجنب النظـام «الاشتراكي» الذي لا تختفي فيه التناقضـات هذا المصـير، إلا إذا اعتبرنا النظام، على عادة بيانات المكاتب السياسية، نظـاماً انتهت في داخله التناقضات، تديـره ملائكـة عباقـرة. ولم يفهم الشيوعيون أيضاً حقيقة أن الايديولوجيا تنتصر داخل المجتمع وليس داخل النظام. في اللحظة التي يسمي نظام ما نفسه فيها نظاماً اشتراكياً يبدأ الدجل. التسمية هنا لا تنطلق من الواقـع الفعـلي للنظـام وإنمـا من الإعـلان عن وصـول المـاركسيـين ـ اللينينيين إلى الحكم، أولئك الـذين يمتلكون وحـدهم حق بناء الاشتراكية في العالم. وقد كفت المهـزلة حتى أن تكـون مهزلـة عندما راحت بلدان مثل أثيـوبيا والصـومال وكـامبوديـا، حيث يموت الناس جوعاً ويعصف بهم تخلف يـذكّر المـرء بالعصـور الحجرية، تطلق على أنظمتها ألقاباً اشتراكية.

إن الخطوة الأولى لإعادة الاعتبار إلى الاشتراكية تبدأ بإنقاذها من الأكذوبة الايديولوجية التي يقـدمها النظـام عن نفسه، أي تحـريرهـا من أن تكون غطـاءً للنظام، مهمـا كانت امتيـازاته، تحريرهـا من أن تكون وصفـة، يعثر عليهـا المرء في الكتب. إن أهم انتصار حققته الاشتراكية هـو أنها أصبحت أكبـر من أن تحدد أو أن يدعي نظام ما ملكيتهـا ومن ثم تقديم نفسـه كأب روحي أو كمثـال مقـدس مضيء لهـا. وليس من دون دلالـة أن مـاركس ولينـين نفسيهمـا لم يقـدمـا أي مفهـوم واضـح عن الاشتراكية. لقد تحدثـا عن مرحلـة وليس عن نظام، يتم فيهـا الانتقـال تاريخيـاً من الرأسمـالية إلى الاشتـراكية ومن ثم إلى الشيـوعية التي تمثـل الـوصـول إلى الفـردوس المفقـود فـوق الأرض: مجتمـع الحريـة والمساواة المطلقـة. وفي هذه المـرحلة

التـاريخية التي قـد تستمر أجيـالاً وربما قـروناً يكـون التقدم العلمي والتكنـولوجي والاقتصـادي والثقافي الأعـلى هـو الـذي يحرك التاريخ الإنساني إلى الأمام ويشكل القاعدة التي ستقوم عليها مملكة الحرية، وليس أنظمة القرون الحجـرية التي يعلق قادتها عـلى أبواب كهـوفهم العلم الأحمر ولافتـة مكتوبـة بخط رديء فوق صورهم النصفية، تحمل اسم «الاشتراكية».

مهما كان الاسم الذي يمكن أن نطلقه عـلى يوتـوبيا المستقبـل فإن هذه اليـوتوبيـا لا تتخذ معنـاها إلا في ضـوء الماضي، ذاك الـذي نزع فيـه الانسان لأول مـرة ثوبـه المشعر. ولكن سؤال الحرية الحقيقي الذي يرتبط بموقع الانسان في العالم يبدأ قبل ذلـك. إذا تركنـا الجواب الـديني الذي يشـير إلى أن الله خلق الكـون قبل بضعـة آلاف من السنين في ستـة أيام، فـإن آخـر «موديل موقعي» كوني يقول إن الخلق بدأ قبـل اثني عشر مليار عام بالانفجار الأول الأعظم Big Bang وأن ذلك حـدث في جزء من مـائة بليـار البليـارات من الثـانيـة. ولكن الأمـر استغـرق خمسين مليون عام حتى تحولت أجـزاء الذرة إلى ذرة وظهـرت المساحات الهائلة من المادة التي شكلت المجرات. إن مـا يهمنا هنـا بالتـأكيد ليس اثبـات صحة هـذه النظريـات التي تحاول الاستفادة من آخر الكشـوفات العلميـة، وإنما المعنى الفلسفي للخلق في عـلاقته بـالوضـع الإنساني الـذي تحاول المـاركسية تفسيره علمياً. إن كل يوتـوبيا، سـواء كانت فـوق الأرض أو في السماء، سوف تبدو هزليـة وساذجـة، ما لم تجب عن الأسئلـة المحـيرة التي تتعلق بهذه اللعبـة الكـونيـة: مـا قبـل الانفجـار الأعظم وما بعده، النشوء والاختفاء، والعـدم والوجـود ومن ثم العدم، الحياة والمـوت. أي معنى لأي شيء في رحلة تقـودنا إلى مغـارة يحكمها الفنـاء؟ أجل، إننـا نفهم حيرة جلجـامش الذي يقول:

«آه! لقد غدا صاحبي الذي احببت تراباً
وانا ساضطجع مثله فلا اقوم أبد الآبدين
فيا صاحبة الحانة، وانا انظر إلى وجهك
ايكون في وسعي الا ارى الموت الذي اخشاه وارهبه؟»
ملحمة جلجامش، ترجمة طه باقر، بغداد ١٩٧٥.

إن السؤال الذي يطرحه الباحث الفضائي الفرنسي جيرارد فالوكيه يبدو هزلياً لفرط العبث الذي يقذفنا في داخله: «ترى ما الذي كان الله يفعله قبل أن يخلق الكون؟»، وهو السؤال نفسه الذي واجهه العالم الأميركي ستيفن واينبرغر الذي وصف في كتابه الصادر في العام ١٩٧٧ «الدقائق الثلاث الأولى» ـ وهذا هو عنوان كتابه ـ قصة الخليقة: «وماذا كان يوجد يا سيد واينبرغر قبل الانفجار الأعظم؟» يجيب واينبرغر: «أعرف كفيزيائي أنه لا ينبغي للمرء أن يطرح هذا السؤال». بيد أنه يعترف أنه هو نفسه لا يستطيع تجنب هذا الإغراء. أما السؤال الذي لا يمكن أن يتجنبه حتى الماركسيون فهو: ما الذي يفعله الإنسان هنا؟

إغراء الأسئلة الفلسفية قد يكون مجافياً للمراقبة العلمية المحايدة، إلا أنه يرتبط بتلك الغابة الداخلية للحياة الانسانية: الأمل واليأس، الحب والبغضاء، الفتوة والشيخوخة، الحلم والمستحيل، السعادة والعذاب، وقبل كل شيء وبعده ـ لماذا ذلك كله؟ ما معنى ذلك كله؟

إن إشكالية الفلسفات، ذات الرسالات الكبرى هي أنها تقوم على تفاؤلية تاريخية نهائية، لا يمكن أن تمتلكها الحياة. إنها تستعيد بذلك، من دون اعتراف معلن، صورة العودة إلى الفردوس الإلهي المفقود الذي طرد منه آدم ذات يوم. وبهذا المعنى تكون الشيوعية نسخة أخرى من الأسطورة الدينية، حتى لكأن الرموز هي نفسها: الصراع بين الخير المطلق الذي تمثله الطبقة العاملة (مفهوم الرسالة التاريخية، والشر المطلق

الذي تمثله البورجوازية (الاستغلال الطبقي)). الطبقة العاملة هنا هي آدم والبورجوازية هي الشيطان. ومثلما كان الشيطان في البداية ملاكاً طيباً كذلك البورجوازية أيضاً: فهي قد لعبت في البداية دوراً تقدمياً في تغيير المجتمع ولكنها ارتدت بعد ذلك ضد تقدم المجتمع نفسه. الشيطان يضلل آدم عن رؤية الحقيقة، وكذلك تفعل البورجوازية مع الطبقة العاملة. ولكن مثلما يخسر الشيطان معركته هذه ضد البشر سوف تخسر البورجوازية أيضاً، حيث يذهب البشر في النهاية رغم ذنوبهم إلى جنة السماء، والحال رغم أخطائهم إلى جنة الأرض. وفي الحالين ثمة تعاليم هادية، هي فوق كل شك.

تكمن قوة اليوتوبيا في الأمل الذي تقدمه لنا (القدرة على الخلاص)، ولكن ها هنا بالذات يكمن ضعفها أيضاً. فالأمل لا يتفجر من اللحظة الراهنة وإنما من لحظة ما في المستقبل. وهي ليست محكومة بشروط الواقع المعاش وإنما بالمخيلة التي تنفي الواقع عبر تحويله إلى لاواقع، لا واقع جميل، تختفي فيه التناقضات الاجتماعية. قوة الماركسية تتجلى قبل كل شيء في أنها فلسفة أمل اجتماعية، أي أنها تعدنا بحتمية الوصول إلى المجتمع الأكثر عدالة، المجتمع الذي يكون فيه الإنسان حراً من خلال ديالكتيك التاريخ نفسه، أي إنهاء اغتراب المجتمع والفرد على حد سواء. ولكن مشكلتها التي هي في الوقت نفسه مشكلة اليسار كله والتي يرتبط بفهمها ظهور البديل الإنساني الجديد الذي لا ينفي الماركسية وإنما يحتويها كعنصر فيه عبر نقده لها، تكمن في أنها لا تفهم تاريخ التقدم الانساني إلا باعتباره تجلياً لشكل محدد من التناقض الطبقي، يشطر الحياة إلى حياتين، لكل منهما ثقافتها الخاصة، معيدة إيانا مرة أخرى إلى المانوية (النور والظلام) وإلى الميثولوجيا (الملاك والشيطان). إننا نعرف الآن فوق الأرض على الأقل، أنه لا الملاك ملاك تماماً ولا الشيطان شيطان تماماً، بل والأكثر من ذلك ومن وجهة نظر

ديالكتيكية أيضاً (ذلك المنظور الذي ينسى غالباً) انهما يشكلان بنية متداخلة، يصعب فيها وضع خارطة نهائيـة لما هـو تقدمي ولمـا هو رجعي في المنطق الأخـير للتاريـخ الـذي يمتلـك دائمـاً «حيلته» الخاصة به، ومثلما يقول أرثر رامبو في قصيدته «هدايا العام الجديد لليتامى» فإن «الغرفة مليئة بـالظلال». إن الـذين جعلونا أكثر وعياً بالعالم الذي نعيش فيه وشكلـوا روح عصرنا وحضارتنا، لم ينحدروا بالتأكيد من ايديولوجيا واحدة أو طبقة وحيدة، تنسب إلى نفسها التقدم التاريخي كله: داروين، نيوتن، اينشتـاين، فرويـد، ماركس، بـاخ، بيتهـوفن، ديستـويفسكي، شكسبير، نيتشه، بيكاسو، شابلن، سارتر... إلخ.

إن ما هو طبقي يفقد معناه، بل ويصبح مضـاداً للتقدم، إذا لم يعتبر نفسه جزءاً من مفهوم إنساني أشمل، يقوم على الحـرية والإبـداع. وهو بـاعتباره «مصلحـة طبقية» لا يمكن أن يـوجد خارج التركيبة المعقدة للحياة نفسها. لنطـرح القضية بصـورة أخـرى: ليست ثمة مصلحـة طبقية أكثـر وضوحـاً، من وجهـة النظر الماركسية، من وصول الحزب الشيوعي إلى الحكم. ولكننا نعرف الآن أن هذه المصلحة التي اعتبرت نفسها معياراً للتقدم حولت التاريخ إلى ما يشبه المهزلة: العودة مرة أخرى إلى نقطة الصفر.

يمكن للرأسماليـة أن تقيم الآن مهرجـانات نصرهـا، بل ويمكن حتى لمدراء الايديولوجيا القدامى أن يقبّلوا يد الرأسمالية التي اكتشفـوا جمالهـا الآن فقط، إلا أن ذلك كلـه لا يمكن أن يلغي حقيقة أن الأزمة التي تواجهها البشرية، وهي أزمة اقتصـادية وسياسية وروحية وايكولـوجية في الـوقت نفسه، تتطلب نظـاماً شاملاً للعالم كله، يقـوم على الحـرية والعـدالة ويـردم الفجوة الحضارية بين الأمم ويضمن حماية البيئة من الدمار. وهذا هو بالذات ما تعجز الرأسمالية كنظام اقتصادي عالمي عن تحقيقه.

في «الشيطان والإله الطيب» يرتد جان بول سارتر علـى مفهومـه الذي كان قد طرحه في «الوجود والعدم» عن الحرية: «الإنسان محكوم بالحرية حتى النهاية»، حيث يجد هاينريش نفسه عاجزاً حتى عن الاختيار. إنه لا يستطيع أن يختار الكنيسة التي تنكرت للفقراء ولا الفقراء الذين تخلوا عن الكنيسة. هذا الموقف الدراماتيكي يمثل الآن موقف معظم الناس في عالمنا في اختيار أنظمتهم الاجتماعية: إنهم في الوقت الذي يرفضون فيه الرأسمالية التي لم تعد قادرة على إيجاد حلول عادلة لمشاكلهم الكونية، لا يريدون أن يسمعوا شيئاً عن الاشتراكية التي سلبتهم كل حق في الحرية، باسم العدالة.

ولكن إذا كان بطل سارتر محكوماً بشرطه الاجتماعي، فإننا محكومون هذه المرة بشرط التاريخ الذي قادنا إلى هذا المأزق. إن حيرة هاينريش قد تقوده إلى الجنون، أما حيرة التاريخ فقد تقودنا إلى انفجارات مباغتة قبل العثور على جواب الحياة، وسط الكثير من العذابات وربما الدماء أيضاً. إن الخطر الأكبر الذي يواجهنا الآن ليس النصر الذي حققته الرأسمالية وإنما غياب جواب الحياة البديل، ذلك الجواب الذي يقوم على التحرير النهائي للتاريخ من الأوهام والأضاليل التي ارتبطت باسمه.

لقد أخطأت الستالينية عندما أغفلت الطابع الكوني المتداخل للحضارة المعاصرة، معتقدة أنها تستطيع إقامة يوتوبياها داخل جزيرة خاصة بها. كان ذلك وهماً، فرضته الطبيعة الانقلابية في الوصول إلى السلطة، وليس شرط تطور الحضارة الإنسانية نفسها. إن ثمة فارقاً جوهرياً بين الحضارة التي أوجدتها البورجوازية (حضارتنا الراهنة) والحضارات الزراعية السابقة. فإذا كانت الحضارات القديمة قد فرضت الاختلاف الثقافي على الشعوب (شكل الانتاج، العادات والتقاليد والقيم،

شكل نظام الحكم)، فإن البضاعة البورجوازية (وبالذات في مرحلتها الراهنة) قد ألغت كل الحدود الممكنة بين الأمم والدول وتحول العالم كله، بعد ثورة وسائل الاتصال الحديثة، إلى ما يشبه القرية الواحدة التي تفرض على سكانها الاتفاق على قواعد موحدة، تنظم التفاهم فيما بينهم. لم يعد من الممكن أن نتحدث لغة خاصة بنا، كما لو أننا الوحيدون الموجودون في العالم. أكيد أن لكل ثقافة طابعها القومي الذي يشكل إثراءً للتعددية الثقافية في العالم. ولكن لا ينبغي لهذا الطابع القومي أن يعزلنا عن روح عصرنا أو يضعنا في مواجهة مع القيم المشتركة في الثقافة الانسانية الجديدة (هذه هي المشكلة الأساسية القاتلة التي تواجه الأصولية الاسلامية بالذات).

أكيد أنه كانت للاشتراكية المتحققة في الواقع امتيازات كثيرة مهمة، ولكن طبقة كثيفة من الرماد غطت هذه الفضائل، بسبب تنكرها للقيم الأساسية التي تشكل روح عصرنا: الديمقراطية والتقدم الاقتصادي. لقد انهارت الاشتراكية القائمة في الواقع ليس فقط لأن الناس (ومن ضمنهم العمال أنفسهم) اكتشفوا الخدعة الايديولوجية للدكتاتورية، وإنما أيضاً لأنهم كانوا يريدون أن يرتدوا سراويل جينز وأن يحصلوا على أجهزة فيديو وسيارات يابانية وألمانية (إغراء السلعة). إننا نستطيع أن ننقد هذه الظاهرة الاستهلاكية في مجتمع الوفرة، ولكن هل يمكن تقديم مثل هذه الموعظة الأخلاقية في مجتمع الندرة؟

إن وحدة الحضارة العالمية الراهنة (وهي مرحلة جديدة في التاريخ البشري) واتجاهها إلى تكوين دول ما فوق القومية (تجربة الجماعة الأوروبية التي تعني نهاية الدولة القومية) والسعي من أجل إقامة نظام عالمي جديد، قد يؤدي في مرحلة ما في المستقبل إلى تشكيل دولة اتحادية عالمية أو بضع دول اتحادية، كل ذلك ألغى فكرة النظام ـ الجزيرة أو فكرة تقسيم العالم إلى عالمين. آلية هذا التحول الذي فرضته شروط تطور

الحضارة نفسها سوف تلغي حتى على المدى القريب أية إمكانية لإقامة أنظمة متصادمة مع القيم الأساسية في زمننا. هذا يعني أن الاشتراكية لن تكون بعد الآن «نظاماً» مختلفاً وإنما عملية اجتماعية على النطاق العالمي كله، تتخذ ألف شكل وشكل وترتبط بحق الناس في الاختيار، حيث يكون انتصارها بتحولها إلى قيمة إنسانية عامة داخل المجتمع، مثل الديمقراطية وحقوق الإنسان، تدخل في النظام من دون أن تكون غطاءً له. وسواء تضمن النظام الكثير من الاشتراكية أو القليل منها، فإنه سوف يبقى نظاماً للحكم، يمكن أن يفسد أو يخفق مثل أي نظام آخر. إن سقوط الاشتراكية الستالينية لم يجعلنا أكثر بعداً عن الفردوس. وربما كان العكس هو الصحيح. فالنصر الحقيقي الذي حققته الاشتراكية هو أنها تحولت من كونها انقلاباً، له كهنته وطقوسه، إلى طريق مفتوح أمام البشرية كلها، إلى الحياة. إن جملة الألماني غوته تكتسب الآن قيمة استثنائية «النظريات كلها رمادية أما شجرة الحياة فخضراء».

ليس هذا دعوة لليسار إلى التخلي عن دعواه وإنما إلى الفصل بين أفق الحلم (مملكة الحرية) ومطلب النظام (مملكة التناقض)، إذ لا يكاد الحلم يهبط إلى الواقع حتى يتحول إلى كابوس. إن هذا لا يعني أبداً نفي الحلم أو إلغاء الأمل، ولكن لا بد من تجنب الأمل الكاذب الذي يعارض شرطنا الإنساني.

أجل إن الواقع الإنساني سوف يرتفع باستمرار، رغم التراجعات المؤقتة، باتجاه حلم مملكة الحرية، وهو حلم اجتماعي قبل كل شيء. وربما شعرنا ذات يوم بسعادة أكثر في حياتنا. ولكن للإنسان شرطه الميتافيزيقي أيضاً: إنه محكوم بالشيخوخة والموت، بعلاقته مع الآخر والعالم الذي يعيش فيه، بالتناقض الذي يشكل جوهر الحياة، بالصدفة، بنهاية العالم

ذات يوم ومغزى وجودنا في الكون. إن يوتوبيا، تقوم على السعادة المطلقة ليست فكرة ساذجة فحسب، وإنما صورة مضادة للحياة، هي نسخة أخرى من الجنة التي يذهب إليها المؤمنون.

إن قوة أية ايديولوجيا، لها يوتوبياها، لا تنبع من الوهم الذي تقدمه لنا (وهو دائماً في المستقبل) وإنما من مدى ارتباطها بالحياة الواقعية وقدرتها على التقدم بالتاريخ إلى الأمام، على إغناء البشرية مادياً وروحياً، على توسيع العدالة بين الناس، وعلى إنهاء كل وهم.

إن أية إعادة اعتبار إلى الاشتراكية ينبغي أن تبدأ بنقدها، وقبل كل شيء بتحريرها من التشويه الذي لحق بها بصورة خاصة منذ عهد ستالين، حيث تحولت من فلسفة إنسانية إلى فلسفة للثورة المضادة، مستخدمة الماركسية نفسها كإيديولوجيا للتبرير والاستخدام الدعائي: ما من مجتمع في الزمن الحديث كله، استطاع فيه الجهلة الذين نصبوا أنفسهم قادة أبطالاً أن يحتقروا الايديولوجيا التي حكموا باسمها مثلما فعل الستالينيون.

في ظل القادة الذين كانوا يجلسون في المكاتب السياسية حرم حتى المفكرون الماركسيون المستقلون حق الكلام، في حين أرغم المئات من الفلاسفة على تكرار أسطوانة، حولت الماركسية إلى نمط من التعاليم المدرسية. وبالتأكيد، فإن العمال ما امتلكوا يوماً الشعور بأن المعامل هي ملكهم. فقد كانوا يعملون عند الدولة مثلما يعملون في أي مكان آخر، محرومين حتى التمتع بالنقود التي كانوا يستلمونها، لأنهم لا يجدون ما يشترونه بها. كانوا يرون الفساد في كل مكان (مدراء المعامل اللصوص والمسؤولون المرتشون والقادة الذين يعيشون في أبراجهم العاجية) في الوقت الذي كان فيه الايديولوجيون يتحدثون عن

الإنسان الاشتراكي الجديد الذي سوف يبني المستقبل. في واقع الحال، إن الغباء الايديولوجي حوّل الناس إما إلى مرضى روحياً أو إلى أميين سطحيين، لا تهمهم سوى بهرجة البضائع أو إلى متآمرين أنانيين، لا يؤمنون بأي نظام أخلاقي. وبدل أن يمتلك الناس وعياً طبقياً ضد الرأسمالية أصبحت الرأسمالية في نظرهم هي الحلم.

إن أفدح خطأ يمكن أن يقع فيه اليسار مرة أخرى هو أن يحاول العثور على وصفة جديدة أو موديل عقائدي للاشتراكية. وإذا كان لا بد من الإشارة إلى أفقها فإنها عملية اجتماعية عالمية، تهدف إلى إيجاد حلول إنسانية مشتركة عادلة للمشاكل التي تواجه البشرية (الفقر، التخلف، البيئة، الصراعات القومية) والتوصل إلى نظام اقتصادي عالمي جديد، ينهي سيطرة الاحتكارات على السوق العالمية وطريقة فرض الأسعار ويوقف نهب ثروات العالم الثالث ويمنح بلدانه فرصة الدخول إلى الحضارة الجديدة. وهي باعتبارها موجهة في جوهرها ضد الاستغلال الرأسمالي، ترتبط بكفاح الناس من أجل خلق أوسع شبكة من الضمانات الاجتماعية، ولكن ذلك لا يمكن أن يتحقق من دون قاعدة مادية ـ تكنيكية متطورة، تنجزها الرأسمالية نفسها. وفي كل حال، فإن جوهر التطور التاريخي يرتبط بالحرية.

كل هذا يشكل الجزء الأهم في برامج حركات وأحزاب اليسار التي يمكن أن تطلق على نفسها ما تشاء من الأسماء، ولكنه لن يكون هناك بعد الآن نظام يمتلك حق أن يلقب نفسه بالاشتراكية. وحتى من وجهة نظر ماركس الذي يجهل تجربتنا الراهنة، فإن الاشتراكية تمثل المرحلة الأولى من يوتوبيا الحرية، حيث تسبقها مرحلة انتقالية، تتخذ مختلف الأشكال وقد تستمر فترة طويلة من الزمن، من دون أن تنفصل عن

التطور الرأسمالي. يشير ماركس إلى **«أن المجتمع الشيوعي نفسه لن يكون نتاج تطوره الذاتي وإنما ينبثق من المجتمع الرأسمالي ويرتبط اقتصادياً وروحياً وحتى في عاداته بمشيمة المجتمع القديم الذي خرج من رحمه».**
ـ ماركس، الأعمال الكاملة، المجلد ١٩، من ٢٠، الطبعة الألمانية ـ

لقد مات الملايين من الناس في الماضي من أجل أوهامهم التي آمنوا بها. أما الآن فقد حان الوقت ليعيشوا من أجل الحقيقة، مهما كانت قاسية وصعبة، متجهين عبر النهر الحي المتدفق إلى الضفة الأخرى، حيث يبدأ التاريخ الحقيقي للإنسان: تاريخ الحرية.

كمال ابو ديب

الانقلاب الثقافي: التجلي الجديد للحضور النفطي

تبنَّيتُ، في أكثر من مجال سابق، أطروحة أساسية حول التغيرات السياسية - الاقتصادية - الاجتماعية - الثقافية التي شهدها الوطن العربي منذ عام ١٩٧٣. وقد اخترت هذا التاريخ لأنه يمثّل مفصلاً حاسماً من مفاصل التطور في الصراعات الدائرة في المنطقة، ولأنه بداية ما أسميته «الانقلاب النفطي»، ولأنه، أيضاً، زمن الإنجاز العربي الأهم، وهو حرب تشرين، في صراعنا مع اسرائيل.

وقد بدا هذا المفصل لأول وهلة، نقطة بزوغ للعرب على مسرح العالم المعاصر تضعهم في موقع يستطيعون منه الاندفاع ليتحوّلوا إلى قوة عالمية حقيقية. وقد كان أبلغ تعبير عن هذا التصور الجديد للعرب، في حينها، تركيز الصحافة العالمية على الوطن العربي من حيث هو طاقات هائلة جديدة. وتجلى ذلك في العنوان الذي اختارته مجلة أميركية، أظنها Time (ولا أستطيع التأكد من ذلك الآن، وقد تكون (Newsweek) أصدرت عدداً خاصاً يحمل على غلافه صورة لعربي والعنوان التالي: The Arabs - New Pride and Power (العرب. كبرياء

(*) كتبت هذه المقالة قبل اندلاع حرب الخليج.

وقـوة جديـدتان). أمـا الأطروحـة التي قدّمتهـا فهي أن قـوى الهيمنـة العالميـة، وبعض شركائهـا في الوطن العـربي، أدركت الخطر الداهم الذي يواجهها لتشكّل هذه القوة الجديدة. إذ أن مركز هذه القوة كـان المركـز الفعلي لحـركات التحـرر والنهضة والتحديث في الوطن العربي منذ أواخر القرن المـاضي. وها هـو ذا المركز يبلـغ نقطة من التطـور يصبح فيهـا قادراً عـلى قطف ثمار قرن كـامل من الجهـد تقريبـاً لاحتلال مـوقع متقـدم من العالم. كما أن هـذا المركـز كان، بشكـل خاص وعميق الـدلالة والأهميـة، البؤرة الفعلية لحـركة التحـرر والنهضة العـربية في موجتها الثانية متمثلة في المد القومي ـ الاشتراكي ـ العلمـاني الذي فجّرتـه التنظيمات والأنظمـة «التقدميـة» العربيـة، وعلى رأسهـا ثورة يـوليو وجمـال عبـد النـاصر، منـذ الخمسينـات. وتستمـر الأطروحـة لتتكامـل قائلـة إن قوى الهيمنـة العالميـة وشركـاءها الـداخليـين، مـدركـين الخطـر القـادم ـ الحـاضر، انقضّـوا، مجمعين كـل طاقـاتهم، عـلى هـذه القـوة البـازغـة، لاستيعـابها، واحتـوائها، وتـدجينها ثم تـدميرهـا تمامـاً. وكان الهـدف الاستراتيجي لهـذا الانقضاض مـا أسميته «تقـويض المركز» ثم «انزياح المركز أو إزاحته». أما الأساليب فقد كـانت متعـددة، ومختلفة البهـارج والألـوان والأقنعـة. كمـا تعـددت المراحل التكتيكية، ومواقع التركيز للضربات واتجاهاتها.

وما أعنيه بـ «تقويض المركز» هو أن يتمّ تـدمير مـركز الحـركة التحـررية النهضـوية العـربية **فيـزيائيـاً** ومن حيث هـو قـوة سيـاسية ـ اقتصـادية ـ عسكـرية ـ ثقـافية في آن واحـد. أما التدمير الفيـزيائي فكـان محوره الأول لبنـان وسوريـا والعراق وحركة التحرير الفلسطينية. وقد دمّر لبنان فيـزيائيـاً، وأجبرت سوريا على الانخراط في معارك طويلـة وفعلية في لبنـان، وأقحم العـراق في حرب ضـد ايران، ووجهت الضربـات المتـواليـة إلى حركة التحرير الفلسطينية لتمزقها وتحولهـا إلى فئات متنـاحرة

وتدمرها فعلياً. وأما على المحور الثاني فقد كان التكتيك هو تفتيت المركز عسكرياً وسياسياً واقتصادياً وثقافياً. وقد تم ذلك فعلاً بإجهاض حرب تشرين مباشرة، (الاقتحام الاسرائيلي والمعاهدات) ثم بإدخال مصر في معاهدة السلام مع اسرائيل وإخراجها من الصراع الذي يقوده المركز، وتمزيق الوشائج التي ربطت قوى المركز قبل ذلك لزمن لا بأس به.

أما ما عنيته «بانزياح المركز» و «إزاحة المركز» فهو السعي إلى «زحلقة» مركز الفعل السياسي ـ الاقتصادي ـ الثقافي في الوطن العربي ونقله من المركز التاريخي (القاهرة، بغداد، دمشق، بيروت، فلسطين) إلى الأطراف أو الهوامش، ثم إحلال الأطراف تماماً محل المركز القديم وتكريس الأطراف بوصفها المركز الجديد للفاعلية، ولممارسة الوجود العربي في المنطقة وفي العالم.

وقد شملت الخطوات التكتيكية التي استخدمت لإنجاز هذا الهدف الاستراتيجي ما يلي:

١ ـ السعي إلى إظهار المركز القديم بمظهر المسؤول عن كل ما أصاب الوطن العربي من مشكلات وإخفاق وإحباط خصوصاً في مواجهة اسرائيل، وفي تحقيق الرخاء المادي والتحوّل (الاشتراكي) إلى مجتمع منتج صناعي، وتحقيق الوحدة العربية.

٢ ـ توحيد هوية المركز بمفاهيم الاشتراكية، والشيوعية، والإلحاد، والعلمانية، واليسار، والارتباط بالاتحاد السوفييتي، في الوقت نفسه، بحيث تصبح الحجة القائمة ما يلي:

«انظروا أيها العرب! ما الذي أدت إليه الاشتراكية، واليسار والعلمانية، والقومية، والارتباط بالروس؟ لقد أدت إلى

إخفاقكم الدائم، وإحباطكم، وفشلكم في تحقيق الوحدة، والرخاء، والانتصار على اسرائيل.

إذن، ارفضوا هذه المفاهيم والأنظمة التي تمثلها وتتبناها وابحثوا عن بديل آخر هو المنقذ الوحيد لكم. وهذا البديل موجود لديكم ولا حاجة لكم للبحث عنه. فقط عودوا إليه، الجأوا إليه. إنه الدين والتراث الديني والفكر الديني والحياة الدينية».

٣ ـ إبراز الأطراف بوصفها المصدر الحقيقي للقوة والنفوذ والتأثير العالمي والكبرياء والاحترام عالمياً والنهضة والرخاء والتقدم. وقد برز ذلك فوراً بتضخيم دور النفط واعتباره المصدر الأول ـ بل الوحيد ـ لحضور العرب الفاعل في العالم وقوتهم الجديدة. وتضخيم دور النفط كان تضخيماً لدور دول الأطراف وإبرازها بوصفها مركز ثقل على الصعيد العالمي من خلال قوتها المالية ـ الاقتصادية وعلاقات المشاركة بينها وبين قوى الهيمنة العالمية وبشكل خاص الولايات المتحدة الأميركية.

٤ ـ توحيد هوية دول الأطراف ـ المركز الجديد بالملاذ الجديد وهو الدين. لا دين إلا ما تمثله هذه الدول. فهي مركز القوة الدينية والدعوة الدينية ومركز الثقل المالي ـ الاقتصادي، ومصدر الحضور الفاعل للعرب في العالم، كل ذلك في آن واحد.

٥ ـ طرح الصراع في الوطن العربي بصورة جديدة تماماً. فهو ليس صراعاً بين العرب واسرائيل، أو بين أنظمة رجعية وأخرى تقدمية، أو مفاهيم وتصورات سياسية وتناقضات اجتماعية، بل صراع بين الدين وأعداء الدين؛ بين الإيمان والكفر؛ بين العقيدة والالحاد، بين الأفكار

الهدامة للتراث والشخصية المحلية ـ العربية، وبين التراث الذي يحفظ لهذه الشخصية جوهرها.

٦ ـ نفي الوجود القومي ومفاهيم القومية بكل صورها، وإحلال الوجود الديني ومفهوم الأمة الدينية محل الأمة القومية.

ولقد أدت الجهود الخارقة التي بذلتها القوى الشريكة في وضع هـذا المخطط وتنفيذه ـ غربية وعربية ـ إلى تحقيق إنجازات باهرة. فقد فوّر المد الديني وغاضت الحركة التحررية النهضوية وانزاح المركز تماماً. أصبح الهامش هو المركز الجديد الذي يهرع إليه قادة المركز القديم للاستشارة والمباركة، على أقل تقدير، ويعتمدون عليه كلية في إبقاء مجتمعاتهم واقفة على قدميها اقتصادياً.

ولقد كان لهـذا المخطط نقاط ضعفه وجوانبه الخفية في آن واحد. فقد كانت كل خطوة منه ذات مضاعفات في اتجاهات أخرى. ولعل أول هذه المضاعفات أن يكون ما تعنيه قوة المركز الجديد بالنسبة لقوى الهيمنة الغربية ـ شريكتها. صحيح أن هذه القوى أرادت إبراز قوة المركز الجديد مالياً واقتصادياً وسياسياً وتفريخ حركة دينية طاغية تدعم وترسخ هـذه القوة، لكن صحيح أيضاً أنه، على صعيد آخر، كانت مصالح قوى الهيمنة تقتضي أن تظل قوة المركز الجديد محدودة في الواقع الفعلي وأسيرة تتحرك في المجال المحدد لها سلفاً. أي أن تناقضاً برز ـ تصورياً ـ بين إبراز القوة الجديدة وبين مصالح الغرب الحقيقية. وكان ذلك يتطلب حلاً. وقد وضع الحل مع التصور الأساسي: تضخيم قوة دول الهامش ـ المركز الجديد في المنطقة العربية، وإبرازها عالمياً في صورة الخطر الذي يهدد الغرب وتشويه صورة العربي من خلالها ووضعها مالياً واقتصادياً داخل عجلة الاقتصاد الغربي تماماً. تضخيم قوة النفط والسعي إلى تنفيس بالون هـذه القوة في آن واحد، عن

طريق العمل على ايجاد بدائل لـه، أو استنفاده في المنطقـة، أو دفع أسعاره إلى الأدنى بـانتظام.. وامتصـاص القوة المـالية ـ الاقتصادية لدوله عن طريقين: إدخال عائـداتها المـالية داخـل شبكة المصارف والاستثمارات الغربية، أي أسرها وتحويلها إلى قوة جديـدة إضافيـة في تسيير عجلـة الاقتصاد والصنـاعة في الغرب بدلاً من كونها منافسة لهما؛ وخلق المجتمع الاستهلاكي الذي يدفع بهذه الدول إلى إنفاق معظم عائداتهـا على استـيراد منتجات الغرب من الإبـرة إلى الصاروخ مـروراً بالـرولز رويس والكاديلاك والبوينغ الخاصة والحمامات الـذهبية والمـراحيض الفضيـة وشبكات الطـرق الجاهـزة والقصور التي تسلم «عـلى المفتاح» والجواهر النادرة ووصولاً إلى اللوحات الفنية والقصور التي هجـرها أصحـابها في أوروبـا وأميركـا، فـأغـري العـرب بشرائها لتعليق جلابياتهم المقصبة فيهـا، أو لحفظ حريمهم أو، كمـا في حالـة متقدمـة جداً أعـرفها، «لتعليق لـوحاتهم الفنيـة فيها!!!».

أمـا نقاط الضعف والمفـارقـة في المخطط، فقـد كـان أولهـا أن التطبيـل لفشل الأنظمـة التحرريـة وإخفاقهـا جاء في اللحظـة نفسها بالضبط التي حققت فيها هذه الأنظمة فعلاً أول انتصار لها ـ مهما كان جزئياً وفاضحاً ـ وهو التقدم العسكري والتقني الذي أظهرته سوريا ومصر في حرب تشرين، خصوصاً بـالمقدرة التي بهـرت الأميركيـين على استخـدام الصواريـخ الـروسيـة المتطـورة ـ وتحقيق درجة عـالية من التنسيق وبـوادر الوحـدة القومية العملية والشعورية، وامتلاك القدرة على التخطيط بعيـد المـدى واتخاذ المبـادرة العسكريـة والمفـاجـأة وإجبـار الـدول المترددة على الانخراط في الحمّى الشعورية القوميـة الكاسحـة. كانت تلك مفـارقة مـذهلة بحت: في لحظـة النصر يهجم المخطط ليقـول هذا هـو مصـدر الفشـل. وقـد تحقق النجـاح للخطـوة التكتيكيـة بمهارة المخططـين الأميركيـين، وعـلى رأسهم هنـري

كيسنجر، وكانت أولى الأفكار إجهاض النصر الجزئي فوراً بالاقتحام الاسرائيلي «المفاجىء؟ لمن؟» لمصر، ويكشف حقيقة أن حرب السادات كانت حرب تحريك لا حرب تحرير، ثم يجر السادات (هل كان الأمر جرّاً فقط؟ أم استقبالاً؟» إلى سلسلة المعاهدات التي تتوجت بزيارته للقدس ثم بكامب ديفيد.

وأما نقاط الضعف، فقد كانت أكثرها وأعمقها تهديداً للمخطط النقطة التي كانت بؤرة التصور الفعلية للمخطط بأكمله: أي إثارة الحمية الدينية وتفريخ الحركة الدينية.

ولقد تجلى هذا الخطر الحقيقي بعد سنوات من فاعلية المخطط ونجاحه، وكانت آثاره أهم ما أدى إلى خلخلة المخطط والاضطرار إلى ادخال تعديلات عليه والتصرف بعصبية أحياناً وبنزق غير مخطط له أحياناً، إما من قبل قوى الهيمنة الغربية أو من قبل شركائها العرب. أما كيف حدث ذلك، فبالطريقة التالية:

لقد رافق انتشار المد الديني المطلوب من قبل المخططين انتشار لهذا المد خارج الوطن العربي. وكان ذلك كله مباركاً في البدء، وبدا تعبيراً عن النجاح الساحق للمخطط، لأنه كله يخدم الأغراض نفسها ويؤدي إلى تطويق الشيوعية والاتحاد السوفييتي. لقد انتشر هذا المد في تركيا وافغانستان وباكستان و... ايران.

وكانت تلك بالضبط الهوة المفتوحة التي لم ير المخططون بدءاً مدى عمقها، ولا حسبوا أنها قد تفتح قيعانها لهم هم أيضاً. فإيران كانت مضمونة قبل بدء المخطط، من وجوه أخرى ولعلاقات أخرى. أما انتصار المد الديني فيها الآن فلم يكن محسوباً حسابه.

والواقع، أن أصحاب المخط هلّلوا لانتصار المد الديني في ايران

أولاً، وظنوه وجهاً آخر من وجوه نجاح عملهم وتعبيراً عظيماً عن البعث الديني في المنطقة وفي العالم. وسارع العرب المعنيون إلى التهليل والتكبير والتسبيح للمعجزة الجديدة. لكن حساباتهم كانت خاطئة.

فلقد أدّى تحريك الحمية الدينية إلى تحريك لشيء ملازم لها في كل مراحل تاريخنا دون استثناء وهو: العصبية الدينية والمذهبية، عصبية الملل والنحل، والانقسامات المرعبة التي كانت أشد القوى تأثيراً في شل اندفاع الحضارة العربية تاريخياً. وفي بلدان هي فسيفساء من الفرق والملل والنحل، كان أسهل الأمور هو أن يحدث ما حدث، وأن يبدأ التناحر والتمزيق الشرس والتكفير و.. الحروب طبعاً. ودخلنا المراحل الأكثر ارعاباً من تمزيق لبنان والمرحلة الأكثر تعقيداً في الخليج بانفجار الحرب العراقية ـ الايرانية.

هل كان المخططون يسعون أصلاً إلى مثل هذا الإيقاظ للعصبيات الدينية والمذهبية استكمالاً لمخطط التفتيت والتمزيق الذي وضعوه للمنطقة؟ ذلك ما أجدني غير قادر على حسمه في تصوري للأمور. قد يكون الشركاء الغربيون سعوا أصلاً إلى ذلك. أما الأطراف العربية فقد تكون الأمور فاجأتها: قد يكونون في حمى حمياهم الدينية لم يحسبوا أي حساب لإثارة مثل هذه النعرات، في عالم اعتبروا أنفسهم فيه، حماة الدين والديار وممثلي الأغلبية المذهبية الساحقة، ولم يدخلوا إيران في حسابهم باعتبارها قوة ضخمة من قوى المعسكر المذهبي الآخر. وقد يكون، في حمى الحمية المالية والاقتصادية، ظنوا أنفسهم قادرين على السيطرة على كل الأطراف المذهبية: شراء، أو متراً، أو بدعم القوى المذهبية المناصرة لهم حيثما وجدت هذه الأقليات وإبقائها أقليات خاضعة إن لم تكن مناصرة مشتراة.

وفيما نجح المخطط في إبراز قوى التحرر العربية كقوى فاشلة، رغم المفارقة التي أشرت إليها، فإنه لم ينجح في تجاوز هذه العقبة الجديدة. بل إنه لمّا ينجح حتى الآن. رغم إيقاف الحرب العراقية ـ الايرانية في لحظة بدت معها ايران خاسرة منهارة، ورغم كل التنظيمات الدينية التي نشرها سادة المركز الجديد في المنطقة وحول العالم، مؤيدة لموقعهم ومنافحة عنه، ورغم حملات التشهير والتكفير الرسمي التي أصدرها فقهاؤه ومشرعوه. لقد انكسر القمقم، فيما يبدو، وخرج منه لا مارد بل ماردان متصارعان. ونحن لم نشهد بعد سوى بداية صراعهما. وعلى الله الاتكال وهو نعم الوكيل.

٢

لم تطرح الخمينية ـ (والإيرانية) نفسها كامتداد للانبعاث الديني الذي حدث في العقد السابق، كما فهمتها قيادة الحركة الدينية العربية حين صفقت وهللت لها أولاً، بل طرحت نفسها بديلاً للحركة الدينية العربية، لما يمكن أن نسميه «الاسلام السعودي». وقررت الخمينية تكرار اللعبة الدينية الأولى، لا دفعها إلى الأمام. فإذا كانت دول الأطراف العربية سعت إلى إزاحة المركز، وتحوّلت إلى المركز الجديد باستغلال انبعاث ديني، فإن الخمينية شاءت أن تمارس اللعبة نفسها، وتزيح المركز ثانية: من المركز الجديد، إليها، لتصبح هي المركز الجديد لا للوجود العربي هذه المرة بل للوجود الاسلامي كله. وهكذا أبرز دخول الخمينية إلى الساحة ثلاثة مكونات جديدة لصراع جديد يتجاوز الصراع العربي ـ الاسرائيلي ويحوّل الأنظار عنه:

١ ـ الصراع حول المركز وحول تشكيل البنية الجديدة للمركز والهوامش.

٢ ـ الصراع حول قيادة الحركة الدينية.

٣ ـ الصراع بين المصالح القومية الايرانية والمصالح الأخرى (الاقليمية والقطرية والعربية إلى حد ما، إذا كانت ذات أهمية حقاً، وأنا أشك في ذلك، بالنسبة لدول المركز الجديد).

وقد استخدمت في هذا الصراع كل الأسلحة: من تكوين الأحزاب المذهبية، والحركات العالمية الاسلامية، والميليشيات، إلى غزو مكة، إلى الدعوة إلى رفع السيطرة السعودية عن الأماكن المقدسة وتدويلها أو «أسلمتها»، إلى حرب الخليج بما رافقها من حرب صواريخ وناقلات ومدن، إلى لعبة «مصارعة اسرائيل والاستعمار». فإذا كان الاسلام السعودي حليفاً للغرب والأميركيين بشكل خاص، فليكن الاسلام الايراني عدواً؛ وإذا كان الاسلام السعودي مهادناً فيما يخص الصراع العربي ـ الاسرائيلي، فليكن الاسلام الايراني مهدداً كل لحظة باجتياح القدس (في الاذاعات طبعاً، كما يفعل العرب تماماً)؛ واستخدمت في هذا الصراع أيضاً التناقضات القائمة بين الأنظمة العربية، والتيارات الفكرية العربية؛ كما استخدم فيه النفط، والقوة المالية، وأوبك، وروتردام والبنوك والودائع وكل ما إليه سبيل وما هدى الله إليه المؤمنين حقاً. وكانت من نتائج الصراع (ومن مسبباته الخفية أيضاً؟) طلب نجدة الولايات المتحدة والغرب ودخولهم الخليج بصورة شرعية. وقد تم ذلك لعدد من الأسباب أهمها أن الاسلام الايراني كان الآن يهدد دول المركز الجديد مباشرة ويتدخل في تنفيذ المخطط المرسوم لغرض مخطط بديل هو الطرف الأول فيه؛ وثانيهما أن القرار كان قد اتخذ دولياً. وفي الاتفاقات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، على تهدئة العالم ونزع فتائل التفجّر في مناطق منه وحل الصراعات الاقليمية لمصلحة الطرفين،

وسأناقش هذه الفكرة بعد قليل بشيء من التفصيل. وفي هذا المناخ الجديد أصبح معروفاً لبعض الأطراف أن الضغط على ايران سيرتفع إلى درجة تدرك معها أنها لا تستطيع أن تربح الحرب. وهذه النقطة هي المنزلق النفسي السيكولوجي للايرانيين، ونقطة انكسارهم. وحين تدرك ايران ذلك ستقبل بإيقاف الحرب. وبدا لدول المركز الجديد أن خروج العراق شبه منتصر من المعركة سيشكل خطراً مقبلاً عليها يتجاوز الخطر الراهن. فالعراق ينتمي إلى دول المركز القديم، من جهة، ويقف على طرف مناوىء للهجمة الدينية، فكرياً وحزبياً، من جهة أخرى. وبروزه في موقعه الجديد سيجعل منه قوى اقليمية يحسب لها الحساب. وقد بدا أن الانتظار إلى أن تتوقف الحرب ثم طلب التدخل الاميركي ـ الغربي لصد أي خطر عراقي سيكون حركة مفضوحة تماماً، ولذلك يحسن طلب التدخل الاميركي ـ الغربي قبل انتهاء الحرب ولأسباب تبدو متعلقة بالتهديد الايراني. ومما يشعر بسلامة هذا التصور أن الحرب توقفت وما تزال الأساطيل الأميركية ـ الغربية تحمي المنطقة. (ممن؟) (من خطر ايران في الجولة المقبلة؟).

٣

إضافة إلى المضاعفات السلبية المتمثلة في بزوغ الإسلام الايراني، كان المخطط منذ البدء مشروخاً بمفارقة أخرى هي التالية: في الوقت الذي يسعى فيه المخططون إلى اتعاظ الحميا الدينية، والعودة إلى الخصوصية، والشخصية الدينية، والأمة الدينية، كانوا يسعون أيضاً إلى ربط دول المركز الجديد والحركات الدينية التي تدعم قوتها بالغرب ربطاً كاملاً. والغرب تاريخياً، ونظرياً على الأقل، ينبثق في الوعي واللاوعي آخر عدواً، صليبياً، مهدداً، غازياً. كيف يضمن المخطط، إذن، اتعاظ الحميا الدينية وإبقاء الدول التي تحمل رايتها شريكة للغرب،

دون أن يثير حاسة العداء التاريخي فتتحول الحركة الدينية ضد الغرب وضد دول المركز الجديد المرتبطة به وتصبح حليفة لدول المركز القديم التي بقيت تنهج منهجاً معادياً للغرب ولاسرائيل (اعلامياً، على الأقل).

كانت اللعبة بالغة الخطورة، وكانت سيفاً ذا حدين يمكن أن ينقلب بأي اتجاه ليبتر الطرف الذي لا يرغب المخططون أن يبتره. وكانت السيطرة على اللعبة، واتجاه انفجار المارد الخارج من القمقم تتطلب ذكاءً هائلاً وطاقات هائلة. ولقد توفّر كلا الأمرين للمخططين. وكانت إحدى سبل السيطرة على اللعبة بروز الغرب والولايات المتحدة، في ظروف ملائمة دولياً، في صورة المنافح المدافع عن الاسلام... لكن في أمكنة خارج العالم العربي، لكي لا ينقلب الحس الجديد ضد اسرائيل.. وكانت افغانستان وباكستان الفرصة الذهبية لتنفيذ اللعبة. وبدت أميركا فعلاً حامية الجهاد الاسلامي في افغانستان في شراكة كلية مع السعودية، ودول المركز الجديد الأخرى. ولهذا السبب بالدرجة الأولى نفخت افغانستان كقضية أولى لدى المسلمين في العالم وفي العالم العربي خاصة، وجنّدت الحركة الدينية كلية لتحويل قضية أفغانستان إلى طعام يومي للمؤمنين، والتطوع للقتال فيها، وجمع التبرعات لها،... الخ. وبلغ الأمر حداً يثير الشفقة: ففي الوقت الذي كانت فيه الحركة الدينية تطبل وتزمر لأفغانستان يومياً، كانت منابرها صامتة عن الحديث عن فلسطين، حتى بعد بدء الانتفاضة ـ الثورة العظيمة فيها. كذلك تم اغراق المجتمع الاستهلاكي الجديد بالحياة الأميركية والغربية ومنتوجاتها، بحيث أن وجود الانسان اليومي كان مقروناً بحضور الغرب إلى درجة بدا فيها الغرب اليفاً، صديقاً، ودوداً وحليفاً مسؤولاً حتى عن توفير اللقمة الطيبة لأفواهنا جميعاً: من هامبورغر ماكدونالد إلى لحم العجل الأميركي الطري يومياً، مقطعاً جاهزاً للـ «بيف ستيك».

كذلك ربطت الجامعات والبعثات العلمية وتنفيذ المخططات التنموية كلها بالغرب ليبدو حضوره اليومي واشعاعه المستقبلي دائماً؛ وكذلك ربط الاعلام من الصحافة إلى أفلام التليفزيون والفيديو والكومبيوتر بالغرب. وصار الغرب في بيوتنا القط الأليف الذي ينام في أسرّتنا ويستيقظ قبلنا ليعد القهوة الصباحية.

فهل يعقل أن يكون هذا الغرب القط الأليف ومصدر رزقنا كله سوى حليف طبيعي؟ هل يعقل أن يكون العدو التاريخي، المستعمر، الغاصب، الداعم لإسرائيل؟ طبعاً لا.

ولقد نجحت اللعبة نجاحاً باهراً، واستطاعت الأنظمة العربية المعنية، بالتعاون مع حلفائها الغربيين، التغلب على أكبر عقبة في طريق المخطط وإلغاء أخطر مفارقة كامنة فيه: كيف تستوفز حميا التراث والدين وتقنع الناس الذين تستوفزهم في الوقت نفسه بأن الغرب هو حامي التراث والدين؟ ولم يستطع الاسلام الايراني، الذي سعى إلى إبراز هذه المفارقة واستثمارها لمصلحته إلى أبعد حد ممكن، أن يهزم الاسلام السعودي على هذا الصعيد المحدد. غير أن النجاح لم يكن مطلقاً، رغم كونه باهراً. فلقد أفرزت الحركة الدينية المنبعثة ظاهرة ملازمة للعصبية التي أثارتها هي التطرف الديني. ونشأت حركات دينية (صغيرة نسبياً؟) لم تنجح معها لعبة تجاوز المفارقة وإلغائها، فتحول نشاطها الرئيسي ضد الغرب وضد شركائه في المنطقة. وكانت هذه الحركات، بشكل أو بآخر، موالية لإيران.

ولقد اصطدمت قيادات المركز الجديد بهذه الحقيقة المزعجة، التي بدت أحياناً قادرة على التهديد الحقيقي. واضطرت إلى ممالأة هذه التيارات، محاولة استخدامها لصالحها حيثما استطاعت، لكنها اضطرت أحياناً إلى الدخول في صراع معها.

وقد لعب لعبة تشجيع الحركات الدينية ثم دفع الثمن لذلك أكثر من نظام عربي: السادات أولًا، ثم الأردن. فبعد فترة استسلام كاملة للتيار، واستخدامه لخدمة مصالحه في العلاقات القلقة مع الفلسطينيين وسوريا، اضطر الأردن إلى ضرب التيار ضربة حاسمة عام ١٩٨٦ واختار جامعة اليرموك لتكون مسرحاً لعملياته، في الأحداث المعروفة التي انتهت باقتحام الجامعة وحدوث مجزرة فيها. كذلك اضطر النظام السعودي إلى تنفيذ ضربة مماثلة، لكن على مستوى أعلى وأبعد «مجزريّة». والحبل على الجرار. وما تشهده الجزائر الآن، بعدما شهدته تونس، ليس بالضرورة نهاية المطاف.

٤

أشرت في فقرة (٢) إلى الوفاق الأميركي ـ السوفييتي كعامل جوهري في خلق أوضاع معينة في المنطقة واعداً بمناقشته. وهاأنذا أفعل.

كان بروز ميخائيل غورباتشوف في الموقع الذي برز فيه، أحد أهم الأحداث السياسية في الثمانينات. ومع أننا بحاجة إلى قدر كبير من المعرفة قبل أن نستطيع تقييم هذا الحدث البارز، ونتائجه، والامكانات الجديدة التي يفتحها، والدور الذي سيلعبه في رسم «صورة الأشياء الآتية»، في وقت لا تتوفر لنا فيه إلا معرفة صحفية الطابع، فإن شيئاً واحداً بعيد الأهمية يقع في متناول معرفتنا. إن غورباتشوف ظاهرة مختلفة جداً عن كل ما نعرفه في تاريخ الزعامات السوفييتية من ظواهر؛ وهو ذو تطلعات مغايرة لتطلعات من سبقوه. والبرنامج الذي يسعى إلى تنفيذه بعيد الغور، جذري وشامل في آن واحد. وقد اقترحت في زمن مبكر من بزوغ غورباتشوف أن النموذج الذي يفتنه اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً هو النموذج الرأسمالي الغربي لا النموذج الشيوعي كما عرفه الاتحاد السوفييتي. وبسبب من

ذلك كله فإن غورباتشوف كان منذ البدء بحاجة ماسة إلى وفاق دولي، إلى إيقاف سباق التسلح، وإلى اكتساب المساندة من الولايات المتحدة والغرب من أجل أن يستطيع التركيز بشكل كلي على تنفيذ ثورته الداخلية ومواجهة المعارضة القوية التي يلقاها من «الحرس القديم» ومن عوامل أصيلة في بنية المجتمع السوفييتي وثقافته. لكن غورباتشوف كان بحاجة إلى أن يصل إلى ترتيب مع الولايات المتحدة يضمن له القدرة على هذا التركيز الداخلي دون أن يبدو وكأنه يتصرف من موقع ضعف أو يريق ماء وجهه ووجه الاتحاد السوفييتي. وقد استطاع فعلاً أن يفوز بهذه الغنيمة ويحقق التوازن الذي يريده، لأن الولايات المتحدة كانت أيضاً بحاجة إلى مكاسب معينة من تسوية مع الاتحاد السوفييتي. وكان في الجوهر من الوفاق الدولي التصميم على إخماد الحرائق المشتعلة في العالم لكي يستطيع غورباتشوف الانصراف إلى مشروعه الداخلي. وكان بعضنا قد تكهن قبل لقاء ريغان وغورباتشوف في ايسلندا بأن ما سيحدث هو الاتفاق على هذه النقطة بالتحديد. وتبعاً لهذا التصور، ينسحب الاتحاد السوفييتي من افغانستان وتوقف حرب العراق - ايران، وتهدأ المناطق الأخرى من قبرص إلى انغولا، إلى أميركا اللاتينية، ثم إلى النزاع الفلسطيني - الاسرائيلي والنزاع العربي - الاسرائيلي بشكل عام. وقد نفذت أجزاء أساسية من المشروع، وبقيته في طريقها إلى التنفيذ. غير أن أصعب فقرات المشروع، الصراع العربي - الاسرائيلي سيستغرق وقتاً قد يتجاوز الوقت الذي يبقى فيه غورباتشوف في موقع الزعامة في الاتحاد السوفييتي.

كان بعضنا قد توقع بإصرار مستغرب أحياناً أن الحرب العراقية - الايرانية ستتوقف قبل نهاية عام ١٩٨٨. ويعود هذا التوقع إلى أواخر ربيع ١٩٨٧. وكان هذا التوقع مقروناً بسلسلة من التوقعات المترابطة التي تنسجم كلها مع تصور

العلاقات الدولية السائدة ومع أطروحة المركز ـ الهوامش التي نوقشت أعلاه. أما النقاط الأخرى التي تنبع من هذه الأطروحة، والتي تخص الأوضاع في المنطقة العربية نفسها، فقد كانت تشمل ما يلي:

١ ـ التئام المركز القديم والعودة إلى تجمعه وتجميعه بحيث يستعيد دوره المركزي في المنطقة، وعودة الصراع بين هذا المركز القديم، متجدداً الآن، وبين الهوامش إلى ما كان عليه في الستينات على أقل تقدير، واحتمال اتخاذه مسارات مختلفة وبلوغه درجة أعظم من الحدة والتأثير على واقع المنطقة ومستقبل الحياة العربية.

٢ ـ بروز محاور تجمع مختلفة ومتباينة ومتقلبة في مرحلة مبدئية لها طبيعة التجاريب المؤقتة قبل أن تستقر التحالفات والمحاور في أوضاع ذات قدرة على الديمومة النسبية.

٣ ـ سعي قوى الهيمنة العالمية، ودول المركز الجديد، لمنع تشكل المحاور التي تدعم قوة المركز وتدفعها هي إلى الهامش من جديد، وإنشاء محاور تجمع خاصة بها تستند إلى قوى داخلية تدعمها داخل دول المركز القديم وإلى قوى خارجية تدعمها ضمن العالم الاسلامي ودول الهيمنة العالمية.

٤ ـ انحسار الصراع العربي ـ الاسرائيلي في هذه المرحلة الجديدة إلى موقع هامشي نسبياً، والقيام بترتيبات تمويهية تخفف من حدة الصراع على أية حال ويحقق فيها الفلسطينيون مكاسب تبدو كبيرة، لكنها في الواقع ثانوية الأهمية والتأثير على مستقبل الصراع ومستقبل المنطقة.

كمال ابو ديب

نهاية عصر كان ينبغي أن ينتهي

١

كان لا بد له أن ينتهي. العصر العربي الاكثر مأساوية وسواداً. لقد أطلقوا عليه أسماء كثيرة، أما أنا فأسميته منذ ١٩٧٧ «الزمن العربي» لأصفه بأسوأ ما يمكن أن يوصف به زمن. وقبل عام وبعض العام تكهنت بأنه يحتضر ويشرف على الانتهاء. ويومها أسميته بالفعل «عصر النهايات». وها هو ذا ينتهي.

٢

لكن أي عصر يطل الآن؟ إنه العصر الاميركي أولاً وقبل كل شيء. لكنه العصر الأميركي الملتبس. فيه تصل الهيمنة الأميركية على المنطقة العربية، وعلى العالم أيضاً، ذروتها الأمبراطورية. وفيه أيضاً تبدأ بذور الإنحطاط الأمبراطوري الأميركي بالإيراق والنمو. وقد يكون نموها أسرع بكثير مما يحلم به حتى أعداء أميركا الألداء. وسأعود الى هذه النقطة فيما بعد.

ويتميز العصر الأميركي الجديد أكثر ما يتميز بأنه يخرج من منطقة الخفاء والاستتار وراء أنظمة عميلة له الى دور الجلاء

والعلنية والمكاشفة الصريحة، كأنه يغار من شهرة غلاسنوست ميخائيل غورباتشوف ويقرر استعارتها، لكن بصورة مقلوبة، ليتخذها نهجاً للعمل السياسي في العالم. بهذا المعنى يدخل المد الأميركي في المنطقة العربية مرحلة الإستعمار المباشر، مستعيداً دور أوروبا الإستعماري القديم ـ وهذه بالضبط نقطة ضعفه ومحز السكين الذي سيكون منحره ومقتله. ليس لدي من شك ـ رغم كل تنصلات الإدارة الأميركية المدجِّلة ـ في أن أميركا في طريقها إلى احتلال المنطقة العربية احتلالاً مباشراً بالصيغة الإستعمارية التقليدية ـ وقد كان هذا الطموح اللهوف للاحتلال، الدافع الأول في المواقف التي اتخذتها أميركا من قضية الكويت والغزو العراقي له. فقد أرادت أميركا مع انتهاء الحرب الباردة أن تضع الدمغة الصريحة على خريطة انتصارها الحاسم وانحسار الإتحاد السوفييتي وأن تبلور بجلاء ناصع حقيقة جديدة هي أنها القوة الوحيدة العظمى في العالم، وأنها تستطيع فرض نفوذها المباشر على أي جزء منه، وأن الإتحاد السوفييتي لم يعد قوة منافسة بل أصبح مندرجاً في التصور الجديد للعالم وخارطة النظام العالمي الجديدة كما يرسمها البيت الأبيض. وأرادت أميركا أن تقوم باختيار سهل لا يعرضها لاحتمال صدام مسلّح مع الإتحاد السوفييتي لبرهنة مقولاتها الجديدة، فوجدت ساحة جاهزة لذلك في الأوضاع العربية مع ما كان العراق يثيره من ضجة حول نفسه وقوته العسكرية الصاعدة، وشجعت العراق على الإندفاع في خطه المفاجىء لكي تستثمر تحركه بالطريقة المثلى لتنفيذ مخططاتها، التي تتضمن رسم خريطة للمنطقة العربية الغنية التي أصبحت المنطقة الوحيدة في العالم التي لا تخضع كلية للمشيئة الأميركية وتظل مصدر قلق قابل للانفجار. واستجاب العراق، واعياً، أو لأخطاء في الحسابات، لمغويات المصيدة الأميركية. (غير أن ما يبدو أن أميركا لم تحسب حسابه بدقة

كافية هو احتمال إلحاح العراق على متابعة الطريق، من جهة، واحتمال أن يؤدي اندفاعها المهيمن إلى إثارة القوى السوفييتية التي ما تزال ترغب في أن يبقى للاتحاد السوفييتي حضورة في العالم والتي يخيفها شبح السيطرة الأميركية فتندفع الى محاولة تأكيد الحضور السوفييتي بمعارضة واضحة للسياسة الأميركية وتشتعل من جديد نار الحرب الباردة بادئةً اضطرامها من المنطقة العربية). وكان إدراك بعضنا لهذا الدافع المحرك للسياسة الأميركية أحدَ مثيرات الإعتراض على الغزو العراقي لأنه يمنح أميركا فرصتها الذهبية لاحتلال المنطقة بصورة «شرعية» (وبطلب من بعض أنظمتها وبالتحالف مع أنظمة عربية، بينها من لم يكن ممكنا أن يتحالف مع أميركا بصورة صريحة مكشوفة في ظروف غير الظروف التي خلقها الإحتلال العراقي للكويت) وهي تتبختر في أزياء الرسول المخلّص المنقذ وتتقاضى ثمناً باهظاً لتكرمها بتدمير بلد عربي بدأ يبني قوته العسكرية والصناعية والعلمية بجهود أخذت تقترب به من المنطقة المحرمة: الخروج من ربقة التخلف وخطاطيف الرهبة والخضوع لارادة القوى الكبرى المهيمنة في العالم وفي المنطقة العربية، وبشكل خاص أميركا وإسرائيل.

وفي هذا العصر الأميركي الجديد لن يكون هناك من يقول لأميركا لا ـ إلا بلداً واحداً ـ فقط سيقول لها لا، إذا بدا له أنها مقدمة على خطوة ترضي بها مواليها العرب جزئياً مهما كانت هذه الخطوة هامشية وتمويهية. هذا البلد هو إسرائيل. ولذلك، فإن المرحلة المقبلة قد تكون مرحلة الصراع الخفي لإخضاع إسرائيل للمرة الأولى في تاريخها للمشيئة الاميركية، بطريقة مختلفة تتحكم فيها طبيعة العلاقة التاريخية بين أميركا وإسرائيل والنفوذ اليهودي ـ الصهيوني الضخم داخل

الولايات المتحدة. لقد استخدمت أميركا إسرائيل لضرب المركز العربي وتفتيته، ثم استخدمت العراق لضرب إيران، ثم استخدمت اسرائيل وهي تضرب العراق. وقد جاء دور إسرائيل الآن. فلقد كان من النتائج الأعظم أهمية لهذه الحرب أن الغرب لم يعد بحاجة ماسة لإسرائيل للسيطرة على العرب، أولاً لأن العرب الآن يستجدون من الغرب أن يسيطر عليهم مباشرة، وثانياً لأن الغرب لم يعد بحاجة الى اقنعة يتستر وراءها للهيمنة على المنطقة او إلى قوة تلعب دور الوسيط لتحقيق أهدافه في الهيمنة والإستغلال الاقتصادي وتأمين أسواق استهلاكية عربية دائمة الحاجات متجددتها لشركاته وبضائعه وأسلحته. فلقد انتهك الغرب محرَّماً (تابو) قديماً نسبياً في علاقته مع العرب ـ هو الغزو المباشر لأراضيهم ـ وأظهر قدرته على التدخل الفوري المباشر بقواه العسكرية دون أن تكون لذلك عواقب وخيمة (وهو أمر كان يتخوف منه الغرب فكشفت حرب الخليج الآن أن تخوفه لم يكن له ما يبرره) ولم يعد بحاجة الى القناع الإسرائيلي ليضرب بأسلحته المرعبة أي حركة لا ترضيه في المنطقة العربية. بكلمات أخرى ـ وبضم الهمزة وفتحها ـ لقد نزع الغرب عن عورته المغوية لكثير من العرب ورقة التين (أو التوت، وذلك مما لم يتفق حوله فقهاء الأمة التي كانت خير أمة أخرجت للناس ـ على خلاف أيضاً حول معنى أخرجت، إذ إن للخروج والإخراج في هذه اللغة المقدسة معاني كثيرة بعضها مما يخفى على أفهام غير الضالعين في العلم). وبهذا المعنى، فإن الأنظمة العربية الراهنة تفوقت تفوقاً مذهلاً على أنور السادات وحققت ما استشهد وفي روحه حسرة أنه لم يحقق: وذلك هو إلغاء أهمية الوسيط الإسرائيلي في إخضاع العرب للغرب وضمان استمرار تدفق مواردهم النفطية والمالية الى أهواء الغرب النهمة. وستكون لذلك كله نتائجه الإيجابية بالنسبة للعرب، فإن الغرب سيكون أعظم قدرة على إغراء

إسرائيل بتقديم بعض الهبات القيمة للفلسطينيين خاصة، كالسماح لهم بأن يقولوا علناً إنهم فلسطينيون وبانتخاب رؤساء مديريات تنظيف الشوارع والأزقة والمخيمات من المخلفات - وخصوصاً تلك التي خلفتها وراءها الإنتفاضة العظيمة التي خذلتها الأنظمة كلها بصورة او بأخرى - كما سيكون الغرب أكثر قدرة على إقناع إسرائيل بأن تلقي عن كاهلها أعباء حماية نفسها عسكرياً بالأسلحة التي يقدمها لها وترك هذه المهمة علناً له، فيما تتفرغ هي لأعمال بنّاءة مثل إيجاد الأراضي الملائمة لاستيعاب الملايين من المهاجرين اليهود السوفييت وغير السوفييت في زمن البركة والأمان الأميركي المبارك الجديد. وسيكون ذلك كله جزءاً من المخطط الأميركي لخلق ما يسميه «البنية الأمنية الجديدة» و«النظام العالمي الجديد» اللذين خاض الاميركيون الحرب لفرضهما لا على العرب فقط بل على الاتحاد السوفييتي المنحسر أيضاً، في تحرك استراتيجي كاسح، غرضه ترسيخ الحقيقة الباهرة الجديدة في أذهان السوفييت والعالم، وهي حقيقة أن العالم الجديد عالم أميركي خالص لم يعد استقطابياً تسوده قوتان، بل أصبح وحيد الطرف تماماً تسوده القوة الأميركية. إن أميركا اليوم تغدق على إسرائيل الأموال والوعود بمزيد منها، وتمنحها صواريخ الـ «باتريوت» المضادة للصواريخ لا من أجل أن تكبح الجماح وتحجم عن دخول الحرب خشية أن تغضب الأنظمة العربية المتحالفة معها ضد العراق وتغير مواقفها، (فأميركا قادرة على ضمان بقاء هذه الأنظمة داخل التحالف بمائة وسيلة ووسيلة) بل من أجل أن تضمن بقاء الدور الإسرائيلي هامشياً وتابعاً لدورها هي في رسم مخطط المنطقة العربية بعد انتهاء الحرب بطريقة تضمن لأميركا مصالحها ووجودها العسكري الفعلي في المنطقة وقدرتها على تحجيم الدور الإسرائيلي بما يتلاءم مع اختياراتها الجديدة في صورة العالم

المبتكرة التي تسعى الى رسمها. وستكون أميركا بذلك قادرة على التحكم بالدور الاسرائيلي وتثمينه ودفع مقابل رابح له، بدلاً من أن تظل عرضة دائماً للابتزاز الإسرائيلي المستند الى المبالغة في قيمة الخدمات التي تقدمها اسرائيل لأميركا وتحديد حجم المقابل المادي لها في شكليه: المالي العيني، والتسليح المتفوق الدائم.

٣

بلى، كان لا بد له أن ينتهي، فتنتهي معه أشياء وأشياء. ينتهي معه، مثلاً، «العصر السعودي» الذي بدأ بعد الإنقلاب النفطي في مطلع السبعينات، والذي نشهد الآن ذروة مآسيه ومنحنى سقوطه الى الهاوية. لقد انكشفت السعودية فإذا هي قِطٌ ورقي يهرع للاستغاثة حتى بالكفّار ويشتري بقاءه بأبهظ الأثمان. لن تستطيع السعودية بعد اليوم أن تمارس دوراً سياسياً مهيمناً عن طريق الإغواء بالمال أو حجبه، أو عن طريق التيارات الدينية التي شجعتها ومولتها من قبل. فلقد أفلست السعودية دينياً في نظر القوى المسيسة ضمن التيارات الدينية. كذلك أفلست السعودية على صعيد القوة السياسية لثروتها الضخمة؛ إنها بعد الآن ستدفع للسوريين والمصريين وغيرهم لكن دفع مدين لدائن وضعيف لقوي ومحمي لحاميه، لادفع مقتدر مسيطر لمولى من مواليه وتابع من أتباعه.

٤

وكان لا بد لعصر الدكتاتوريات العظمى في الوطن العربي أن ينتهي. لأن الدكتاتوريات العظمى أظهرت بجلاء ناصع للمرة العاشرة على الأقل، لكن ببلاغة ومأساوية أعظم هذه المرة، أنها مهما أنجزت تظل معرضة للكوارث وتبقى أشد هشاشة من أن تحقق ما تدعي أنها قادرة على تحقيقه، وما باسم السعي

لتحقيقه تقيم أنظمة الحكم القمعية وتمارس خنق الحريات وتمنع كل أشكال النشاط السياسي التي لا تكون خاضعة لها وتابعة تبعية مطلقة لمشيئتها (فيما يكشف التاريخ أن تحقيقه مرهون بإرادة شعب حر مناضل متلاحم عضوياً مع مؤسسات حكم تنبع منه ويمارسها هو بحرية ومسؤولية واعيتين كاملتين).

وكان لا بد للفكر النبوئي الكلياتي المغامر أن يصطدم بجدران محدوديته ويتقصف منهاراً على أشلائه. وكان لا بد لأسطورة المهدي المنتظر، التي ارتبطت جذرياً بعصر الدكتاتوريات العظمى، وبالفكر النبوئي الكلياتي المغامر، أن تحتضر وتنهار. وفي عملية انهيارها كان لا بد لحشرجات احتضارها أن تكون هديراً كهدير البراكين، فيه عظمته وارهابه، وفيه أيضاً جوفائيته وسرعة انفجاره وهموده. أما الدكتاتوريات الصغرى، دكتاتوريات حكم الأسرة والعشيرة، فلقد كانت هشاشتها واحتمالات سقوطها دائماً جلية للعيان، ولم تكن تنتظر سوى تخلي حماتها الخارجيين عنها لتنهار، ولقد أتى زمنها الآن وبدأ العد التنازلي لانفراطها. وسيلعب حماتها دوراً في إضعافها في محاولة لإطالة زمن بقائها عن طريق خلق صمامات أمان لها بإقناعها بالتخفيف من شدة قبضها على الحكم، وزيادة فتات الثروة الموزع على الناس وإفساح المجال لما سيسمونه المشاركة الشعبية ومجالس الشورى والإستشارة والأمة، وما هي سوى تمويهات وتعميات لن تكون كبيرة الجدوى ولن تنقذ الأنظمة التي ستبتكرها من الانقراض، بل ستطيل عملية انقراضها وتؤجل حتفها قليلاً في أفضل الأحوال.

٥

كان لا بد للزمن العربي الرديء، زمن المخاض والإجهاض، زمن الثورة والحلم، والجبروت والدم، والانحلال الروحي

والأخلاقي والقيمي، زمن النفط والثروة التي لم تتعب في اكتسابها الزنود، ولم تكن حصيلة تطور اجتماعي أو علمي أو اقتصادي نابع من التربة، عضوي، تاريخي، الأصول والفروع، بل جاءت هبة مفاجئة منّت بها الأرض على أيدي الآخرين، أن يصطدم بتحديات العصر والتقدم الحقيقي وهو لا يملك من الأسلحة غير أوهام التقدم التي ولدتها الثروة الطفيلية، فيتداعى ويتقصف وينهار بضجيج هائل ومأساوية مرعبة.

أما كبرى النهايات، وأعظمها فجائعية وبلاغة تأثير في الحاضر الراهن والمستقبل المنظور، فإنها أم النهايات التي تمخضت عنها أم المعارك: وتلك هي نهاية أسطورة القبيلة الواحدة. وليست نهاية أسطورة القبيلة مفاجأة كبرى إلا للذين كانت تضرب الأهواء على قلوبهم بالأسداد وعلى أبصارهم برفض مواجهة الحقيقة المرة؛ وبين هؤلاء كاتب هذه السطور. فلقد بدأت أسطورة القبيلة الواحدة بالانهيار والاندثار منذ زمن بعيد، لتحل محلها أساطير أخرى سيكشف الزمن أيضاً جوفائيتها ووهميتها: بينها أسطورة القومية المحلية او القطرية، وبينها أيضاً أسطورة الأمة الإسلامية الواحدة من المحيطات الى المطيحات. وكان الذين يبصرون منذ زمن قد رأوا بأسى يفتت حبات القلوب تشظي أسطورة القبيلة الواحدة، وقد كتبت شخصياً أكثر من مرة خلال السنوات الماضية عما أسميته «موت القبيلة» الذي تجلى في ألف طعنة سابقة وشرخ منذ أيام التآمر على جمال عبد الناصر واغتياله الفعلي، وضرب الثورة اليمنية، الى تمزيق لبنان وضرب الثورة الفلسطينية، الى دعم إيران ضد العراق، والى ضرب سوريا في لبنان، وأصلاً ذروة من ذراه في سلام السادات مع إسرائيل وانقلابه نمراً يمزق كل ما هو عربي ويقدم أجساد العرب قرابين لآلهة بني إسرائيل. أما

الذروة العليا لموت القبيلة، فقد تجلت ناصعة حتى لعين الأعمى في توجيه الطـاقات العظمى الى تـدمير الكـويت وفي الصواريـخ المـوجهة في الليلـة الليـلاء الـواحـدة لضرب كـل من تـل أبيب والرياض بـالتساوي والقسطـاس الذي أوصى بـه المؤمنين رب العالمين، من جهة، وفي إغداق ثروات القبيلة الطائلة، التي ابتلى بها الله المؤمنين، على أعـداء الأمة من أجـل أن يجربـوا أشد أسلحتهم فتكاً وبهراً تكنولوجياً في احتفالية مهيبة لتدمير كل ما بذل العراق نور عيون أبنائه ودماء عروقهم لبنائه على مدى عقد كـامل من الجهـد والضنى والتخطيط والتضـحيـات والصمـود الحقيقي. إن موت القبيلة التي زعمت لقرون طويلـة أنها قبيلـة واحدة اسمـها «بنو يعرب» لحقيقـة نهائيـة وفاجعـة من حقائق عصر النهايات. وحتى لو عادت القبيلـة في مستقبل قـريب لعقد مؤتمرات قمتها وقمامتها وتبـويس اللحى والإحتفالات البـاهرة بأمسيات الإفطار الرمضانية ليلة في بغداد وأخـرى في القاهـرة وثالثة في دمشق ورابعة في الدوحـة وثامنـة وعشرين في الكويت المحررة بآلاف أطنان القنابل الأميركية وفوق مئات آلاف الجثث العراقية المحتـرقة في صحـارى النفط وأسواق البصرة وبغـداد وفالوجة، فلن يصدق أحد ـ حتى المغفلون أمثالي الذين صدقوا لـزمن طويـل، وكان وهمهم ضـوء أيامهم والـدافـع المحـرك في متاهات حيواتهم ـ دعاواهـا الفارغـة وشعارات الـدم والقربى والدين واللغة والتاريخ الواحد التي قد ترفعها بطونها المتناحرة للتمـويه أو الكسب أو التجـارة أو التقية أو ألف سبب وسبب، كلهـا زائفة منـافقة انتهـازية تـاجرت بهـا العشـائـر والقـادة والأحزاب والأقطار والعواصم ما استطاعت لأزمنة طـويلة، الى أن ابتلاهم الله بكشف سرائرهم وضرائرهم وأظهر أن تجارتهم ما ربحت بل كانوا بئس الخاسرين.

٦

وبين ما يكشفه لنا الحاضر أيضاً نهاية عصر التدجين العربي، عصر الإنغماس المتهتك في حمأة قيم المجتمع الاستهلاكي الذي لا تدعم الإنسان فيه قيم سامية تخفف من وطأة الأخلاق الاستهلاكية، بكل ما فيها من جشع وشراسة وانتهازية تسخر كلها لتحقيق المكاسب الفردية على حساب كل شيء، بما في ذلك المصلحة الجماعية والوطنية والوعي الاجتماعي والوجود القومي، متجسدة في أبشع صورها في عقلية تجار العقارات وسماسرة العمولات والعمالات وشركاء الحكام في التهريب والتعهدات والاستثمارات وتجار الأسلحة والمخدرات والستات.

إن ما نراه الآن من غليان شعبي في كل مكان من الوطن العربي، ليسن فقط غلياناً للشعور القومي أو الديني في مواجهة الغزو الخارجي، بل إنه في الصميم غليان نفوس طال عليها زمن الحرمان والفقر والظلم الإجتماعي لترف الطبقات النفطية الزهراء، كما طال عليها زمن القمع الجهنمي الذي فرضه عليها حكام طغاة وأجهزة مخابرات وسحق شرسة لا ترحم ـ وقد خضعت هذه النفوس لهذا الطغيان سنين طوالا في عصر النفط الذي دمر الكثير مما هو نبيل مناضل في أعماقها لألف سبب وسبب، بين أهمها التبلد والرعب وضمور الوعي، إضافة الى أنها لم تكن تجد القضية الجذرية الحقيقية التي تستطيع أن تبلور معارضتها حولها، إذ تم في هذا الزمن الأسود أيضاً لا تدجين القضية الإجتماعية وقضية الحرية والعدالة وحسب، بل تدجين القضايا القومية الكبرى، وبشكل خاص القضية الفلسطينية، وإدراجها في سياق العصر الأميركي وإخضاعها لمتطلباته، ففقدت الكثير من سحرها الثوري الخلاب الذي كان يجذب الناس للالتفاف حولها ولاتخاذها محرقاً لبلورة النزوع الثوري وروح المعارضة والتمرد. وإن ذلك ليفسر الى حد بعيد

الصمت المخزي إزاء الإنتفاضة الفلسطينية العظيمة لزمن طويل، ثم تأجج المشاعر والمواقف الآن بإزاء القضية الفلسطينية والإنتفاضة نفسها. ولعل أفضل نموذج لما أشير اليه أن يكون الانقلاب الجذري في التركيبة السياسية في الأردن ووقوف النظام نفسه الآن موقف الرافض المعارض للهيمنة الاميركية في صف واحد مع الجماهير التي تتأجج في أعماقها هذه الروح الرافضة المعارضة.

غير أن نهاية عصر التدجين العربي لن تكون بركة خالصة، إذ إنها تطلق من عقال الأسر والكبت قوى عديدة متناقضة ومتناحرة تتفاوت درجات قوتها وصدق تعبيرها عن هواجس المجتمع وتطلعاته الحقيقية وطموحاته. وقد تكون أكثر التطورات المحتملة على هذا الصعيد خطورة تصاعد مد التيارات التي تتخذ من الدين ستاراً لها - وأنا أفرق هنا بشدة بين التيارات الدينية الأصيلة التي تمتلك رؤيا للإنسان والمجتمع والتغيير الحضاري تستند الى الدين وتأخذ بالمبادىء البناءة المشرقة في التصور الديني للتنظيم الإجتماعي، وتمتلك في الوقت نفسه رؤية حضارية متفتحة - وتندرج بذلك كله في مسار القوى الباحثة بوعي ثوري ناضج عن مستقبل أفضل لهذه الأمة - وبين التنظيمات السياسية التي تتخذ من الشعور الديني وسيلة تستغلها لإثارة أنماط من الغوغائية السياسية تصبح مطية تكتيكية مفيدة لها في السعي الى تسلم السلطة. وفي تقديري أن هذا النمط الأخير لا يقل في جوفائيته وخطورته على مسار التطور والتقدم والتغيير عن الغوغائية التي استندت الى استفزاز الشعور القومي بشكله الخام دون أن يعطى محتوى حضارياً ناضجاً أو يؤطر في صيغة تنظيمية تمتلك مقومات النضال القابل لكسب معاركه والواعي لإمكانياته وإمكانيات أعداء نضاله وعياً دقيقاً شاملاً، والتي انتهت بنا الى

إحباطات متوالية وكوارث واضحة. إن الخطر الحقيقي الذي تثيره الآن همجية الغرب في هجومه الوحشي على الوطن العربي يتمثل، جزئياً على الأقل، في أن بين نتائجه المحتملة تصعيد النمط السلبي من التيارات الدينية الذي أشير إليه وخلق الفرصة له للطغيان على الساحة السياسية. ولو كان المردود الفعلي لانفجار مثل هذه المشاعر والتيارات دعماً حقيقياً ملموساً وفعالاً في المعركة ضد هيمنة الغرب وطغيانه، وضد الهيمنة الإسرائيلية، لكان حدوثه إحدى النتائج الإيجابية المعوضة عن الدمار الذي ينزله الغرب بالمنطقة العربية؛ غير أن المرء لا يستطيع إلا أن يتساءل عما أجدى العراق استنفاره للمشاعر الدينية على صعيد الفعل الحقيقي وبعيداً عن الهيجانات الانفعالية الخالصة والشعارات الشوارعية التي طالما احتشدت بها المنطقة العربية في ظروف مماثلة ولم تؤد الى فعل مقاومة حقيقي عميق التأثير في خريطة الصراعات الدائرة.

٧

وينتهي، مع كل ما ينتهى، زمن التحالف العربي الأعظم الذي لم يكن تحالفاً قومياً أو تعاوناً على البر والتقوى بل كان، تحت الرايات الخفاقة لعصر النفط الأسود - والصفة هنا للعصر لا للنفط - تحالفاً على الصمت والقبول والإذعان والإقرار بالعجز واستجداء الغرب، على الصعيد الدولي، وتكاتفاً كتكاتف البنيان المرصوص ضد الوعي النقدي والفكر النيّر والتمرد الثوري والانخراط في قضايا المجتمع وهمومه وحق الانسان في التفكير والتعبير والبحث عن مستقبل أفضل لأمته ومجتمعه، وتعاوناً وثيقاً على القمع والإرهاب والاضطهاد وخنق الحريات، على الصعيد الداخلي، في زمن لم ينجز فيه العرب إلا أمراً واحداً باهراً هو إتحاد وزراء الداخلية العرب وأجهزة الأمن العربية في الجهاد المقدس الوحيد الذي خاضه العرب كأمة واحدة ذات

رسالة خالدة وكمؤمنين يتعلقون بالعروة الوثقى أشد تعلق، وهو الجهاد الذي كان هدفه السامي خنق الحرية والمعارضة والنقد والتساؤل والوعي ـ ولقد حقق الجهاد المقدس العربي هدفه العظيم بإتقان وشمولية وجذرية يحسد الأنظمة العربية الماجدة عليها أشد أعداء العرب إنكاراً لمواهبهم وألدّ أصدقائهم وأكثرهم إعجاباً بكفاءاتهم في آن واحد.

٨

في الوقت نفسه تسقط أسطورة اسمها الغرب وتنكشف خرافة المحتوى الأخلاقي والقيمي لحوت كبير اسمه الحضارة الغربية. لقد كشف الغرب لمرة أخيرة أنه أجوف أخلاقياً وقيمياً وأن المحركات الفاعلة في حياته هي شهوة الهيمنة والإستغلال وشره المال وقوانين القوة. حين كان الناس يعتقدون أن العراق قادر على إنزال الضرر بهم كانوا ضد الحرب، ولكن حين رأوا قدرة العراق على الأذى تنهار انقلبوا وحوشاً ضارية لا يلذ لها شيء كما يلذ لها طعم الدم المسفوح ومنظر الدمار والخراب (ولا يستثنى من هذا الكلام إلا فئات قليلة ما تزال تملك من الضمير والقيم الأخلاقية ما يجعلها تقف معارضة للسياسات التي اتخذتها بلدانها في حرب الخليج. ومثل هذه الفئات هي الضمير الحي الباقي للحضارة الغربية). قال طيار أميركي إنه لم ير في حياته شيئاً مثل منظر الجيش العراقي وهم يقصفونه من الجو بآلاف القنابل وهو أعزل دون حماية جوية، وعبر عن ذلك بهذه الصورة التي تكشف وحشية التلذذ بالقتل: «لقد كان ما قمنا به أعظم مشهد لاصطياد الديكة الرومية في التاريخ». كما عبر آخر عن مشهد ليل بغداد حين بدأ القصف الجوي الأعظم في التاريخ لها بقوله إنه لم يشهد مثيلاً لذلك في حياته سوى مرة واحدة ليلة مهرجان الإحتفال بالرابع من تموز في مدينة أميركية.

لم يحرك الغرب ساكنا حين احتلت اسرائيل الأراضي العربية وقصفت العرب بالنابالم وكل أسلحة الدمار التي تملكها. ولم يحرك الغرب ساكنا حين قصفت إسرائيل بيروت قصفها الوحشي؛ بل إن الغرب لم يحرك ساكنا حين قال إن العراق استخدم الأسلحة الكيماوية ضد الإيرانيين والأكراد، فلقد كان من مصلحته يومها أن يدعم العراق ضد إيران. لكن الغرب شن حرباً مدمرة بقواته الهائلة ضد بلد صغير لا يملك وسيلة للدفاع عن نفسه أمام جبروت الغرب وأسلحته التي تمثل ذروة ما وصل إليه التطور التكنولوجي لوسائل التدمير الجهنمية في العالم. ولقد فعل الغرب ذلك بتبجح واعتزاز واستعراضية وغرور وعنهجية لا أعرف مثيلاً لها في أكثر خرافات التاريخ جلافة وبدائية ووحشية - إن منظر قائد القوات الاميركية وهو يستعرض أمام مراسلي وسائل الإعلام العالمية ما يعتبره عظمة القصف التكنولوجي للعراق، ليبيّن اكثر ما يمكن أن يراه المرء تجسيداً للانحلال الأخلاقي وجوفائية القوة - ولقد أظهر الغرب أنه يفتقر حتى الى الاعتزاز الإنساني العادي بقيم الشجاعة والبطولة الحقيقية. فأي معنى للشجاعة وكرامة المقاتل في أن يمتلك الغرب كل هذه الأسلحة المدمرة ويتغنى بأنه حقق سيادة في الجو ضد بلد كالعراق أفضل ما يملكه من أسلحة مستورد من الغرب أصلاً ومصنف في الدرجة الثالثة من الجودة، ثم يمضي في تدمير المدن والطرق وشبكات المياه والكهرباء وقصف المدنيين وجيش أعزل مكشوف في صحارى واسعة؟

٩

لقد شنّ الغرب التاجر حربه لا من أجل إنقاذ الكويت بل للحفاظ على هيمنته السياسية والاقتصادية أولاً، ولأنه يواجه أزمات اقتصادية حادة، ثانياً. هذه إحدى الحقائق الاساسية التي تجلوها حرب التدمير التي يشنها الغرب لا ضد العراق

فقط بل ضد الكويت ايضاً. والغرب يجرب اسلحة دماره ويستعرضها بتبجح طاووسي ماجن، لأنها ذات الأسلحة التي سيدفعنا الى انفاق المليارات لشرائها في المستقبل القريب بحجة أنها ضرورية لحمايتنا ضد بعضنا البعض. والأسلحة الوحيدة التي لن يبيعنا إياها ستكون تلك التي قد تعرّض أمان إسرائيل للخطر. أما هو فسيقوم بأموالنا بتطوير أجيال وأنواع جديدة من الأسلحة خاصة به أشد قدرة على الفتك والتدمير، وسيقدم أسلحته الجديدة هذه لإسرائيل فقط لتظل قادرة على فرض هيمنتها علينا. نحن سنكون الزبائن كما نحن أيضاً ممولو التدمير. بغاء الغرب في تلاؤم توأمي مع غباء العرب لإنجاز الغرض نفسه: ترسيخ الضعف والتبعية العربية للغرب وإبقائنا زمرة من المحميات التي تنزف أموالها على أقدامه لحمايتها ضد نفسها.

الغرب التاجر يقرر بدجل لا شبيه له في الذاكرة أن يدمر بلداً بأكمله من أجل أشياء عدة بين أهمها أمران: ١ ـ إنعاش صناعاته الحربية بعد أن بدأ انتهاء الحرب الباردة يسبب لها الكساد. ٢ ـ إنعاش شركاته التي ستلعب وحدها دور الباني بعد أن تكمل جيوشه تدمير كلا العراق والكويت وقسم كبير من عمران الخليج، خصوصاً على مستوى البيئة. وأغبياء العرب يوفرون له الفرصة لتحقيق كل أغراضه بعشائريتهم وأنظمة حكمهم الدكتاتورية والعائلية المتخلفة.

بين أقبح ما رآه المرء خلال حرب الدمار هذه وأشده فسوقاً وكلبية ودلالة على الإنهيار الأخلاقي للغرب شيئان: ١ ـ التنافس التباطحي بين الجيوش الغربية كل يوم في إبراز الإتقان الفائق لأسلحتها التكنولوجية في تدمير الأهداف التي توجه اليها عن طريق أشعة الليزر وكاميرات الفيديو وأساليب التوجيه المتعددة. ٢ ـ التنافس الكلبي على موارد الرزق التي

ستفيض من جراء إعادة تعمير الكويت خاصة حتى قبل أن تنتهي الحرب. وقد بلغ المشهد ذروة بشاعته حين بدأت حملة النعي والنواح في بريطانيا بدعوى أن الشركات الأميركية سبقت البريطانية لالتهام عقود إعمار الكويت وثمراته المقدرة بمائة مليار دولار. وكان مما أثار شعور المرء بالتقزز منظر وزير الخارجية البريطاني مصطحباً معه للقاء أمير الكويت كوكبة من رجال الأعمال والشركات البريطانية لاستجداء عقود العمل، والحرب لما تدخل اسبوعها الثالث بعد. كما أثار شعور المرء بالتقزز الجدل الشره الذي دار، حتى في بعض البرلمانات الأوروبية، والحرب ما تزال في بدايتها حول تقسيم الغنائم العربية وحصة كل من الدول المتحالفة من عائدات البناء والتعمير وتنظيف البيئة (والتسليح؟) وسط إلحاح الغزاة الكبار على أن يكون لهم نصيب الأسد وأن تحرم الدول التي لم تمارس الغزو مباشرة، مثل المانيا واليابان، ليتلاءم السلب مع الجهود التي بذلتها كل دولة في التدمير والقتل. لقد كشف الغرب وجهه التاجر، فإذا هو تنين فاجر، ووحش نهم كاسر.

في الوقت نفسه كشف الغرب أن ما يعتبره تراثاً ديمقراطياً مقدساً ليس إلا بقرة حلوبا ودمية لعوباً يستخدمها الغرب كما يستخدم كل قيمة أخرى ـ وبضم الهمزة وفتحها هنا أيضاً ـ لممارسة نفوذه وهيمنته واستغلاله الجشع للعالم ـ في السياسة الدولية كما في شؤونه الداخلية. لقد حصلت أميركا على دعم الآخرين في الأمم المتحدة وخارجها لا بالأساليب الديمقراطية، بل بالقسر والإغواء والترهيب والترغيب، فقد اشترت حلفاء لها من العرب وغير العرب بالمليارات، وابتزت مليارات من آخرين بالتهديدات، واستخدمت بركة مجلس الأمن حين لاءمها ذلك، وقذفت به الى بركة قاذورات حين لاءمها ذلك. أما داخلياً فقد كشفت ديمقراطية الغرب عوراتها التي نهشها الإيدز والزهري

باضطهاد المعارضين للحرب من الغربيين وغيرهم. وكانت لغة المسالخ والقاذورات التي استخدمتها بعض الصحف البريطانية، مثلاً، في هجومها حتى على أعضاء البرلمان - بل ورئيس الوزراء الأسبق إدوارد هيث - من الهمجية والسفالة بحيث أن لغة التخوين والشتائم التي طالما كنا قد قرّعنا أنفسنا لشيوعها في الأوساط العربية بدت بالمقارنة مثل لغة راهبات القلبين الأقدسين أو شيوخ الطرق الصوفية نظافة وطهارة وقبولاً للرأي الآخر والخلاف المتسامح الحنون. وفي مائة مجال آخر - بما في ذلك الكذب والتدجيل حول أهداف الحرب وقتل المدنيين وتحقيق أقصى درجات الدقة في القصف ورسم مستقبل المنطقة العربية كلها بعد انتهاء الحرب - كشف الغرب عن جوفائية «تقاليد الحرية والديمقراطية» التي باسمها وبالمتاجرة بها جر الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية الى حافة الهاوية وقذف بالوطن العربي الى مهاوي الدمار والتهلكة.

١٠

قلت إنه عصر النهايات، العصر الذي كان لا بد له أن ينتهي. وإنه ليفعل الآن. وإنه لينتهي بهدير وضجيج هائلين، كما هو لائق به، هذا العصر الجهنمي الذي أهرق شبابنا في بحار خيباته، وسواد أحزانه ومآسيه، وأهرق حيوية الوطن وطاقات إبداعه في سجون حكامه او معاصر أعدائه سواسية وبقدر واحد من الرعب والظلم والاستغلال والبشاعة.

غير أنه حتى في أفوله يظل مخادعاً، مزيفاً، مموهاً - تماماً كما كان في أوج طغيانه وزهوه. فهو لا يفصح عن أفوله ونهاياته كلها بالقدر نفسه من الوضوح، بل إنه ليموه بعض نهاياته ليجعلها خداعة توهم بأنها ليست نهايات بل بدايات او ذرى تصاعد وسمو.

وبين هذه النهايات التي يموهها بمظهر الذرى الخداع أشياء خمسة ستكون ذات آثار عظيمة على المستقبل والمصير:

■ أولاً

فأيا كانت المظاهر الراهنة، فإن هذا العصر هو نهاية العصر الرأسمالي الأميركي وحلم الأمبراطورية الأميركية الأولى، في الوقت الذى تبدو فيه أميركا في ذروة تجلي قوتها التكنولوجية المخيفة.

وأيا كانت المظاهر أيضاً، فإن هذا العصر هو نهاية عصر الأمان الاسرائيلي المطلق وبداية تضعضع القلعة الاسرائيلية الحصينة، في الوقت الذي تبدو فيه في ذروة مناعتها. إن الدرس الذي علمتنا إياه الحرب هو هشاشة مفهوم الأمن الإسرائيلي القائم على احتلال الأرض العربية واستحالة أن ترد اسرائيل عن نفسها خطر السلاح العربي المتطور تكنولوجياً. وقد كان هرع أميركا لتزويد إسرائيل بصواريخ الـ «باتريوت» إقراراً بالغ الخطورة بهشاشة الأمن الإسرائيلي من جهتين: ١ ـ عجز ما كانت تتبجح اسرائيل به كقوة رادعة تضمن أمنها. ٢ ـ عجز حتى أحدث ما في الجعبة الأميركية نفسها عن حماية إسرائيل. فلقد استمرت الصواريخ العراقية في النفاذ والهطول على اسرائيل، رغم أنها ليست أكثر الوسائل العسكرية تقدماً تكنولوجيا. ورغم الستارة المموهة التي نصبها الغرب واسرائيل فوق عدم رد اسرائيل على الضربات العراقية، ووصف ذلك كله بأنه ضبط للنفس تستحق اسرائيل عليه الحمد والثناء ومليارات الدولارات والأسلحة المتطورة، فإن الدلالة الحقيقية لصمت اسرائيل هي أنها أدركت أنه ليس في وسعها او في جعبتها ما يستطيع أن يوقف الضربات العراقية او يفوق قدرة الغرب على التدمير. فلعبت لعبة فضيلة ضبط النفس لكي تقبض ثمناً هائلاً لما هو في الحقيقة عجز مقنع بالقوة الصبور،

ولكي لا تكشف محدودية وسائلها فتنتشر موجة من الرعب الحقيقي بين سكانها إذ يدركون أخيراً أن الأمن المطلق الذي عاشوا في ظلاله حتى ما قبل الحرب قد تصدع الى الأبد.

■ ثانياً

ورغم كل المظاهر، ورغم التشظي والتفتت العربي، فإن ما تكشفه الحرب الدائرة الآن حقيقة باهرة: هي أن العرب، من حيث الطاقة الكامنة، يشكلون الآن قوة عظمى عسكرياً، وإن لم يكونوا كذلك سياسياً. إن بروز دولة عربية واحدة هي العراق كقوة عسكرية كبرى استطاعت أن تواجه الآلة العسكرية الجهنمية للغرب بكل ثقلها وطاقاتها التدميرية لأسابيع عديدة، والعراق ليس إلا جزءاً صغيراً من مجموع الامكانيات العربية، ليعني بوضوح أن العرب من حيث الطاقة هم قوة عظمى. فإذا جاء مستقبل أدركوا فيه هذه الحقيقة واستطاعوا أن يوحدوا قواهم فإنهم سيكونون في القرن القادم إحدى القوى العظمى في الواقع لا من حيث الطاقة وحسب. وقد يأتي يوم يلعب فيه هذا الإدراك دوراً بالغ الأهمية في إعادة الحياة والحيوية لدوافع الوحدة، لا من حيث هي تعبير إيديولوجي ومشكلة هوية قومية، بل من حيث هيَ ضرورة ومصلحة حقيقيتان.

■ ثالثاً

ورغم كل المظاهر أيضاً، فإن العصر الذي تبتكره الحرب الآن سيكون عصر تصعيد الصراع الاجتماعي والطبقي وطرح مفاهيم العدالة وتوزيع الثروة ضمن البلدان العربية، من جهة، وضمن المجتمعات القطرية من جهة أخرى. ذلك أن الزمن الآتي سيشهد الترسب الجديد للانقسامات الطبقية، بعد الخلخلة والانزياح الهائلين اللذين أدى اليهما كل ما حدث وسيحدث على صعيد انتقال القوى العاملة والتهجير وعمليات

إعادة التعمير القادمة وتبلور مفاهيم الظلم وفقدان العدالة في توزيع الثروة، وبعد موجات البطالة والفقر واضطراب أسواق اليد العاملة الخ. وهي انقسامات كان عصر النفط الأسود قد موّهها وخلخلها وأفرغها من محتواها الإجتماعي وألبسها أقنعة زائفة.

■ رابعاً

وأخيراً، ورغم كل المظاهر الخارجية، فإن العصر القادم سيكون عصر استعادة المركز التاريخي للحياة العربية ومشروع المستقبل النهضوي لمكانة الصدارة والفاعلية التي كان الغرب قد ساعد على زحزحته منها ليموضع فيها الهامش ودول الأطراف، كحلقة في مشروعه للسيطرة على مقومات الحياة العربية وموارد الوطن الأولية والإقتصادية وميزاته الاستراتيجية. (وإذ أكتب هذا الكلام فإنني لا أضمنه إطلاقاً مباركة للاحتلال العراقي للكويت ولتضحية العراق بكل ما بناه خلال سنوات من الجهد الجبار في معركة ليست هي المعركة الحقيقية للأمة، وفي عدوان ضد بلد عربي وتشريد أهله. وقد كنت منذ البدء أحد أولئك الذين سعوا الى بلورة صوت ثالث يصدر عن الهم القومي الخالص، موقف يرفض الإحتلال العراقي للكويت ويرفض دون هوادة الغزو الأميركي المقنع بتحرير الكويت وحماية السعودية والهادف في حقيقة الأمر الى تدمير العراق واحتلال المنطقة العربية عسكرياً ورسم خريطة جديدة لها تنسجم مع الهيمنة الأميركية الصاعدة وتضمن لإسرائيل مصالحها وهيمنتها الدائمة). إن الهامش الآن ينكشف عن حقيقته: وهي أنه هامش لا تقوم له قائمة إلا كمحميات لهذه القوة او تلك، ولا تجديه طاقاته المالية الضخمة إلا في تسديد فواتير الحماية التي لا بد أن يدفعها لمرتزقة من هنا او هناك لحماية نظمه وعروشه وأسره الحاكمة. وسيمضي

الهامش، حتى بعد حربه التي يظن أنه ربحها، يدفع فواتير الحماية، إما للأسياد الذين حموه الآن أو لأسياد أقل جبروتاً يعملون ضمن المخطط الأميركي الآخذ بالتبلور والذي يسميه الغرب «البنية الأمنية الجديدة لعصر ما بعد الحرب» تمويهاً وخداعاً، لأن المخطط رسم بدقة قبل الحرب بزمن طويل، ومن أجل تنفيذه قامت الحرب. بكلمات أخرى: لم تنتج الحرب المخطط، بل أنتج المخطط الحرب. والمستقبل آت ليجلو الحقيقة التي يغرقونها الآن في خضم من التدجيل والشعارات والمبادىء الأخلاقية ويزوّرونها لحساب مصالحهم المقنّعة. وقد مكروا ومكر ربك أعظم وأدهى. فلينتظر المؤمنون.



كمال ابو ديب

صرخة في متاه

لا نستطيع إلا أن نكون مـع الوطن. والـوطن في هذه الحرب ليس حـاكماً أو نظـاماً أو حـزباً أو بقعة جغرافية أحاطوها بالأسوار وقالوا لهـا دولة. الـوطن ليس ديناً يلبسه اللابسون قبعة يتموهـون بها، أو حليـة يغطون بهـا رؤوسهم المتطوطحة. والوطن ليس مزرعـة لسلطان، أو دجـاجة سحرية تبيض بيضها الذهبي لآل فـلان وفليان. والـوطن ليس سلسلة أنساب وحلقـة بيوتـات وعشائـر، والوطن ليس صهـوة ذلولاً يمتطيها كل طامع مغامر.

قد يكون الوطن طاغية متجبراً؛ فنكون، بإباء وإنسانية وعزيمة، ضد طغيانه وتجبره. وقـد يكون الـوطن شرطياً تطـاردنا كـلابه الناهشة في كل شبر داخل الأسوار، وفي كـل فضاء إليـه ننأى خارج الأسوار؛ فنقف بإيمان عنيد بالحرية وكرامة الإنسان في وجهـه الأجلف نعرض عـري أجسادنـا لأنيابـه الناهشـة. وقد يكـون الوطن تـاجراً شرهـاً، وسمساراً والغـاً، ينهش بـأنيـاب استغلاله لحم زنودنا التي تحفر التراب بحثـاً عن لقمة شريفـة سائغة؛ فنمضي بزنودنـا التعبى نحفر عن لقمـة شريفة سـائغة، رافعين أصواتنـا في وجه شرهـه وسمسرته، ورافضـين أن نبيع أيامنا لإغواء ثرواته الملطخة بدم الضعفاء، وعرق القهر والمذلة. وقد يكون الوطن كهف خيباتنا، ومذبـح أحلامنـا العذبـة، وقبر

توقنا لفضاء الكرامة والحرية والوعد. وقد يكون الوطن ألف شيء آخر فاجع وشيء.

غير أنه يظل، في جميع أحواله وأطواره، الوطن.

ونظل لا نستطيع أن نكون إلا مع الوطن.

*

والوطن ليس حاكماً أو دولة أو نظاماً.

الوطن الآن هو ما يشن عليه أعداء لنا متجبرون طغاة جحيم ابتكاراتهم المدمرة من أجل ألا يكون لنا. الوطن الآن هو ما يكره أعداء لنا أن نستطيع إنجازه واستخدامه من أجل استعادة حق لنا أهرقوه هم، وأرض لنا استلبوها بقوة اغتصابهم وشراسة استغلالهم لضعفنا وتمزقنا ونخر ألف سوسة لأعضائنا المتهرئة.

الوطن هو إحساس بالكرامة يستكبرون أن يروه ينتفض في دمائنا التي أجبروها لقرون على أن تستمرىء المذلة والهوان.

والوطن هو إيمان جديد بطاقاتنا وحقنا في السعي إلى حياة أسمى واستعدادنا للصراع من أجل مستقبل أكثر بهاءً وحرية وعدالة، يستنكرون أن يروه يتبرعم في حنايا وجودنا.

والوطن هو شعور نبيل متمرد يهدر في عروقنا مستنكراً أن تستأثر حفنة من الذين ادعوا لأنفسهم حق السيادة على الناس بموارد الوطن وخيراته، فتعيش في ترف النعيم، وتعيث في الأرض فساداً، وتغدق ثروات الوطن حتى على أعدائه، فيما يتمرغ أبناؤه في مذلة الفقر والحرمان.

والوطن كل هذا وألف ألف شيء آخر يمقت أعداء لنا ما يزالون يناصبوننا العداء لألف من السنين أن يرونا نتطلع إليه ونكتسب القدرة على البدء ببنائه وتحقيقه، فيكشرون عن

وجوههم القبيحة المرعبة وينقضّون علينا بكل ما يملكونه من أسلحة الدمار، متستّرين بأقنعة تزيّف حتى ضوء النار فتجعله ظلمة منتصف الليل، وتزيّن الاستعباد والجريمة والاغتصاب فتجعلها دفاعاً عن القيم والحرية والحق.

ولأن كل ذلك هو الوطن.

ولأن كل هؤلاء أعداؤه، ولأن الوطن الآن بكل ما فيه يتعرض لنيران جحيمهم وانتهاكهم، فإننا لا نستطيع إلا أن نكون مع الوطن ـ

الوطن نفسه الذي نرفض طغيان طغاته وجبروت جبابرته، وكلاب شرطته، وشراسة استغلال تجّاره وسادته.

ذلك أن الوطن ليس حاكماً أو نظاماً أو دولة أو فئة أو سلالة أو عشيرة أو صهوة ذلولاً لمغامر تشحن عروقه شهوة السلطة وشبق الجبروت.

*

الوطن هو هذا الدم الأبدي النابض في الأعماق: أعماقنا وأعماق الأرض. هو وجه أم لا يموت، وعينا حبيبة لا تنسى، وزندا أب لا يفنيان، وجبين عامل يصنع بعرقه مستقبلاً مشرقاً، وأصابع فلاح تنبش التربة وتقتلع منها عروق الاستغلال والعبودية، وتزرع شمساً جديدة لسماء الوطن، وعقل عالم يبتكر بائتلاق عبقريته وضنى لياليه سبل تقدم حقيقي لأجيال آتية، وسهر فتى وصبية يتوقان لزمن مقبل يفيض بالعطاء، وحلم شاعر لا يعرف للممكن حدوداً.

والوطن مقهى الفناه، وشارع قضينا شبابنا نغازل صباياه، ونكهة طعام نحب آثاره تحت أضراسنا المسافرة، ومذاق كأس نتلمظه لسنين تأتي، وليونة أشعة شمس ربيعية على الوادي،

وخرير جدول في ذاكرة تزدحم الآن بهدير قاذفات القنابل المدمرة، وفيء سنديانة تغور جذورها في أعماق الروح والأرض والدهور.

والوطن تدفق تاريخ عريق يتجاوز تاريخ الأفراد، وعتو الطغاة وظلم الظالمين، وشراهة الناهشين، وأزمنة السلالات والعشائر.

*

لذلك كله فإننا اليوم، والعراق والكويت يدمران، وجسد الوطن يمزق شلواً شلواً: شلو بمخالب الأبناء، وشلو بمخالب الأعداء، لا نستطيع أن نكون إلا مع الوطن.

سوف نكتب مراثيك بأنفاسنا المتساقطة، أيها الوطن، وسنحفر عذاب جسدك الذبيح حتى في مطاوي الرياح وغابات الغيوم التي ترحل فوق البحر، حاملة روائح الجراح في أجساد أبنائك المتناثرين الآن صرعى في وحشة الصحارى وبرد أشلاء الخنادق المدمرة، وسنندب موتك الكبير بحناجر لا تعرف الكلال.

انهم يغنون انتصاراتهم العظيمة على فقرك العظيم، وعلى وجوه أبنائك التي نهشها الحرمان، وقمع السنين الطوال، وظلم الفرسان والأنبياء الكذبة.

إنهم يحتفون في باراتهم الوثيرة، وناطحات سحابهم التي أشادوها من امتصاص دمائك الخيرة، وغرف نومهم المترفة، وقواعد صواريخهم وقاذفات قنابلهم المرعبة، بتمزيق أشلائك الواهنة، وإطفاء كل ومضة من نور استطعت أن توقدها بضنى السنين، وعرق الليالي، ومكابدة الجراح والحصار والاستبداد والإبتزاز. بلى، أيها الوطن الصغير كالقلب، الواهن مثل خيط عنكبوت، في عالم لا يعرف سوى لقوة التدمير، وجلافة الوحوش الكاسرة، قيمة أو قدراً، ولا يحفل إلا بقواعد التجارة، والربح

والخسارة، التي تحميها الجيوش الهادرة، والقوة الفاجرة.

إنهم يتبخترون في حللهم المدرعة بالجريمة والموت، يحتفون بانتصاراتهم على جوعك وفقرك وتخلفك وبؤس تاريخك الذي ملأوه بفسق استعمارهم وهيمنتهم وظلمة استعبادهم واستنزافهم.

٢

بأي شيء قمت تنقر لهم أيها الوطن الصغير؟

بأي شيء وقفت تحلم أن ترد كيدهم وعنجهية قوتهم وجبروت طغيانهم، أيها الوطن المخدوع؟

بأي شيء هرعت ترفع ذراعيك اللتين أوهنتهما السنون تهزهما في وجوههم الكالحة الوالغة في دمائك منذ ألف وألف؟

بكبرياء الجريح الذي لم يعد يقوى على السكوت على نزيف الجراح، رغم أنه أوهن من أن يرد عن صدره انهيال ضرباتهم الصاعقة؟

بعزة السليب الذي لم يعد يطيق مزيداً من السلب، رغم أنه أوهن من أن يسترد ما استلبوه؟ وبسذاجة المغتصب الذي يظن أن صراخه سوف يجعل الغاصبين يبصرون كوكب الحق والحقيقة اللامع في سماء هجرتها السماوات؟

أم بأوهام القوة التي خدعك بها حكام طواغيت، استغلالاً لتوقك اللهوف إلى أن تهدر في عروقك دماء حياة نقية قادرة، فإذا كل ما هدهدوك عليه حصون من الهشيم وأضغاث أحلام وسراب بقيعة يحسبه الظمآن...؟

٣

بلى، إننا سنرثيك أيها الوطن الوديع كالحمل الضائع، رغم ما

يبدو على وجهك الصغير من تجاعيد تصنعها مرارة الغضب وإحباط السنين، فيظنها الناظر تقطيبة الأسد الهصور، وجبروت المتسلط القادر. بلى إننا سنرثيك، لأنك تعيش في عالم هو غابة للأقوياء، ومرتع مباح لضواري الذئاب؟ وأنت أوهن من شاة هرمة تتقاذفها رياح الصحارى. ينهش صغار الذئاب لحمك بحماية كبارهم، وأنت عاجز حتى عن أن تعض كما يعض ابن آوى ذبيح. وتفترس كبار الذئاب قلبك النازف، فلا تقوى إلا على عويل الفريسة المشلاة. وإذا حدث، في غفلة من الزمن، أن اشتد لك زند، وأينع لك عود، وانتزعت بعرق الجبين وضنى الليالي سهماً من غابة العالم تريد أن تذود به عن أعضائك العارية، هجموا عليك هجوم الضواري يكسرون سهمك النحيل ويسلخون عن جلدك حتى الرداء الذي به تحميه من الريح، ومزقوا لحمك نثاراً على مدى البراري.

بلى، إننا سنرثيك أيها الوطن.

ذلك أنك، وأيم الله، لجدير بأبلغ الرثاء.

جدير بأكثر المراثي مرارة، وغضباً، وعزيمة على ألا يضيع الدم الهريق عبور السنين، وألا يمحو صور جثث أبنائك المتناثرة على صدور الصحارى جثوم الغاصبين على لحم صدرك الذي ضرجته الكلوم، وعلى ألا تنسى الجليلة دماء كليب.

٤

بلى، أيها الوطن، إننا سنرثيك.

ذلك أننا، نحن العاجزين، الذين لا سلاح لهم سوى الكلمات، لا نستطيع أن نقدم لك سوى المراثي، أو نطوقك بسوى الوله الكسير، والرغبة الجموح.

غير أن مراثينا لن تكون مراثي العجزة اللاجئين إلى قضاء

الكلام ينسجون حول أنفسهم شرانقة لكي لا يلسعهم وهج نيران الفجيعة،

بل المراثي التي تشعل في صدرك الذبيح لهفة الصراع من أجل أيامك القادمة، من أجل أن تغسل بفوح الدماء وصمة العار والمذلة، من أجل أن تستعيد يقينك الذي هشمته وحشية الغزاة بحقك المغتصب مرة بعد مرة، وحرباً بعد حرب، ومن أجل ألا تدع قوة الإنتهاك تقنعك بأن البديل الوحيد أمامك هو أن تقر بشرعية الإغتصاب وتتخلى عن حقك الأصيل السليب، وتركع أمام جبروتهم وشراسة ما يملكون من قدرة على التمزيق والإفتراس.

٥

بلى، أيها الوطن، سوف نرثيك في محنتك التي صنعها لك أبناؤك، بقدر ما حاكها لك أعداؤك، حين انهالت يد الأخ بخنجر مسموم تطعن صدر أخيه الأعزل العاري، وتستبيح ماله وحرماته، وتقوض بنيانه، وتهدم أركانه؛ ثم حين صرخ الأخ الطعين «واغريباه، وايوشاه» مستنفراً ألف خنجر غريب لتنهمر على صدر أخيه بطعناتها الممزقة، واهماً أن الطعنات التي تنال أخاه لن تنال إلا أخاه، وغافلاً عن الحقيقة المرة وهي أن الجسد الواحد لا تلتئم منه الذراع بأن يقطع منه الرأس، وأن العدو في النهاية ليس عدو أخيه وحسب بل عدو له أيضاً، وأن الغريب الذي نقر لنجدته لم ينجده محبة به، بل من أجل أن يضمن هيمنته على كلا الأخ الباغي والأخ الذي حل به البغي. فالغريب لا يعرف مصلحة إلا لنفسه، ولا يؤمن بحق إلا حقه، ولا يحارب من أجل شيء إلا مكاسبه وسيطرته وترفه، ولا ينتخي إلا حفاظاً على قدرته أن يظل أبداً سيداً يمتص دماء الأخ الظالم والأخ المظلوم.

٦

بلى، أيها الوطن، إننا لنرثيك. وما نحن براثيك فقط لأن أسلحة الغزاة مزقت جسدك الطري شر تمزيق، بل إننا لنرثيك لأنك عاماً بعد عام، وجيلاً بعد جيل، تظل تسلم العنان للجبابرة الطغاة، وتلين القياد للظالمين العتاة، كأنما في أعماقك شيء يستسيغ لعنة الظلم والقمع والتعذيب والاستبداد، فيقودونك مكمماً، مقيداً، إلى الدواهي العظام، ويعيثون فساداً وقهراً وقتلاً في ربوعك النازفة، لا يرون من حق لأحد سواهم، ولا يسمحون من كلمة إلا ما يعظمهم ويسجدهم؛ يدعون عصمة الأنبياء وهم غفل جاهلون، وألوهية الآلهة وهم بشر عاجزون، تعصف بقلوبهم شهوة السلطان وشبق الحكم وأثرة الذات وأوهام الخلود؛ يرددون «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً» وليس في قلوبهم ذرة من إيمان بحق أحد في الحرية سواهم؛ يدعون امتلاك الحقيقة كلها دون ذرة من شك في أنهم مالكوها؛ يقررون باسمك ما يشاؤون، وباسمك يباركون ويلعنون، وهم لا يباركون ولا يلعنون إلا عن هوى في قلوبهم ومن أجل ما يرون فيه ترسيخاً وتأييداً لسلطانهم، ولو كان فيه لك النقمة كل النقمة، والخراب كل الخراب.

بلى، إننا لنرثيك. لأنك على مدى الدهر تعتو لطاغية بعد طاغية: طغاة يلبسون مسوحاً مختلفة مبرقعة بأزهى الألوان وأشدها إغواءً، غير أنهم في الجوهر فصيلة واحدة وأبناء دم واحد وقربى. بعضهم تسميه أميراً، وبعضهم مشيراً، وبعضم شيخاً زبأريرا، وبعضهم حاكماً باسم الله، وبعضهم رئيساً مجيداً، وآخر ملكاً عتيداً؛ هذا فارس المعجزات، وذاك حامي المقدسات؛ واحد تسميه الأب القائد، وآخر الفاتح الرائد، وثالث الحاكم الراشد، وكل تنصبه الزعيم الأوحد الواحد؛ وكلهم يقودك إلى مهاوي الخراب، ويرشدك إلى مصير يباب، ويرود بك مسالك

المهالك، ويخرجك من ليل أعشى إلى متاه حالك. وما بينهم من فرق سوى في قدر الدمار الذي به يجودون عليك، والاضطهاد الذي يمارسونه على أبنائك، وأنواع التعذيب وأنماط المشانيق، وماركات المقاصل والخوازيق.

٧

بلى، أيها الوطن، إننا لنرثيك؛ نحن الذين لا نملك نعمة سوى الرثاء، فلقد انتزعوا من أفواهنا الألسنة القادرة على النطق بسوى التافه المرائي، وليسوا بكوابح من نار كل فم يكاد يغمغم بكلمة من حق تكشف سوء ما يفعلون، وزيف ما به ينطقون، ولم يتركوا لسوى المداحين والمطبلين والمتعبدين والمؤلهين من سبيل إلى النطق، فلا كلام إلا ما يتغنى بأمجادهم وإن لم تكن سوى أوهام يبتكرها الكلام، ولا نطق إلا أن يكون تعبداً وتهليلاً، ولا لسان إلا ما يظل لمشيئتهم عبداً ذليلاً.

بلى، إننا لنرثيك،

وطنا مزقته الفتن والأهواء، والملل والنحل، والشيع والسنن، والتحزبات والعصبيات، وشل فيض الحياة في عروقه الإرهاب والاضطهاد، يصنع الحاكم فيه من الأخ عيناً على أخيه، ومن الإبن سوطاً لاسعاً لأبيه؛ ويصنع الإنسان، وقد استعبده القهر، من الحاكم إلّها أين من جلاله رب البشر، ينشد له الترانيم خوفاً أو تقية أو جشعاً أو تملقاً؛ فلا حبيب إلّاه، ولا وليّ للنعمة سواه، هو الوطن وقد تقمص في جسد، وهو البيت والأهل والوالد وما ولد، فلا مغنى للوطن إلا ما كان كامناً فيه، ولا شيء أعز من أن يفديه. حتى إذا تغيرت على الحاكم صروف الزمن، وقلب له الدهر ظهر المجنّ، سقط فجأة من علا أعاليه، وغدت كل خيانة ووضيعة وجريمة متجسدة فيه، ولعن اسمه على أطهر المنابر، وتنطع لهجوه كل شاعر وثائر. وتدفق نهر

الكلام لجيناً في مديح خلقه، وعراقة أصله وسمو شرفه، وسطعت في السماء أنوار رب جديد، وارتمى على الركب لتبجيله السادة العبيد. فسبحانك من وطن لا يليق به سوى الرثاء، وسبحان من أكرمك فجعلك مهبط الوحي ومرتع الأنبياء.

بلى، أيها الوطن، إننا لنرثيك. ونضرب في المتاهات غارقين في أسى مآسيك. نحمل عبء حقيقتك الفاجعة على كواهلنا المنهكة، وليل تاريخك الحزين في عروقنا الناضبة، لا يفاجئنا سقوطك الدائم نحو حضيض عروقنا الناضبة، لا يفاجئنا سقوطك الدائم نحو حضيض الهاوية، بل يفاجئنا أنك رغم كل شيء ما تزال واقفاً على قدميك، تتخبط في بحار الظلمات لكنك لا تسقط السقطة الصارعة، وتترنح في متاهاتك الحالكة دون أن تقدّك الضربة القارعة ـ وما أدراك، أنت السادر في غيه، ما القارعة؟ فسبحان من وهبك نعمة عذابك الأبدي، وسبحان من منّ عليك بهوانك السرمدي، وسبحان من أنعم عليك بطغاتك البهاليل، وأصمّ أذنيه عن ضراعات ليلك المدلهم الطويل، بعد أن كان جعل أهلك خير أمة أخرجت للناس، وكساك لباس التقوى، وإنه لنعم اللباس.

٨

وكيف نستطيع سوى أن نرثيك، ونندب تمزقك الذليل، وعنقك القاتل ضد أعضائك الشتى؟ أولست أنت اليد التي انهالت بخناجر الغدر على بقعة من جسدك كأنما هي حبة العين من العين، غضة غضيضة لا تقوى على مواجهة مخارزك الفاتكة؟ أولست أنت أيضاً الأذرع الصلبة التي تكاتفت مع صواعق الغزاة البرابرة لتبتر يدك المذنبة وتسحقها شر سحق؟ أولست أنت الوجوه التي تهلل لهولاكو الدمار ممزقاً بعض أوصالك، والعيون التي احتشدت نشوة لمرأى التتار يفتكون فتك الضواري بأجساد أطفالك ورجالك؟ أولست أنت وجوه النساء

التي زغردت لقنابل الغزاة تمطر الموت والخراب على صدرك الأعزل، وتستبيح أجساد أخوات لهن في أرضك المجتاحة؟

أولست أنت من سعى إلى شفاء جرح فحفر في الجسد الطعين آلاف الجراح، وضمد نزيف عضو مفجراً في الجسد البائس أنهاراً من الدم الهريق؟

بلى، أيها الوطن، إنك لأنت أنت:

الضحية والقاتل، الغادر والمغدور، المتاجر والمتاجر به، والخائن والمخون.

ومن أجل ذلك كله فإنك لتستحق أبلغ الرثاء، وأكثر المراثي مرارة وغضباً وازدراءً. وها نحن أولاء نذرف الدماء لنرثيك.

٩

بلى أيها الوطن إننا لنرثيك.

لكن، أواه لو كان يجدي الرثاء، أو يبعث النبضَ الحيَّ في الجثة الصفراء طولُ البكاء.



جورج طرابيشي

جريمة الغرب المزدوجة

من وجهة نظر سياسية يبدو أن كل ما يمكن أن يقال في أزمة الخليج قد قيل، وأن ما من جديد يمكن بالتالي أن يضاف، إلا على ضوء التطورات السياسية والعسكرية في هذه الأزمة وبالتوازي مع المستجدات فيها.

ولكن إذا جاوزنا وجهة النظر السياسية إلى ما يمكن تحديده بأنه وجهة نظر حضارية، يبدو على العكس وكأن ما من شيء قد قيل، أو ما من شيء قد قيل بما فيه الكفاية.

والحال أن أزمة الخليج هي أيضاً أزمة حضارية. وبعض الدليل على ذلك يتمثل في أن بعض المفاهيم التي يتم بها تعقل هذه الأزمة تحيل بقدر أو بآخر إلى كيانات أو ماهيات حضارية، ومنها في المقدمة، وبالإضافة إلى مفاهيم أخرى مثل العرب والإسلام والشمال والجنوب، مفهوم الغرب نفسه.

وبالفعل، وعلى الرغم من أن الانهيار الفجائي والسريع والمتسلسل الحلقات للمعسكر «الشرقي» كان أوحى بأن مفهوم الغرب قد بات هو الآخر بحكم المتقادم، بعد أن فقد بسقوط القطبية الثنائية مبرر وجوده. جاءت أزمة الخليج لتبعث من جديد الدماء حارّة في شرايين هذا المفهوم التي كانت بدت قبيل

هذه الأزمة وكأنها دخلت في طور التكلس والتيبس وانعدام الناقلية.

فكما في أشد لحظات التوتر مع قوى المعسكر «الشرقي» (حرب كوريا وفيتنام والعدوان الثلاثي وغزو المجر وأفغانستان.. الخ)، عاد مفهوم الغرب منذ الثاني من آب/ اغسطس ١٩٩٠ إلى الانبناء، وإلى فرض نفسه في اللغة العالمية الأكثر تداولاً، أي لغة وسائل الإعلام الحديثة؛ كما بات، سواء تحت غطاء «الشرعية الدولية» أو بدونها، هو المفهوم/ المرجع الذي بالإحالة إليه، بكل ما يمثله من مبادىء ومصالح، تتخذ قرارات الحصار الاقتصادي والتجييش العسكري، ويهيأ الرأي العام في ذلك «الغرب» نفسه لتقبل فكرة حرب قد لا تقلّ ضراوة عن حرب كوريا وفيتنام، وإن مع الوعد ـ من قبل أصحاب القرار ـ بأن تكون أقل تكلفة بالتضحيات البشرية بالنسبة إلى «الغربيين».

والمقارنة هنا تفرض نفسها، ففي حرب المالوين (١٩٨٢) حاولت رئيسة وزراء بريطانيا السابقة مرغريت تاتشر عبثاً أن تأتزر بإزار «الغرب». ولكن على الرغم من كل الدعم الغربي، أو «الأطلسي» بتعبير أدق، المادي والمعنوي، فقد اضطرت القوات البريطانية إلى أن تخوض الحرب بمفردها وتحت علمها الخاص. وبالمقابل، فإنه ما كادت تلوح نذر الحرب في الخليج حتى أسرعت جميع دول الغرب الفاعلة عسكرياً، بما فيها فرنسا ذات التراث التليد في التمسك باستقلاليتها القومية والأوروبية النسبية، إلى إرسال قواتها إلى الخليج باسم «الغرب» ودفاعاً عن مبادئه ومصالحه. وصحيح أن هذه التعبئة العسكرية الممهدة للحرب قد تمت بمشاركة عربية وتحت أعلام مجلس الأمن الدولي. ولكن ما من أحد في الغرب، لا على مستوى القيادات ولا على مستوى وسائل الإعلام، يخفي أن التعبئة تعبئة «غربية»، وأن الحرب ستكون حرباً «غربية»،

سواء أشاركت فيها قوات غير غربية أم لم تشارك، بل سواء أأجاز مجلس الأمن الدولي شنها أم لم يجزه.

وبديهي أن هذا التوظيف الغربي لمفهوم «الغرب» يتضامن، ولا يتنافى، مع توظيف مفاهيم أخرى أكثر شمولية مثل الشرعية الدولية والقانون الدولي والنظام العالمي الجديد. ولكن إن تكن مداورة هذه المفاهيم الأخيرة برسم الخارج في المقام الأول، فإن مفهوم «الغرب» يبدو أكثر فعالية ونجعاً في داخل الغرب نفسه.

فلئن يكن من الممكن، بل من الضروري، أن تشن الحرب باسم الشرعية الدولية والقانون الدولي، فليس في سبيل مفاهيم كهذه يمكن أن يرتضي الناس في الغرب بإرسال أبنائهم إلى احتمال الموت في الصحراء العربية. ومن هنا كانت الازدواجية الحتمية في الخطاب الغربي عن الحرب: مفاهيم كونية برسم الآخرين، ومفاهيم خصوصية برسم الداخل.

ومما يزيد في الحاجة إلى ركوب مركب الازدواجية هذه، أن الرأي العام الغربي لا يبدو مسرفاً في تأييده لفكرة الحرب. بل يكاد العكس أن يكون هو الصحيح. فاستطلاعات الرأي تشير إلى أن نصف الغربيين، إجمالاً، لا يرحبون بالحرب، وأن نسبة من يؤيدونها هي، مع مرّ الأيام، في تناقص، لا في تزايد. ومن هنا، بالتالي، تزايد التشديد على اللحظة الخصوصية، أي اللحظة الغربية، في خطاب الحرب الغربي، بدون فك التضامن، بطبيعة الحال، مع اللحظة الكونية.

لكن من منظور غربي تحديداً، بالمعنى الحضاري للكلمة، يبدو خطاب الحرب الغربي ضعيف المصداقية ومبنياً على معطيات ناقضة له، وعلى مقدمات متناقضة فيما بينها.

فإن يكن «الغرب» كمفهوم تعبيراً عن منظومة متراكبة من المبادىء والمصالح، فإن خطاب الحرب الغربي يتبدى خطاباً

متلعثماً، لا بحكم صعوبة الجمع والتوفيق بين اللحظتين الخصوصية والكونية فحسب، بل كذلك بحكم التناقض الذي يعتمل، في السياق الخاص لأزمة الخليج، بين العنصرين المؤسسين لمفهوم الغرب بالذات: المبادىء والمصالح.

فمن منظور **المصالح** يبدو خطاب الغرب الحربي مكتمل المصداقية: فالنفط الخليجي والنظام الإقليمي العربي هما دعامتان أساسيتان لمصالح الغرب.

لكن في مواجهة هذه المصالح، المصطبغة بالضرورة ـ بحكم من أنها مصالح ـ بصبغة الواقعية والخصوصية ـ تتدخل المبادىء، بتعاليها المثالي والكوني، لتحدث شرخاً وتمزقاً بنيوياً في خطاب الغرب الحربي.

فمن وجهة نظر **مبدئية** كان يفترض بالغرب أن يقف إلى جانب الطرف المضاد للطرف الذي أملت عليه مصالحه أن يقف إلى جانبه.

ذلك أن ما حدث في الخليج يوم ٢ آب/ اغسطس ١٩٩٠، إن بدا وكأنه مضاد لمصالح الغرب فإنه لم يكن، في المستويات العميقة من التحليل، إلا تطبيقاً لمبادىء الغرب، إن لم يكن بالفعل المباشر فبالتأثر غير المباشر.

فما الذي حدث في الخليج؟

للإجابة، لا بد أولاً من التمييز بين الفعل والفاعل، ومن التأكيد على أننا أمام حالة نموذجية لفعل يجاوز فاعله.

فالفاعل (لنتذكر هنا بسمارك) ليس له قوة إلزامية. بل يكاد العكس أن يكون هو الصحيح. فلو كان فاعل الفعل هو غير فاعله الفعلي لجاء الفعل أكثر قبولاً وأكثر إلزامية.

ولكن تماماً من حيث أن الفعل يجاوز الفاعل (لنتذكر هنا توحيد

ألمانيا تحت القبضة البسماركيــة) فليس أمامنـا من خيار آخـر غير أن نقف موقف الديمقراطية الألمان الجذريين الايجـابي من فعل توحيد ألمانيا رغم موقفهم السلبي من فاعله الأوتوقراطي.

وبمفرداتنا نحن - وهي مفردات ترتبط بدورها بجدلية التجـزئة والوحدة - فإننا لا نشك في أن الفاعـل قطري، بـل ربما كـانت أهـدافه بـالذات قطـرية، ولكن الفعـل يبقى رغم كل شـوائبهـه قومياً.

وحتى لو ربطنا المسألة القومية بالمسألة الديمقراطية، وهو ربط مطلق اللـزوم في مختتم قـرننـا العشرين المتـزايـد النـزوع إلى التثمين العالي للديمقراطية، فإن التقييم الايجابي للفعل، وربمـا حتى ضداً على الفاعل، يظـل هو هـو. فما حـدث في الخليج لم يكن خياراً بين وحدة أوتوقراطية وتجـزئة ديمقـراطية، بـل كان خيـاراً بالأحـرى بين وحـدة وتجزئـة تحملان كلتـاهما وصمـة الأوتوقراطيـة. وليس لأحد أن يمـاري في أن وحدة ديمقــراطية خــير بألف مــرة من وحدة أوتــوقــراطيــة. ولكن أليست وحــدة أوتوقراطية خيراً بمرة واحدة على الأقل من تجزئة أوتوقراطية؟

(نستطيــع هنا أن نفتــح قوســين لنقول إن مثـل هذه المحــاكمة الاستدلالية لا تسقط المحاذير كافة. فثمــة محذور نظـري يبقى قائماً، أياً تكن النتائــج والاستنتاجـات: فوحــدة تتم عن طريق الضم، لا عن طريق الاستشارة الديمقراطية، هي وحدة فــاقدة لكثير من مثاليتها. والحال أن وحدة بلا مثالية هي وحدة فاقــدة لقوة دفعها ولقوة إلزاميتها).

ما حدث في الخليــج إذن، أياً مــا تكن البواعث الـذاتية لفــاعله القطري، هو فعل قومي. والحال أن القومية، كما يعلمنا الدرس الغربي بالذات، عامل حداثة وعتلة حضــارة. فكيف لا يتناقض خطاب الحرب الغربي مع بنيته التحتية الحضارية عندما يكون

خيار الحرب المتضمن في هذا الخطاب يستهدف ضرب الفعل القومي من حيث هو فعل قومي دفاعاً لا عما هو قطري فحسب، بل عما هو دون قومي وما قبل قومي؟

إن ما حدث في الخليج قد زعزع ركناً مكيناً من النظام الاقليمي العربي الذي كان يشهد تفاقماً مريراً لما أسميناه بظاهرة «التقومن القطري» على الذات(*)، أي تحول كيانات التجزئة القطرية الموروثة في غالبها عن العهد الكولونيالي إلى كيانات تدعي لنفسها أكثر فأكثر الصفة القومية وتتصرف أكثر فأكثر على أساس من «السيادة» ومن «الاستقلالية» القومية. وفي الخليج كانت ظاهرة التقومن القطري هذه تجد ما يعززها مادياً وايديولوجياً في الأنانية القطرية والنزعة العلائية القطرية التي شحذتها وضخّمتها الطفرة النفطية.

وفي الخليج أيضاً كانت النزعة الأنانية القطرية المتقومنة على ذاتها تتجلبب ايديولوجياً بجلباب الأصولية الدينية النافية لا لقيم الحداثة وحدها، من قومية وديمقراطية وعلمانية، بل للإنسان وللحضارة أصلاً. وتحصيناً لهذه الذات القطرية المتقومنة على نفسها والمتخندقة بين رمال الصحراء وآبار النفط فقد جرى، ودوماً بفضل المنّ النفطي، تنظيم حملة غزو «ثقافي» للعالم العربي لضرب فكرة القومية العربية ووأدها في معاقلها بعد أن ثبت، في عهد الزعامة الناصرية في الستينات، أن القومية العربية، بما تحمله من قيم تقدم وحداثة، هي مصدر الخطر الأكبر على تلك الممالك والسلطنات والإمارات والمشيخات التي تنتمي بإيديولوجيتها إلى القرون الوسطى وبتبذيرها إلى القرن العشرين.

(*) انظر كتابنا الدولة القطرية والنظرية القومية، دار الطليعة، بيروت ١٩٨٢.

وإذا كان خطاب الحرب الغربي يصور المحافظة على النظام الاقليمي العربي، ولا سيما في الخليج النفطي، وكأنها حجر من أحجار الزاوية في استراتيجية الدفاع عن مصالحه، فكيف لن تتبدى هذه المصالح مفارقة ومخارجة للمبادىء التي صنعت الغرب نفسه، مبادىء القومية والوحدة والحداثة والايديولوجيا العقلانية، عندما يضطر، باسم تلك المصالح، إلى أن يقف في أزمة الخليج إلى جانب الطرف الذي يعادي تلك المبادىء عداءً جذرياً ويشن ضدها حرباً ايديولوجية مدمرة يوظف فيها، ودوماً بفضل المنّ النفطي، أحدث تقنيات الإعلام الجماهيري والسواد المرتشي من الانتلجانسيا العربية؟

وإذا كان الغرب قد وقف طوال السنوات الثماني من الحرب العراقية ـ الايرانية إلى جانب الطرف المعادي لما كانت وسائل الإعلام الغربية نفسها تسميه بظلامية القرون الوسطى، فكيف لا يبدو مسلك الغرب الحالي، لا خطابه وحده، متناقضاً مع نفسه وهو يجيش جيوشه هذه المرة ليدعم الطرف الذي ينتمي تكوينياً وايديولوجياً إلى الظلامية نفسها؟ أيكفي لتعليل هذا التناقض القول بأن الظلامية التي كان مطلوباً ضربها في الثمانينات كانت ظلامية مصبوغة بصبغة «يسارية»، على حين أن الظلامية المطلوب الدفاع عنها في مطلع التسعينات مصبوغة بصبغة «يمينية»؟ لكن أليست جدلية اليمين واليسار بالأساس جدلية غربية الانتماء، على حين أن «الظلامية» هي واحد من المفاهيم الضدية الأساسية التي صنع الغرب نفسه من منطلق نفيها؟ والظلامية، سواء أكانت «يسارية» أم «يمينية»، تبقى ظلامية، وبالتالي متضادة مع جوهر الحضارة التي يفخر الغرب بأنه صنعها وقدمها نموذجاً كونياً للعالم. والموصوف، بأية صفة وصف بها، يبقى على أي حال أكثر ماهوية من كل صفة يمكن أن تلصق به.

ومن منظور هذه الحضارة تحديداً، فإن خطاب الغرب الحربي يبدو منطوياً على تناقض داخلي آخر. فإن واحدة من أثمن القيم التي انفردت تلك الحضارة بتمييزها وبالتثمين العالي لها تتمثل في العقلانية الاقتصادية. والحال أن النظام الاقليمي العربي، ولا سيما في شقه الخليجي، كان، عند نشوب أزمة الخليج، يقدم مشهداً مضاداً إلى حد كاريكاتوري لأبسط مبادىء العقلانية الاقتصادية. وحسبنا مثال واحد. فقد كانت «دول» الخليج النفطية، التي يقل تعداد سكانها عن ربع سكان وادي النيل، تحقق، بفضل الريع النفطي، ناتجاً محلياً يفوق بثلاثة أضعاف ونصف ضعف الناتج المحلي الذي تحققه مصر والسودان مجتمعين. وكانت حصة الفرد من الناتج المحلي تتراوح في «دول» الخليج بين ٦٥٠٠ و١٦٥٠٠ دولار سنوياً، بينما ما كانت الحصة المقابلة للفرد في مصر تزيد على ٦٥٠ دولاراً وتهبط إلى أقل من ٣٥٠ دولاراً في السودان. وكان هذا الاختلال المفجع في توزيع الثروة القومية يقترن، ودوماً بفضل الريع النفطي، بتبذير خليجي أمسى مضرب مثل في العالم قاطبة. والحال أن أزمة الخليج، التي انفجرت في الثاني من آب/ اغسطس، فتحت على مصراعيه ملف النفط العربي وإعادة توزيع عوائده بوصفه ثروة قومية. ذلك أن ما لا يجوز أن ننساه هو أن هذا النفط، الذي جرى ـ فضلاً عن تبذيره في السلوك البذخي ـ توظيف جزء من عائده في تنظيم حملة الغزو الفكري السلفي المعادي للحداثة ولقيمها في القومية والعلمانية والعقلانية، هو نفط عربي. والصفة هنا «عربي» ليست مجرد كلمة تقال، بل ينبغي أن يكون لها منطوقها على صعيد الوقائع. فما معنى أن يكون النفط عربياً؟ معناه أن يكون النفط ـ وبالتالي عائده ـ ملكاً للأمة العربية جمعاء. وهذا ما يعيد إلى شعار تأميم النفط العربي راهنيته. فتأميم النفط لا يعني فقط نزع اليد الأجنبية عن ملكيته، بل يعني أيضاً، وكما يستدل من

الاشتقاق اللغوي لكلمة تأميم، رد ملكية النفط إلى أمة العرب قاطبة، وليس فقط إلى بعض العرب، أو حتى إلى بعض بعض العرب ممن جعلوا، بتبذيرهم وسلوكهم البذخي، اسم العرب هزأة في العالم المتحضر أجمع.

وهكذا، ودوماً من منظور الدرس الغربي في الحضارة، يتبدى خطاب الغرب حاملاً للوثة تناقضات جوهرية ثلاثة:

١ ـ فالغرب صنع نفسه ضداً على التجزئة الفيودالية. ولكن خطاب الحرب كما يمارسه الغرب اليوم يشف عن أن الغرب، رغم كل المدَّعى الكوني للنموذج الحضاري الذي يقدمه، لا يمارس استراتيجية الوحدة إلا في المتروبولات. أما في المستعمرات والمستتبعات، ودوماً وفق المخطط الكولونيالي الذي يقال لنا ـ تعزيزاً لكونية النموذج المقترح ـ إن صفحته قد طويت إلى الأبد، فإنه لا يزال يصرّ على ممارسة استراتيجية التجزئة والتفتيت.

٢ ـ والغرب صنع نفسه ضداً على ظلامية القرون الوسطى. ولكن خطاب الحرب كما يمارسه الغرب في الخليج يضع نفسه على خط معاكس تماماً لكل المقدمات الحضارية التي انطلق منها الغرب في سفر تكوينه بالذات. فهو خطاب منحاز انحيازاً تاماً وغير مشروط لا إلى جانب معسكر القوى الظلامية في الشرق العربي فحسب، بل أيضاً وأساساً إلى جانب تلك القوى عينها التي تمثل في معسكر الظلاميين الجهة صاحبة القرار المركزي في التمويل والترويج للايديولوجيا الأصولية النافية للقومية وللحداثة، وفي تنظيم حملة الغزو «الثقافي» المعمم للعالم العربي بالاعتماد دوماً على فوائض الطفرة النفطية.

٣ ـ وأخيراً، وضداً على العقلانية الاقتصادية التي كانت عتلة

الغرب الأولى في السبق الحضاري، وضداً بالتالي على مبدأ الانتاجية التي جعل منها الغرب نفسه عنواناً للحداثة، فإن خطاب الحرب الغربي في الخليج يعلن عن انحيازه سافراً إلى معسكر اللاعقلانية الاقتصادية (المعززة والمغطاة معاً باللاعقلانية الايديولوجية)، وهو المعسكر الذي جمع على نحو فذ وغير مسبوق بين حكم ثيوقراطي واقتصاد ريعي (باعتبار الريع بديلاً حديثاً عن الخراج) وسلوك بذخي في الاستهلاك.

ولكن مهما يبلغ، في خاتمة المطاف، من خطورة التناقضات النظرية لخطاب الغرب الحربي، فإن الأخطر منها بما لا يقاس الانتقال من الخطاب إلى الفعل.

فتفعيل خطاب الحرب سيكون هو الجريمة.

وهي في الحالة التي نحن بصددها ستكون جريمة مزدوجة.

الجريمة الأولى هي أن الضحية الرئيسية للحرب، أياً من يكن الضحايا الفعليون، ستكون هي القومية العربية، أي قوة الحداثة والحضارة الوحيدة في المنطقة.

والجريمة الثانية هي أن المنطقة ستمسي بعدئذ أرضاً مباحة للأصولية الدينية، النافية للقومية والعلمانية والعقلانية والديمقراطية وسائر قيم الحداثة.

وسيكون الغرب، في فعل من أفعال قصر النظر الحضاري، قد قدم مرة أخرى، ووفقاً دوماً لمنطق ثنائية المتروبولات/ المستعمرات، مصالحه، أو ما يتوهم أنه مصالحه، على مبادئه.

وقصر النظر الحضاري هذا يمكن أن تصاغ معادلته على النحو التالي:

فمـا لا يراه الغـرب هو أن القـومية العـربية وإن تكن معـادية سياسياً للغرب فإنها لا تناصبه العداء حضارياً.

وبالمقابل، فإن الأصولية الدينية وإن تكن حليفة للغرب سياسياً (إلى حد استقدام قواته) فإنها تنـاصبه العـداء، مطلق العداء، حضارياً.

بل أكثر من ذلك: فعلى حين أن عداء القومية العربية السيـاسي للغرب هو أمر حضاري، فإن الأصولية الدينية ستعمد، تغطيـة لتحالفها السياسي والعسكري مـع الغرب، إلى تصعيـد عدائهـا الحضاري له.

والغرب، إذا ما أقدم على تفعيـل خطاب الحـرب، فسيكون قـد اختار السياسة ضداً على الحضارة، وقضى في المنطقـة العربيـة على آخر فرصـها في الصمود أمام الزحف الاجتياحي لقوى نفي الحضارة.



انسي الحاج

خواطر تحت دعس الخيل
كم أنت أبله أيها العظيم!

فجأة تصفعكَ الأحداث.

تجرفك بوحشيّتها، وحشيّة التاريخ، وترميك في المهبّ، أنت وأحلامك، أنت وكرامتك، أنت وبرج أفكارك، وبرج روحك، تحت دعس العاصفة.

«عاصفة الصحراء»، قيل.

صحراء العقل، صحراء الروح والذاكرة.

عاصفة الكذب والعنجهية، عاصفة العنصرية والجريمة.

عاصفة البطولات المزوّرة في صحراء الإنسان.

فجأةً تكتشف كم أنت، أيها العظيم، حَشَرة.

كم أنت تافه أيها المهمّ.

كم أنت، أيها الإنسان، يا ابن الله ويا ملك الدنيا، كم أنت مرهون لمحتقريك، رهنٌ بمشيئات الأحقر منك، الأشدّ سفالة منك، الذين لا يميّزهم عنك سوى كونهم سبقوك، في غفلة منك أو برضاك، إلى التفوق في الانتهازية والوصولية وازدراء كل ما ليس سلطتهم.

كم أنت أبله أيها الانسان العظيم.

طبعاً غزو الكويت خطأ.

والحكم العراقي ليس حبيباً على قلب الأحرار والديمقراطيين، لا داخل العراق ولا خارجه.

والحكم العراقي، باحتلاله الكويت، قدّم إلى الغرب الذريعة المثلى التي كان ينتظرها لضرب العراق وكل الثروة العربية وربما الخريطة العربية عبر حرب العراق.

طبعاً طبعاً.

ولكن حرب الإبادة التي تشنها أميركا وحلفاؤها لا علاقة لها، فعلياً، باحتلال الكويت. الكويت هي قميص عثمان.

وشكراً للتلفزيون الذي أتاح لنا أن نقدر في هذا العصر يوماً بيوم وبالمعاينة، مدى نفاق الزعماء وتزويرهم، هم وإعلامهم، لأبسط الحقائق.

في لبنان أصبحنا من أكثر العارفين بواقع السياسة الأميركية. فهي منذ ١٩٧٥ تبيعنا في أسواق المقايضات والصفقات، وما كان في هذه المبيعات محطة واحدة لغير ازدواجية القول والفعل ولغير الماكيافيلية. وقد سجّلت السياسة الأميركية نجاحاً باهراً في إلحاق لبنان بركب البلدان المفلسة والجائعة والمدمَّرة بعدما كان، رغم مشكلاته الكثيرة، زينة العرب والشرق.

من يصدق أن الحكومة الأميركية لا تريد غير إحقاق الحق في الكويت؟ ومع ذلك هذا ما تردده صحافة الغرب، وطبعاً بعض الصحافة العربية التي لم يكن لها في يوم من الأيام كثير من العلاقة بالحقيقة. أما الاعلام الغربي الذي يهلع لبضعة صواريخ تسقط على اسرائيل ولا تقتل أحداً ولا يحفل بذبح فلسطين والفلسطينيين ولا بذبح لبنان واللبنانيين منذ سنين وسنين، ولا بأي شيء يحصل خارج دائرة الاهتمام والاستغلال

الغربية ـ الصهيونية، فأيضاً لم يعد أحد مخدوعاً به. وما تساؤلاتنا هنا في الواقع غير برهان على سذاجتنا. على سخافة براءتنا في العصر الأميركي الذي يحتقر الحقيقة ويحتقر الضعفاء ويكره الأكثر منه عراقة والأعمق جذوراً في التاريخ. وما أغبانا نتساءل ونتألم عوض أن نَقْتل.

فالعصر الأميركي لا يفهم بغير القوة. القوة الغاشمة لا أية قوة كانت. ولكننا نحن نكتفي بالقتل في خيالنا.

نكتفي بأن نَلْعن، ونموت.

نموت ونَلْعن.

أو نموت ونبارك.

وان لم تقتلنا أميركا واسرائيل، قَتَلَتْنا دولنا، وشعوبنا، وأصدقاؤنا.

فلا مكان لنا في مكان.

لا مكان لنا إلا في خيالنا.

ولا مكان لخيالنا في هذه الأمة.

فهي إمّا ضاربة أو مضروبة، وفي الحالتين تريدنا رعايا وضحايا، لا مواطنين ولا بشراً أحراراً ولا خصوصاً مفكرين.

لا مكان لنا في هذه الأمة إلا لنكرهها ضاربة ونبكيها مضروبة.

ونحن المنفيين فيها أكثر من يحبّها حين تقع، لأننا أكثر من يحبها حين يكرهها.

وأكثر من يموت فيها حين تُقْتَل.

* * *

ومثلك أمام كل خطأ من أخطاء الغرب تشعر بميل قوي إلى التنديد به، إلى التنكر له، وتركض نحو معانقة الشرق الضحية، العرب الضحايا، مماهياً الدفاع عن الضحية بفكرة الحقيقة، ودامجاً ما بين الخطأ الغربي وروح الغرب باطلاق.

ولكنْ أيّ غرب كنت أُحب حتى أكره الآن؟ لم يكن يوماً غرب المال والسلاح، غرب النازيين القدامى والجدد، غرب الاستعمار والهيمنة، ولا غرب العنصريّة.

كان غرب الشعر والشعراء، والفن والفنانين، والفوضويين والمثاليين والرومنتيكيين والرمزيين والسورياليين، غرب الوجوديين والعبثيين، غرب ادغار الن بو وبودلير، غرب شكسبير واللورد بيرون، غرب نوفاليس وشيلر وغوته، غرب باخ وموزار وبيتهوفن وفاغنر، غرب سرفانتيس وفرنسوا فيّون وكافكا ورمبو ولوثريامون وبروثون وايلوار، غرب دانته وفيفالدي وفردي وبيرانديللو، غرب والت ويتمان وفولكنر وهنري ميللر وطوماس اليوت، غرب برغمان وفلّليني وفيسكونتي وشارلي شابلن، غرب عصر النهضة والانطباعية، غرب مااللارميه، غرب شرق العقل والروح والخيال والجسد، غرب الخلق المتدافع بالخلق، غرب الحياة كمغامرة حتى الموت، لا غرّب الموت كمغامرة بل وكحساب دقيق منظم ضد الحياة وأبرياء الحياة وعشاق الحياة.

هذا الغرب ليس هو مَن تقوده الحكومة الأميركية في «عاصفة الصحراء». وقبلها ضد لبنان. وقبله ضد فيتنام. وقبلها وبعدها في أية عملية بغي أو خطأ تاريخي. هذا الغرب ليس غرب أحد، ولا هو غرب شعوبه، فكيف بمثالييه وفنانيه. هذا الغرب هو نادي الرأسماليين والعنصريين، وهم أعداء الغرب كما نحن أعداؤهم. الغرب الآخر، غربنا، ضحيّتهم كما نحن ضحيتهم.

وفي غمـرة ثورتنـا على هـذا الغرب القـاتل، تـرتفع فيـه فجـأة أصواتٌ منه تلعنه.

تلعنه أكثر، أشد مما نحن نلعنه.

وتُخجله أكثر مما نحن نُخْجله.

وتصيبه في الصميم.

وتفتديه.

إنهـا روح الحقيقة لا تقـوى عليها ريـاح الجحيم ولا تسكتهـا وشائج العِرْق والدم.

وهو ما نفتقده في هذه الأمة.

***

الغرب يحارب الشرق كلّما قوي ويتغنّى به كلما ضعف. ولا مرة حصل العكس.

اقرأ المستشرقين تَرَهم يتحدثـون عن مؤلفين عـرب (أو شرقيين عموماً) بمـا يبرر «اكـزوتية» الحـديث. العرب الفـاكهة. الشرق الهامش، النائم في غابة التـردّي ينتظر عـلى الدوام فـارساً من الغرب ينفض عنه غبار الجهل والظلام.

وكلمـا قام بلـد عـربي أو شرقي من النـوم، بصرف النظـر عن أسلوب قيامه، تَجمّع الغرب ضده.

ممنوع عرب اليقظة والقوة. ممنوع شرق الاستقلال والمشـاركة في ادارة العالم. المسموح به هو شرق البكاء والبكاء على الشرق. والمسموح بهم هم عرب الصعلكة والتحجّر والتبعية.

***

بعد تدفيع العرب أمـوالهم ثمن أسلحة، حـربٌ لتحطيم أسلحة العرب واستهلاك ما تبقّى من أموالهم.

أقوى أعداء العرب ليست اسرائيل بل عقولهم؟

***

أصبحت أمـيركا امبـراطورة العـالم، فهل يكـون ذلـك بـدايـة لمشكلاتها الداخلية الكبرى؟

التنافس الذي ظل قائماً على هذا العرش بينها وبين روسيا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية انتهى بفوزها الساحق عندما انهار الستار الحديدي وبدأتْ الامبراطورية السوفيـاتية في التفكـك. وكل ما فعلته بعض دول أوروبا الغربية لإظهار وجود قـوي لها في النزاعات العالمية والاقليميـة استوعبتـه أميركـا. منذ نهـاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ والسياسة الأمـيركية تطمـح إلى تنصيب واشنطن عاصمة لامبراطورية العالم وقـد استسلم الجميع أمام روما الجديدة إمّا مهزومين بالسلاح أو مكسـورين بالجوع أو مغسولي الذاكرة من جذورهم ومقتلَعـين إلى العادات الأميركية.

وإذا لم تستطع أميركا احتلال العرش الامبراطوري الأوحد بلا منازع قبل هذا التاريـخ، فلأنهـا كانت، في نظـر فلاسفتهـا، لا تزال مراهقة، ومشكلاتها كانت مشكلات المراهقة لا الانحطاط. أما اليوم فهي قد رشدت. وعلى الجميع أن يدركوا ذلـك، وانهم الإخـوة الصغار في حضرة الشقيق الأكبـر أو الإخوة الهـرمون الخرفانـون في حضرة الشقيق الجبّار، وانهم الأبنـاء القاصرون والزوجات والخليلات والخادمـون والخادمـات في بلاط صـاحبة السيادة على الأرض وفي الفضاء.

وما زاد كان من الشرّير.

***

كان الرومان أميركيي ما قبل المسيح.

كانوا يحكمون العالم ويقهرونه، ولكنهم، كما تقول سيمون فايل في كتابها «انتظار الله»، كانوا مصابين تماماً بالصمم والعمى في كل ما هو شأن روحي، وظلوا على هذه الحال إلى أن اعتنقوا الديانة المسيحية فأصبحوا على شيء، قليل أو كثير، من الانسانية.

أميركا روما الجديدة ليست مسيحية. ربما كل الدول «المسيحية» ليست مسيحية وربما معظم المسيحيين ليسوا مسيحيين لكن أميركا أكثرهم لا مسيحيةً.

والذي قال مرة إن اميركا بلد بلا روح أصاب وأخطأ. أصاب بالمعنى الديني، ففي محل الروح الدينية يبدو كأن هناك، في أميركا، «ترتيبات» ميتافيزيكية، جهاز ضبط وتوزيع اجتماعياً أخلاقياً. وأحياناً يتعطل فتحصل ظواهر جنون وإجرام تزيد أو تزيد أكثر حسب الظروف. وكلتاهما، الجريمة والفضيلة، تبدوان مجردتين من «الصوفية». ويسوع، وفي غفلة من الأميركيين أنفسهم، لا يزال يهودياً في أميركا. هو فعلاً من سلالة داود، ولكن بدون تعديل في الشريعة. وأنبياء اليهود هم قدّيسو مسيحيّ أميركا. ويسوع الأميركي أميركي. انه إذن ليس بيسوع المسيح.

وأميركا، مع هذا، لها روح. لا أتكلم عن الشعب الأميركي الطيّب، الحماسيّ، الحارّ، أتكلم عن أجهزة السلطة في أميركا، عن السياسة الأميركية، عن «فلسفة» السياسة الأميركية و «روحها». هذه الروح هي روح الربح. الربح مهما كلّف الأمر. لقد رفعت أميركا فكرة الربح إلى مرتبة الألوهة.

وطبعاً كل هذا الكلام ليس اكتشافاً. وهو لا يغير شيئاً. ولكننا

في لبنان نحب أن نقوله اليوم لمناسبة اكتواء غيرنا بعدنا بنار «العدالة» الأميركية.

ولو أننا نحن اكتوينا بالواسطة لا مباشرة.

ولكنه كيّ العصر نفسه، العصر الأميركي ـ الاسرائيلي.

وها هو يَعد العرب والشرق الأوسط قائلاً: اقبلوا تدميري لكم، وسأمنحكم بعد الدمار حياة جديدة! وسأحل كل مشكلاتكم بالعدل والحق! ولن تكونوا إلا مسرورين! ولكن قبل ذلك موتوا... إن موتكم شرط للثواب!...

وهكذا نعود إلى الموت.

الله الأميركي هو أيضاً يرسل الموت قائلاً لا تخافوا إنه حياة جديدة.

ولعلها أن تكون حياة جديدة حقاً بعد الموت خلاصاً من كل هذه البشاعة.

* * *

هل أنا جاد حين أوحي أنه كان علينا أن نقتل بالفعل لا في خيالنا وحده؟

كنتُ جاداً فاهتديت...

اهتديت عندما رأيت القتل الأميركي.

أُفضّل أن أظل أَقْتُل في خيالي حتى لا يشملني العصر الأميركي.

أنا الضعيف، المهزوم، القتيل، بضعفي وهزيمتي وانقتالي، أرفض العصر الأميركي.

أعيش خارجه.

وأطرده حيثما استطعت وحيثما عجزت.

وأطـرده حيثما امتـدّ ظلي المسكـين تحت القمر والشمس، عـلى مدى صوت الحب والشعر والحريّة.

* * *

وليسامحني الضحايا، ولتسامحني العـدالة، وليسـامحني الدم البريء المسفوك، لتسامحني الأرض إذا قلت إني رغم كل شيء أغفرُ للقاتل.

ليسامحني لبنان وفلسطين والعراق وجميـع الآخرين في المـاضي والحاضر والمستقبل.

أغفـرُ، رغم القهر العميق، لأني لا أستطيـع أن أكـون جـلّاداً. وكل انتقام جَلْد.

أَغفـرُ لأني لا أعرف سـوى الغفران وسيلـة تُنقّيني من خطيئة جلّادي.

أَغفرُ لأنّ هذا هو انتقامي.

هل أتكلم لغة لا يستطيع أصحاب العلاقة أن يَقْبلوها؟

ليس ذلك مهماً.

لنعرفْ أن نكون ضحايا عندما لا نستطيع أن نكون جلّادين.

ولنعرفْ أن نصعد دائماً حين سوانا يهبط.

وليس أجمـل من الصعـود انتصـاراً عـلى مـا يجعلنـا نُشْبـه مُضطهدِينا.

* * *

أسألُ عن أصدقائي شعراء العراق، في الداخل والخارج، أسألُ عن جبرا، وعبد القادر، ونازك، وعبـد الوهـاب، وبلند، وكـاظم، وسركـون، وصلاح، وسعـدي، وعبد الـرحمن، وهـاشم، وعبـد الكريم، وجليل، وخـزعل، ويـوسف، وزاهر، وشـاكر، وفـاضل، وفـوزي، وباسم، وخـالد، وغـيرهم، وغيرهم، كيف هُم، أين هُم،

هؤلاء المقدمون المتقدمون دائماً في العالم العربي، الروّاد، الأبطال، المتطرفون الرائعون، ليتني أستطيع أن أفعل لهم ولبلدهم شيئاً.

شيئاً غير البكاء بلا دمع.

غير البكاء بلا بكاء.

غير البكاء.

* * *

فجاةً تصفعك الأحداث.

ترميك من أعاليك وتنثرك في العاصفة؟

فوق رمال الصحراء.

تنتزعك من دفء قلبك وترميك في المهبّ.

تحت دعس الخيل.

ومع هذا، وفجأة أيضاً، تنتهي عاصفة الصحراء.

وينتهي كل شيء.

وتعود دورة أُخرى.

وأيضاً تنتهي الدورة.

ولا يعود باقياً غير القمر والشمس،

وظلٌّ صغير تحتهما.

ظلٌّ على مدى صوت الحب والشعر والحرية.

ظلٌّ صغير يروح يكبر، ويكبر، ويظل يكبر، ليصبح ذات يوم في حجم الأرض كلّها.

محمد برادة

رفع الحصار
عن التاريخ العربي!

منذ البدء، وبدون تردّد، أقول مع الكثيرين بأن أزمة الخليج تُشكل منعطفاً هامّاً في مجرى التاريخ العربي الحديث خاصة، وفي مجال العلائق الدولية واستراتيجية مصالح الدول المتصنّعة و «الكبرى»، بصفة عامة.

ما يهمني شخصياً في هذا المقام، ليس الظرفية السياسية وملابسات الأحداث وخلفياتها، وحوافز الأفعال وردودها وتبريراتها، وإنما أتوقف عند تأثيرات أزمة الخليج عُمقياً في مسار التاريخ العربي الحديث، وفي بنيات أوليات التحوّلات المواكبة لهذا الصراع المفجّر لعددٍ هامّ من القضايا المسكوت عنها في الحقل السياسي والايديولوجي العربي.

ما هي طبيعة التحريك الذي تحمله أزمة الخليج لسيرورة التاريخ العربي؟ أعتقد أن العراق، باكتساحها للكويت يوم ٢ آب/ اغسطس، لم تكن تنجز فعلاً يترجم ويُخمن جذرية القضايا المحايثة لمثل هذه الممارسة. على العكس، أتى الاجتياح بمثابة رد فعل على توتّر العلائق بين العراق والكويت ودول الخليج وأيضاً مع الولايات المتحدة الأمريكية. صحيح أن «ماضي» العراق في عهد الرئيس صدام حسين يفصح عن نوايا

وتوجهات قومية (بناء دولة قوية عسكرياً، مصارعة اسرائيل استراتيجياً، التصدي لإيران في مرحلة سياستها الشوفينية..)؟ لكن الأبعاد الايديولوجية التي طرأت على الخطاب السياسي العراقي بعد الاجتياح والجذرية المميّزة لها، لا تتوفر على مصداقية في المرحلة السابقة سواء من حيث الإعداد للفعل التاريخي عبر التعبئة الواسعة للجماهير العربية، أو من حيث إقامة ديمقراطية داخلية تعطي الاعتبار للمواطن ولآرائه وتُشركه فعلياً في اتخاذ القرار. من ثمّ بَدَتْ الدعوة إلى استثمار بترول العرب لصالح الجماهير وإزالة الفروق الكبيرة بين أغنياء العرب وفقرائهم (وهي دعوة صحيحة لأنها تستجيب لانتظار حقيقي لدى العرب من الخليج إلى المحيط) وكأنها دعوة مفاجئة تثير الحماسة بدون أن تكون نتيجة لتحليل وأفقاً لنضال.

لكن ـ وكما قيل ـ فإن التاريخ كثيراً ما يُحركه الأسْوأ. لذلك لا يمكن أن نحصر أزمة الخليج في جانبها «القانوني»، لأن الاجتياح ولّد سلسلة من ردود الفعل وشخّص حدثاً وصراعاً سياسيين، وفتح أمام الحاضر العربي الذي كان يبدو مَرْنوقاً، إمكانات للحركة والتبدُّل. من هذا المنظور، أعتبر اجتياح العراق للكويت مجسّداً لما يسميه الفلاسفة «سيرورة الازدواجية» (أو تَساوي الحدّيْن Processus de l'ambivalence)، وأنه يضعنا أمام ظاهرة لها طرفان متناقضان ويصعب الاختيار بينهما:

ـ فَمِنْ جانب، يخرق الاجتياح العراقي «القانون» الدولي وحقوق المواطنين والمقيمين في الكويت، ويُشكل سابقة خطيرة... الخ.

ـ ومن جانب آخر، فإنه يُحرك تاريخاً عربياً مَوقوفاً، مُعاقاً، من خلال كَشْفه لممارسات وتناقضات هي أُسُّ الرزايا: التبعية العربية لمراكز المال العالمي الذي يستنزف منتوجات بترولنا،

التبذير الملازم لظاهـرة البترو ـ دولار، التفـاوت غير المقبـول في المنطق القومي بين البِتْرُوليين واللاّبِتْرُوليين العرب، نِفاقُ أمريكا والغـرب تجاه مفهـوم حقوق الشعـوب واحترام قـرارات الأمم المتحدة والقانون الدولي... الخ.

على ضوء هذه الملاحظات، أَعتبر أن «التحـريك» الـذي أَحدثَـه اجتياح الكويت هـو ذو طبيعة ملتبسـة، لكنه ـ ومهمـا اختلفتْ مـواقفنا المبـدئية ـ سيُخلِّف تـأثـيرات عميقـة قـد لا تتطـابق بـالضرورة مع «نـوايا» المحـركين والفـاعلين راهنـاً في الساحـة السياسية. وبالنّظر إلى المشهـد السياسي العـربي العام الـذي ينـدرج ضِمنه هـذا الحدَث، فـإن بالإمكـان اعتبار التحـريـك إسهاماً من الفكـر السياسي القـومي العربي مُمثـلًا في تجربـة البعث العراقي. ذلك أنه إذا اعتبرنـا أن الساحـة العربيـة، في الفترة الأخيرة، يتَوَزّعها تياران أساسيان: الإسلاميون بمختلف تَلَاوينهم، والقوميون الموجودون أساسـاً في الحكم، فإن التيـار القومي الذي كان مُنهكاً وغارقاً في التناقضات، قـد وجد نفسـه بعد التحريـك المواكب لـلاجتياح، أمـام إمكانـات لتجديـد أُفق الصراع واسترجاع ثقة الجماهير المفقودة. وأُلح على أنها مجرد إمكانات لأنها ناتجـة عن رد فعل، وتقتضي استيعـاءً ومراجعـة نظـرية، وتغييـراً في الممارسـة السياسيـة. من هذه الـزاويـة، سأحاول أن أشير إلى بعض تأثيرات أحداث الخليج على الفكـر السياسي والايديولوجي العـربي، مُتجنّباً التحليـل المعتمد عـلى منطق الربح والخسارة وَفْقَ مقاييس سياسية مادية محض.

يمكن أن أضـع على رأس التـأثـيرات العميقـة، فتـح الطـريق للانتقال من مرحلة التاريخ العربي «المتفاوت» إلى مرحلة الفعل التاريخي «المتساوي». ذلـك أننا عشنـا ـ إلى حِقبة قـريبة ـ في دوّامة التحليلات القائمة على اعتبار التفاوت التاريخي المـوجود بـين بلدٍ عـربي وآخر نتيجـةً لِسَبْق بعض الأقطار في الاتصـال

بأوروبا ونشوء تشكيلات اجتماعية بورجوازية، وتحويل البنيات الاقتصادية... الخ، وهي تحليلات لا تخلو من صحة ولها أهميتها بدون شك، ولكن المآزق المتتالية والانكسارات المتواترة (وخاصة في مشاريع الوحدة العربية) التْ كلها إلى ترسيخ المرارة لدى الجماهير، وإلى إقامة نوع من التعايش الغرائبي بين فُسيفساء أنظمة تتراوح بين التيوقراطية، والإقطاعية، والدكتاتورية، والتعدّدية الشكلية الضامنة لاستمرار الحكم الفردي! اختلطت المقاييس، وتَساوت الخطابات، وتعمَّق الانفصام بين المجتمع المدني وهيكل الدولة القمعي، السلطوي. ولولا استمرار المقاومة الفلسطينية وانبثاق الانتفاضة، وبُروزُ تعلُّق المواطنين العرب بالديمقراطية وحقوق الإنسان، لَحَسِبْنا أن التعايش ضمن مقولة التفاوت التاريخي، وتفاوُت الثّروات، وتَساوي أجهزة القمع، هو نصيبُنا في الدنيا والآخرة!

لذلك، فإن ميزة التحريك المواكب لاجتياح الكويت تتمثل أساساً في إخراج الأزمة العربية العميقة من الظل إلى مجال الرؤية وبسرعةٍ لم نكن نحلم بها. وهذا ما يَدفعني إلى القول بأن ذلك «التفاوت» في جميع أشكاله، سيعرف «تسوية» تزيل النتوءات العائقة للآليات العربية عن الدوران بإيقاع مُواكب لمنطق العصر وصراعاته. وأعتقد أن أهم المتغيرات التي «ستُسوِّي» التفاوت العربي، هي:

- اهتزاز المرجعيات: أقصد المرجعيات الايديولوجية سواء كانت مستمدَّة من ماضينا أم من الفكر السياسي الأوروبي، لأنها في نهاية التحليل أصبحت شاشة تحول بيننا وبَيْن أن نعيش التاريخ - الواقع لِحِسَابنا بوصفنا كياناً له امكانات هائلة ومصالح تَفرض وحدةً للدفاع عنها. إن غَلَبَة المرجعية على أهم التيارات المتصارعة في الحلبة (القوميون، الاسلاميون، الماركسيون) أدَّى إلى إحكام سيطرة خالقي تلك المرجعية...

- المصالح قبل الأخلاق: وخاصة في مواقف أمريكا والغرب اللذين طالما دثّرا مواقفهما بأبعاد «إنسانوية» «تمدينية». وفي هذه الأزمة الراهنة أفصحا عن الحوافز الاقتصادية وتأمين المصالح.

- اهتزاز مفهوم «الريادة» والقيادة التاريخية: يصعب منذ الآن، والقول الفَصْلُ للأفعال لا للنوايا والتصريحات النوستالجية، أن نستمر في بناء تفكيرنا وتحليلاتنا على اعتبار دولة عربيةٍ ما، مركز الثّقل والقيادة. ذلك أن الأحداث الأخيرة في الوطن العربي تُعطي الأولوية للأفعال التي تُجدّد الممارسة والسياسة، وتفتح أفقاً حقيقياً للصراع من أجل استكمال التحرر، والتخلص من التبعية وتحقيق وحدة المصالح في ظل الحوار الديمقراطي. ومن ثم لا فرق بين أن يأتي الفعل من «المركز» أو من المحيط.

- إمكاناتُ الانتفاضة الفلسطينية كممارسة: إلى جانب الدور السياسي الهام للانتفاضة على طريق مقاومة الاحتلال الصهيوني، فإنها تحمل تجديداً في طرائق النضال والتغيير الاجتماعي المعتمد، أساساً، على المجتمع المدني. إنها إبراز وتَثْمين للإمكانات الذاتية مثلما أنها تشخيص للفعل الديمقراطي الذي يُذكر الجماهير، على امتداد الوطن الكبير، بأن الحق (مِن مُغْتَصِب الأرض أو مِنْ مُغْتَصِب السلطة) يُؤخذ ولا يُعطى.

- نقدُ الايديولوجيا بَدَلاً من النقد الايديولوجي: تراكمتْ - خاصة منذ ١٩٧٠ - المشكلات والأسئلة والتحوّلات، ولم تنجح الأنظمة سوى في الحفاظ على السلطة بواسطة العنف والقمع ومضاعفة التفقير والتبعية. وبالمقابل، فإن القوى المناهضة للأنظمة على اختلاف اتجاهاتها (إسلامية، ماركسية، قومية

اشتراكية...) لم تستطع أن تُبَلور بديلاً للسياسة القائمة رغم عدم مشروعيتها وافتقارها إلى المساندة الشعبية. ذلك أن الصراع غلب عليه طابع النقد الايديولوجي الحريص على انتقاد ايديولوجيا «الخصم» لتبرير صلاحة ايديولوجيا المنتقِد، فيما يظل الواقع المستجِد وأسئلته مُغيّباً. وللخروج من هذه الحلقة المفرغة، لا مناص من نقد الايديولوجيا نفسها ـ وكيفما كانت منطلقاتها وخلفياتها ـ اعتماداً على مقارنتها بالواقع وبممارسة معتنقيها. وبذلك نستطيع أن نستوعب مستويات الوعي والممارسات «الضمنية» التي تفرزها التجربة المعيشة. وأظن أن أزمة الخليج تطرح من جديد وبقوة، الأسئلة الحقيقية التي تتطلب أجوبة جديدة بعيداً عن اجترار الأناجيل الايديولوجية الجاهزة: كيف نحرر الارادة السياسية العربية؟ كيف نتخلص من الاحتلال الأجنبي ومن التبعية؟ كيف نُحرر المواطن من الوصاية السلطوية ومن الفكر الظلامي؟ كيف ننقل الديمقراطية من منطقة الحلم إلى الممارسة؟... الخ.

باختصار، فإن جميع هذه المتغيّرات تحتّم التفكير بجذرية وبدون استمرار في مراعاة مقولة التفاوت التاريخي بين المجتمعات العربية، فالأمر يتعلق ـ في العمق ـ بمستقبل الحاضر لا بمستقبل الماضي. وجميع ما تثيره أزمة الخليج يُؤكد ـ إلى إشعار آخر ـ أن العرب محكومون بمقتضيات جيو ـ سياسية مشتركة تستدعي صراعاً واضحاً ضد الأجنبي وضد السائرين في ركابه.

كيف، إذن، نلخص تأثيرات أزمة الخليج، في المدى البعيد، على الوطن العربي؟ لا شك أن السؤال هو مُستقبلي بطبيعته مهما التصق بالواقع. ومن ثم، فإن التصورات التي أقدمها لا تتوخى التحيُّز لجانب ضد آخر في الجانب الظرفي للصراع، وإنما أحاول أن أنطلق مما أعتبره ضرورياً لمجتمعاتنا ولفكرنا.

ومن ثم أركّز على العناصر التي تُشكّل أفقاً للتحليل والنضال وإمكاناتٍ لتفاؤل الإرادة:

١ ـ تحطيم شرنقة الإقليمية بين الشعوب العربية، وكَنْس عفَن الأنظمة. إنه لم يعد مقبولاً الاستمرار في هذه التجزئة وفي هذا التعايش بين السلطات على حساب مصالح المواطن العربي. ومن الخطأ القول بأن بعض الشعوب لم تنضج بعد لتحمُّل مسؤوليتها الديمقراطية. ولا شك أن هذه الأزمة ستكشف الوعي المتقدّم للمواطنين في دول الخليج، وهو وعي غُيّب وراء استغلال مشوه للخطاب الديني ووراء دكتاتورية ما أنزل الله بها من سلطان. وأظن أن بعض الكتابات الأدبية العربية بالخليج تؤشر على بروز وعي حداثي تُؤرقه الأسئلة العربية المشتركة نفسها.

٢ ـ ضرورة إعادة صوغ مقاييس الانتماء إلى الوطن العربي: على ضوء مواقف ملموسة، يتحتَّم التمييز بين الذين يَنْتمون إلى أرْصِدَتهم البنكية وإلى فَلَك الشركات المتعدّدة، وبين الذين ينتمون إلى الأرض والتراث ومعركة الصراع الديمقراطي. فمِثل هذا التمييز هو ما يُتيح الخروج من شرنقة المزايدة باسم الدين والأرومة أو بدعوى ضرورة المستبد العادل. فكل هذه الأوهام يجب أن تسقط من خلال بلورة الوعي العربي الجديد المحبوس قسراً داخل الأقبية والسجون أو المبعد عن مراكز التقرير.

٣ ـ تحرير الثقافة العربية: لا أظن أن الثقافة العربية الحديثة ـ على الأقل في انتاجها المتقدم ـ أغفلت جذور الأزمة، بل إنها استطاعت أن تُشكل جزيرة مضيئة وانتقاداً عميقاً للمناخ الكابوسي الجاثم على المجتمعات

العربية (خاصة في الأعمال الأدبية التي التقطتْ عبر التخييل والرؤى وتعدُّد اللغات عناصر الصراع ومأساة الكينونة...). لكن هذه الثقافة تظل محاصرة ومُطاردة. ولا مناص من التفكير في تحرير ثقافتنا من جميع أشكال الوصاية والتدجين. إن بديل ثقافة البترو - دولار هو ثقافة تستجيب لانتظار حقيقي لدى الجمهور العربي الذي لم يعد يقبل لغة الممالأة والسكوت عن القضايا الحيوية والتيّمات الجريئة..

أكتب هذه الكلمات وضجيج الحرب المحتملة في الخليج يعلو ساعة بعد أخرى. أكتب، والأخبار عن جرائم اسرائيل في غزة والقدس والضفة تتوالى.. أكتب وأصداء هبَّة شباب فاس وفقرائها وما خلّفته من ضحايا وخسائر، يَطِنّ في ذاكرتي... ثم أغمض عيني وأتساءل: ستكون خسائر الحرب فادحة ومؤلمة، لكن ألن تكون خطوة تقربنا أكثر نحو استعادة أنفسنا وهويتنا وإرادتنا المغيَّبة؟ ألن تتيح لنا الحرب أن «ننتفض» من الخليج إلى المحيط، لِنَنْصَهر في أتونها؟

نحن لا نريد الحرب، لكن التاريخ قد يتخايل أحياناً لِيكسر رتابة الصيرورة. ماذا سيخسر المواطن العربي أكثر مما خَسِره بالعيش وسط هذه المباءة.

بالحرب أو بدونها، أظن أن أزمة الخليج حرّكت القاطرة، ليس باتجاه ما يسعى إليه «الفاعلون» المباشرون وإنما باتجاه ما يؤمله متفائلو الإرادة، مثلي.

محمد برادة

روبنسون الأميركي في الجزيرة المتوحشة!

حاصرتني باستمرار، منذ تطور أزمة الخليج (فرضُ الحصار على العراق، بدء الهجوم صبيحة يوم ١٧ كانون الثاني/يناير) صورة ترسبت في الذاكرة عندما قرأت رواية روبنسون كروزو، وهي تلك التي تجسد علاقة روبنسون رسول الحضارة مع «الجمعة» الساذج البسيط الذي كان يعيش هنيئاً داخل الجزيرة. فالبطل روبنسون هو مبعوث ـ في سفره الخيالي ـ من مجتمعه «المتحضر» إلى الجزيرة «المتوحشة» ممثلة في «الجمعة»، وهو متلهّف على أن يُغير الرجل «الطبيعي» ليجعله يعتنق دينه هو، القائم على تفوق ثقافته وما حققته من إنجازات.. وكأن «الجمعة»، منذ أن خُلق داخل تلك الجزيرة، وهو ينتظر روبنسون الذي سيُضفي عليه صفة الإنسانية المتمثلة في قيم الرجل الغربي ومعرفته وحكمته...

هذه الصورة الكامنة وراء الحملات الاستعمارية «التمدينية» للغرب لا تفتأ تتكرر منذ قرنين من الزمان، منتحلةً الدعاوى الإيديولوجية نفسها التي تحاول إخفاء الأسباب الحقيقية لغزو الشعوب الضعيفة أو التدخّل لتأديبها وإرجاعها إلى الطريق المستقيم! إن شكل هذه الصورة يكاد يتكرّر في حرب الخليج مع

اختلاف في التفاصيل: فالولايات المتحدة التي تتزعّم الحرب وتضطلع فيها بالدور الأساسي، تشدّ الرحال إلى شبه الجزيرة العربية تحت غطاء التبشير بنظام عالمي جديد، وبدعوى أنها تمثل «الخير» الذي يتصدّى لـ «الشر».. أي أنها هي روبنسون الخالد الذي لا ينفك عن نشر الخير، وتقويم المعوجّ، «المتوحش»، المطبّق لـ «قانون الغاب»...

من ثمّ فإن ما لفت نظري وأنا أعيش، ممزّقاً، هذه الحرب غير المبرَّرة، هو الشّكل الملتصق بفصول هذه المأساة، والذي يحدّد معانيها ويضطلع بالإخراج في هذه المسرحية الأميركية ـ الغربية التي تستعمل الأرض والأموال والعناصر العربية لتنفيذها. إن شكل هذه الحرب يكشف عن نفسه في المواقف، والإجراءات، والعلامات وأيضاً الكلام المرافق للإنجاز. لذلك، فإن بعض عناصر الشبكل التي سنحللها تُسعف في إعطاء معنى أدق لهذه الحرب المتدثرة بشتّى الألوان والمعاني لدرجة يُصاب معها المحلّل بعمى الألوان!

إنني أقتصر هنا على تحليل الشكل المرافق لحرب الخليج كما يتجلى عند الأميركيين والغربيين أساساً، لأنهم هم القُوى الراجحة في صوغ هذا الشكل ومعانيه. وبالطبع، فإن هذه الزاوية من التحليل لا تنفي مسؤولية العرب (العراق أولاً باجتياحه الكويت، ثم بقية الدول العربية التي عجزت عن تطويق النزاع وانْساقت لمنطق الحرب الذي فرضته وغذّته أميركا). لكن، في جميع الحالات فإن نتائج هذه الحرب ستُعمَّم على مجموع الأقطار العربية سواء كانت في صفّ «المنتصرين» أو في صفّ «الخاسرين»، وعندئذ فقط سندرك أن أهداف أصحاب القرار في هذه الحرب لم تكن هي تحرير الكويت، أو معاقبة الخارج على القانون الدولي، وإنما هي أهداف أخرى...

لقد اخترت أربعة عناصر من شكل هذه الحرب، أعتبرها لافتةً

للنظر ومحمَّلة بالدلالات الظاهرة والمستترة. ولكنها ليست مستوفية لمجموع مكوّنات الشكل، خاصة وأن جزءاً من العمليات الحربية ظلّ مُغيباً نتيجة للرقابة المفروضة على وسائط الإعلام.

■ ١ ـ الاعداد للحرب

أميركا ذات سوابق في استعمال الأسلحة والحرب لحماية مصالحها وإخضاع المتمردين على هيمنتها. أحياناً يكون شكل التدخل سافراً مثل ما حصل في حرب الفيتنام، ونيكاراغوا، وغرينادا، وبناما، وأحياناً يكون بواسطة أجهزة المخابرات والعملاء (مَنْ قتَل أليندي في الشيلي؟). لكنها هذه المرَّة اختارت شكلاً آخر يوفّر لها الإجماع والمشروعية. فبدأ الإعداد للحرب من الأمم المتحدة لاستصدار قرار محاصرة العراق أولاً، ثم قرار من مجلس الأمن ثانياً لشنّ الحرب في حال امتناع العراق عن الانسحاب من الكويت. كل ذلك تمَّ في سرعة، نسبياً، وساعد عليه الوضع الجديد داخل الاتحاد السوفياتي... لكن هذه الخطوة الأولى تحتاج إلى بصمات أميركية تطبعها بشكلها الخاص، لذلك سارعت بتَنْصيب نفسها داعيةً ومنفذة لنظام عالمي جديد يحافظ على حقوق الشعوب، ويسهر على تطبيق العدالة. وسرعان ما وجدت الدعوة إلى إقامة نظام عالمي جديد صدىً واسعاً بين دول أوروبا (هل هي مجرد مصادفة؟) التي نفضت الغبار عن قاموسها الإنسانوي، وتناست معارضتها للإمبريالية الأميركية وسياستها التوسعية. هذا الجزء من «التشكيل» سيأخذ طابعه الملموس من خلال إلحاح أميركا على المساهمة الفعلية في الحصار ثم في تمويل الحرب؛ وبذلك جمعت من حولها ٢٩ دولة (من بينها ٩ دول عربية) تساهم بالجنود والأسلحة أو بالتمويل.. إلّا أن أموال النفط العربي تُغطي القسط الأكبر. واتضح للجميع أن أميركا هي رئيسة الجوقة

والمسؤولة عن قرارات الحرب والسلم. وبهذه الصفة، يمكن أن نفهم هذا الجزء من الإعداد للحرب الذي يستكمل شكله من خلال شروع أميركا، قبل الحرب، في توزيع المساعدات والمكافآت على بعض الدول «المتضررة» من أزمة الخليج (أليس في ذلك تشابه مع ظاهرة الجيوش المرتزقة، بدءاً من أميركا التي تمرّ بأزمة اقتصادية ووجدت في تمويلات هذه الحرب ما يحرك سوق الأسلحة وصناعتها؟).

وفي فرنسا، بالنسبة للإعداد، يلفت النظر أن الجنود المرسلين إلى الخليج هم من «المحترفين» كما ألح على ذلك المسؤولون، وإذن، فإن النّظام العالمي الجديد لا يدافع عنه المجنَّدُون من أبناء الأمة... وبالنسبة للقوات الأميركية فإن الجزء الأكبر يتألف من السُّود ومن أبناء أميركا اللاتينية الذين التحقوا بالجيش هرباً من البطالة... هكذا جمع الإعداد للحرب بين مبادىء الأمم المتحدة وبين مصالح أميركا وأوروبا على حساب الثروة والاتفاق العربيين.

■ ٢ ـ «تَنْظيف» الحرب

عنصر آخر بارز في شكل هذه الحرب، هو نظافتها. قبل بداية الهجمات والغارات وأثناءها، كان هناك حرص كبير من لَدُن القوات المتحالفة على إبراز الشكل الخصوصي لهذه الحرب، والمتميّز بأنه شكل «نظيف». للتَّدليل على ذلك، تعدّدتْ الطرائق: فقد أعلن بوش بأن هذه الحرب تُمثل صراع الخير ضد الشر (وبما أنه هو وحلفاؤه يمثلون الخير، فإن الله سيقف إلى جانبهم وسيكون النصر سريعاً)، ثم كان هناك احتفال باستعراض العضلات وترسانات الأسلحة المعقدة من طائرات وصواريخ وقنابل عنقودية ومتعددة الأغراض، وقنابل مرسلة بأشعة الليزر.. لدرجة أن المتتبع للأخبار أو القارىء للصحف

يَتِيهُ وسط هذه التسميات ثم يَنْساق لحفظ أسمائها وقراءة الشروح المتعلقة بدقتها وفعاليتها، ويستقر في ذهنه تفوق أميركا وحلفائها مما سيجعل الحرب قصيرة ونظيفة، أي بدون خسائر أو بخسائر قليلة ما دامت نجاحات التكنولوجيا ستضمن إصابة الأهداف العسكرية من غير أن تُدمِّر البشر! وهذا العنصر من شكل الحرب أصبح استيهاماً لدى القوات المتحالفة، انكشف في أول يوم من الغارات؛ فقد أُعلن عن تحطيم الطيران العراقي وعن تدمير جزء هام من الأسلحة والجنود، وأن «نظافة» الحرب أكثر مما كانوا يتصورون، وما أشبه اليوم بالبارحة (٥ حزيران/ يونيو ١٩٦٧)! وعندما تبيّن أن انتصارهم يستلزم قذارة أكثر، قرروا «تنظيف» الحرب بواسطة فرض الرقابة على الصور والأخبار وإخفاء عدد الضحايا من الجنود والمدنيين، مكتفين ببلاغات عن عدد الطلعات الجوية، وعن المنشآت العسكرية التي تمَّ تحطيمها. وحتى الصحافة الأميركية والغربية التي كانت تعتز بسلطتها واستقلاليتها، لم تَنْجُ من التوجيه والتسخير، مما جعل الرأي العام يشك في مصداقيتها ويُخمِّن الجوانب المظلمة التي تُخفيها هذه الحرب المقدَّمة على أنها ضد الدكتاتورية ومن أجل حماية الشعوب وقيم الخير والعدالة. وشيئاً فشيئاً، بدأ الحديث عن إمكانية استعمال القوات المتحالفة للمواد الكيماوية والبكترولوجية، بل والقنابل الذرية إذا اقتضى الأمر، ذلك من أجل «تنظيف» العراق من سكانه! وعلى هذا النحو، فإن «تنظيف» الحرب يظل عنصراً أساسياً في شكلها بالرغم من التحولات التي طرأت على دلالته.

■ ٣ ـ موقع إسرائيل

رسمياً، وحسب تشكيلة القوات المتحالفة من أجل تحرير الكويت، فإن إسرائيل غير مشاركة في الحرب. لكن مجرى

الأمور جعلها تحتل موقعاً بارزاً في شكل هذه الحرب وفي دلالاتها. وبغض النظر عن غرض صدام حسين من ضرب إسرائيل بصواريخ السكود، فإن ما يلفت النظر هو اندماجها السريع في الحرب بأشكال أخرى واستفادتها منها، مما يجعل الملاحظ يتساءل عما إذا لم تكن اسرائيل عنصراً أساسياً في شكل هذه الحرب. وبالفعل، فإن حكومة تل أبيب منذ بداية الأزمة لم تفتأ تصدر التصريحات والبيانات ضد حكومة بغداد، محرضة على تحطيم القوى العسكرية العراقية لإعادة «السلام» والتوازن إلى المنطقة!

وعندما وجّه العراق أول صاروخ إلى إسرائيل، انطلقت الجوقة المحترفة للعويل والبكاء والنَّدب واستدرار الشفقة. لقد كنتُ موجوداً بفرنسا آنذاك، وذُهلتُ للحملة الإعلامية الواسعة التي أخذت تساند إسرائيل وتدعو لحمايتها متناسية السعودية التي أصيبت بالخسائر الطفيفة نفسها ولكن أحداً لم يَرْثِ لحالها، مع أنها عضو أساسي في القوى المتحالفة. بسرعة فائقة، قفزت اسرائيل إلى واجهة الأخبار والشاشات التيلفزيونية: تضخيم الخسائر، استجواب المواطنين عن حالاتهم النفسية، التذكير بالمصائب والأهوال التي عاشها شعب اسرائيل.. بل إن رئيس الجمهورية الفرنسي اتصل هاتفياً بمواطن إسرائيلي يعرفه، ليسأله عن أحواله ويعبر له عن مساندته العاطفية.. كل هذا التدليل لإسرائيل ولا أحد يذكر القتلى والجرحى من الفلسطينيين وأبناء الانتفاضة. لكن اندراج اسرائيل في شكل الحرب سيأخذ مساراً آخر، وذلك بالإعلان عن «ضبط النفس» وعدم الردّ على صواريخ بغداد حتى لا ينفرط التحالف الأميركي ـ العربي..

وبذلك أخذت اسرائيل تحصد الفوائد في عزّ الحرب، فأرسلتْ إليها الولايات المتحدة صواريخ الباتريوت مع خبراء يُشغلونها،

وهبَّت ألمانيا تعرض المساعدات السخية، وتهافتتْ وسائل الإعلام على تَجيير صفحة الدولة الصهيونية لتغفر لها جرائمها ضد شعب فلسطين... لذلك يمكن القول بأن موقع اسرائيل في شكل هذه الحرب كان منذ البدء بمثابة البِنْية الغائبة، المضمَرة في ذهن مُخططي شكل حرب العقاب وإعادة التوازُن للمنطقة التي تعتبرها الولايات المتحدة ذات أهمية بالنسبة لـ «مصالحها الحيوية».

■ ٤ ـ الإعداد لما بعد الحرب

يبدو هذا العنصر الشكلي، على غرابته، مكوّناً أساسياً في شكل حرب الخليج، لأنه يَرْتَقُ فَتْقاً في نسيج الشكل العام ويُسبغ أرديةً إيديولوجية و«أخلاقية» على ممارسات لاإنسانية. هكذا منذ الأسبوع الأول لبدء الحرب بدأنا نستمع إلى تصريحات ومشاريع تُعدها القوى المتحالفة لما بعد الحرب. ووتيرة تكرار هذه النَّغمة جعلت الرجل العادي ـ على الأقل في أميركا والغرب ـ يعيش الحرب غير مفصولة عمَّا بَعْدَها. وهذا الشكل يضطلع بأكثر من وظيفة:

ـ فهو من جهة، يُخفف من الصدمة التي أَحدثتها المقاومة العراقية لأكبر الجيوش العالمية وكأن الأمر يتعلق بخطأ بسيط، وبوقت محدود.. ومن ثمّ، كثُر الحديث عن عدد طلعات الطيران وعن عدد الهجمات وعن تدمير البنيات العسكرية العراقية بدون الإشارة إلى القتلى من البشر (حتى العراق لم يكن يتحدث في البداية عن الخسائر في الأرواح حفاظاً على «الروح المعنوية» للجنود والناس!). إذن، الحديث عن ما بعد الحرب يمتص، في هذا المجال، الاهتزاز الذي أحدثته المقاومة لدى الرأي العام.

ـ ومن ناحية ثانية، فإن الحديث عن ما بعد الحرب هو تأكيد لانتصار جيوش الحلفاء التي استعادت تفوقها التكنولوجي من

خلال استعمال الباتريوت وطائرات ب ٥٢، ومحاولة لتبرير جميع الوسائل (بما في ذلك ضرب ملاجىء المدنيين) ما دام الهدف هو تثبيت دعائم نظام عالمي جديد، وحل جميع مشكلات المنطقة مع إعادة «بناء» العراق وتصحيح مسار التنمية والديمقراطية في العالم العربي! بعبارة أخرى، ليست الحرب هي المهمَّة (رغم أنها لم تنته بعد) بل ما بعدها هو الأهم لأنه سيقدم حلولاً لجميع المشكلات على يد الدول العظمى التي وضعت نفسها تحت تصرف الأمم المتحدة ومبادئها. هكذا نستطيع أن نفهم، مثلاً، التصريح الذي أدلى به ميشيل روكار رئيس وزراء فرنسا في السعودية قائلاً: «.. **هذه الحرب هي حرب من اجل كرامة العالم العربي ومن أجل إعطائه حظوظاً لتحقيق تنميَّته بطريقة غير طريقة تَصليب الأجهزة العسكرية**» (لوموند، ١٦ شباط/ فبراير ١٩٩١). أي أن ما بعد هذه الحرب هو بداية لعهد جديد، ولتعامل إنساني يُراعي به الغرب مصالح العرب ومستقبلهم. لكن تصريحاً آخر لمسؤول فرنسي (ڤوزيل) أثناء زيارته للمغرب يكشف عن شيء آخر، لأنه يبرر مساهمة فرنسا في الحرب بكونها ستكون ممثلة لأصدقائها العرب في «يالطا إقليمية» يتم خلالها توزيع مناطق النفوذ والمصالح الحيوية!

من خلال هذا التحليل المقتضب لبعض عناصر شكل حرب الخليج، تَتوضَّح السمة البارزة فيه والتي يمكن أن نُسميها شكل المواربة والإخفاء. ذلك أن كل عنصر من هذه العناصر الشكلية ينطوي على التدليس والازدواجية: فالإعداد للحرب استخدم المنظمة العالمية واعتمد استعراض العضلات العسكرية وأخفى البواعث الحقيقية وفي طليعتها أزمة المجتمع الاميركي... وتنظيف الحرب توخّى إيهام الرأي العام بدقة الأسلحة و«علمية» الحرب لستر الفجائع والخسائر المدنية... وإدراج اسرائيل في الحرب أكَّد ازدواجية المقاييس في التعامل

مع حقوق الشعوب وقرارات الأمم المتحدة... ويأتي عنصر الإعداد لما بعد الحرب ليطمس عمق الإشكالية، إذ بدلاً من تحرُّك دول أوروبا، على الأقل، لوضع حدّ للوصاية الأميركية المعتمدة على القوة ومنطق الحرب، فإننا نشاهد تحالفاً يرمي إلى تثبيت هذه الوصاية وإلى تأييد منطق يالطا وتقسيم العالم إلى مناطق نفوذ وتبعية.

إن شكل المواربة والإخفاء الذي توسلت به أميركا وحلفاؤها لشنّ هذه الحرب غير المبرَّرة ـ رغم خطأ العراق ـ ليؤكد من جديد حرص الغرب على إيهام الرأي العام العالمي باستمرارية قيَمه وتفوّقه من خلال محافظته على الكلمات والمقولات التي يتستَّر وراءها لِيُوهمنا باستمرار الأشياء والعلائق كما كانت من قبل.

لكن هذه المواجهة في الخليج أكّدت، لحسن الحظ، أن خرافة تفوُّق التقنية والأسلحة المعقدة قد اهتزت أمام مقاومة الشعب العراقي.. كذلك فإن أسطورة القيم الإنسانوية الغربية قد اهتزت بدورها في ضمائر الشعوب العربية التي شاهدت العُريَ الفاضح لأكاذيب أميركا والغرب رغم تَستُّراتهما على الأهداف الحقيقية.


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صبري حافظ

الحرب ومأساوية
علاقة المثقف العربي بالسلطة

لا يستطيع أي كاتب عربي مهما كان يقينه في ترف انفصال الأدب جزئياً أو كلياً عن السياسة أن يمسك القلم الآن ليكتب عن الشعر أو القص أو المسرح وهو جالس في أمن مكتبه، بينما تواصل أسراب طائرات الغرب العملاقة دكّ المدن والقرى العربية في العراق، وإلقاء أطنان من المتفجرات عليها يزيد حجم قوتها التدميرية يومياً عن حجم القنبلة الذرية التي ألقيت على هيروشيما، دون أن يرتعش القلم في يده بالحزن والغم والغضب الكظيم. ودون أن يشعر بمسؤولية المثقف العربي الفادحة عما آل إليه وضع الأمة العربية من تردٍّ وتدهور، وعجزه عن تبصير قومه بالأخطار التي تحيق بهم، وإخفاقه في فتح آفاق التغلب عليها أمامهم. لأنه إذا كانت المعارك السابقة قد دارت لمصلحة فريق عربي دون الآخر، فإن المعركة الآن تستهدف الفريقين معاً، لأنها تستنزف الثروة وتجهز على نوازع الثورة في الوقت نفسه. ولا يكسب منها إلا أعداء هذه الأمة التاريخيون والتقليديون. إنها تستخدم الثروة العربية لا لتحمي بها مصادر هذه الثروة أو تنميها، وإنما لتدمر بها الثورة العربية والحلم العربي في التقدم والخلاص، فتحترق الأمة على نيران تلتهم الثروة والثورة معاً.

استهداف الثورة والثروة

ويزداد هذا الإحساس بالمسؤولية والألم تفاقماً ومرارة، إذا ما تابعنا حركية الموقف العربي المهينة إزاء هذا التدمير المنظم للبنية الأساسية لبلد عربي، بغية إخراجه من القرن العشرين ودفعه قرنا كاملاً للوراء. ثم ما يلبث أن ينقلب هذا الإحساس المر إلى غيظ كظيم إذا ما تأملنا ما يقوم به عدد كبير من مثقفينا من تأكيد للتخبط وتكريس للفرقة والقسمة والبلبلة بعدما وجد الواقع العربي نفسه والغاً في طين حرب جديدة تسفر فيها المواجهة بين الحق العربي والمشروع النهضوي العربي من جهة والطامعين فيه والراغبين في تدميره من جهة أخرى عن نفسها هذه المرة بشكل مباشر دون التخفي وراء شكليات الصراع المحلي أو تمويهات الكيان الصهيوني الصغير الذي يدافع عن حقه في البقاء. وتتبلور عبرها عمليات الاستقطاب والتغيير الحادة التي انتابت الواقع العربي منذ ضربة ١٩٦٧ القاصمة وحتى اليوم، بصورة تبدو معها كل المتغيرات التي انتابت الواقع العربي في العقدين السابقين، والتي استهدفت استبدال حلم الثورة العربية التي خرجت من مراكز الثقل الحضاري والسكاني تطالب بحقها في غد أفضل، بعصر الثروة العربية الطالعة من حقول النفط في فدافد الصحراء الخاوية، وكأنها لم تكن إلا التمهيد الضروري لتلك المنازلة الحضارية الكبرى التي تعصف بالثروة والثورة معاً، والتي تتكرر فيها فصول المواجهة بين الغرب والمشروع النهضوي العربي منذ بدء ما سمي بعصر النهضة وحتى اليوم.

تدفع البلايين للأجنبي وعسكره ويُضنّ على الانتفاضة بالفتات!

فمن تابع أزمة الخليج منذ بدايتها، ثم راقب أحداث الشهر

الأول لتلك الحرب الضارية التي تشنها الولايات المتحدة بأرقى ما في ترسانتها المسلحة من أسلحة للدمار، وتستخدم فيها كل ما سبق أن أعدته للمواجهة مع الاتحاد السوفياتي من أسلحة متطورة، يعترف عسكريوها أنفسهم بأن معظمها لم يستخدم من قبل في أي عمليات حربية، يدرك على الفور أن ثمة فجوة كبيرة بين الهدف المعلن للحرب، وهو تحرير الكويت، والغايات الحقيقية المضمرة لهذه الحرب الضارية غير المتكافئة، والتي بدأ الإعداد لها قبل دخول الجيش العراقي للكويت بوقت طويل. فلا يستطيع الغرب نفسه أن يبرر كيف سلّح العراق حينما ناب عنه في تحجيم إيران، وكيف استدار الآن ليدمر لا آلته العسكرية وحدها، وإنما بنيته الحديثة كلها. ولا يستطيع أن يفسّر كيف يحتاج تحرير الكويت إلى تدمير كل مرافق البنية الأساسية للعراق، أو بالأحرى بنية مشروعه التحديثي النهضوي. من تدمير شبكة المياه والمجاري والطرق والكهرباء والاتصالات، إلى تهديم المستشفيات والمدارس والمعاهد والجامعات، وباختصار إخراج العراق كلية من القرن العشرين، والدفع به إلى عصور التخلف حيث يستمتع بها المشاهد الغربي وهو يجد أن قوته التقنية المتفوقة قد دفعت النسوة إلى النهر من جديد بجرارهن وبملابس أسرهن يغسلنها في النهر. في مشهد ينتمي حقاً إلى القرن الماضي، بل ويزيده القرن العشرين بشاعة لأن النهر لم يعد نهر القرن الماضي النظيف نسبياً فقد طاله تلوث القرن العشرين الكيميائي، وزادت الحرب الضارية من حدة هذا التلوث. وذلك بعد أن أجهزت آلته العسكرية باقتدار على شبكة المياه كلية، دون أن يستطيع جهازه الإعلامي الهائل أن يبرر لنا كيف أن شبكة المياه ومجمعات تنقيتها، بل وحتى شبكة المجاري ومحطات ضخها والتخلص منها، من الأهداف العسكرية.

ولا تعنيني هنا تفاصيل الجدل السياسي الذي كالت فيه جميع الأطراف الاتهامات لبعضها البعض بالعمالة والخيانة. فقد امتلأت الصحف العربية بمقالات لم ينج أحد من الاتهام بالخيانة فيها، بدءاً من المثقفين وحتى رؤساء كل الدول العربية الأساسية المشاركة في هذه المأساة التي لن يستفيد منها أي طرف عربي على الإطلاق. كما لا يعنيني أيضاً تلك التيارات التي تعزي المسألة إلى عداء الغرب المتأصل لنا، وكأن الأمر قدر لا فكاك منه، واتهام يكفي توجيهه لتفسير كل شيء، والتحلل من المسؤولية. ولكن ما يعنيني هنا هو البعد الثقافي لهذه المنازلة الحضارية غير المتكافئة بين إرادة الأمة العربية في التقدم، ورغبة الغرب في إخضاع هذه الأمة والسيطرة عليها. أو بالأحرى لأحدث فصولها، لأن هذه المنازلة الحضارية ليست بأي حال من الأحوال من الأمور الجديدة على تاريخ المنطقة. فقد تعرض المشروع الحضاري العربي في العصر الحديث للضرب كلما تبرعم وأخذت وعوده في الاقتراب من مرحلة التحقق. فلم يطو التاريخ بعد فصول ما جرى لمشروع جمال عبد الناصر التحديثي والتحرري الذي تم تدميره والاجهاز عليه كلية في السبعينات، وبعد أن اكتملت فصول هزيمة ١٩٦٧ بمعاهدة كامب دافيد. ولا يزال الجدل دائراً في أروقة الضمير العربي حول طبيعة هذه الجولة الأخيرة ودروسها. وإن نجح التضليل في طمس ملامح الجولتين السابقتين وفي الابتعاد بدروسهما عنا، وهما جولتا الإجهاز على مشروع محمد علي النهضوي، وعلى مشروع الخديوي اسماعيل التحديثي من بعده. فما يشغلني هنا هو كيف تتم هذه المواجهة أربع مرات، على مدى قرن ونصف من الزمان، قرَّ في العقل العربي أنه زمن النهضة والتنوير، دون أن نتعلم شيئاً من دروس هذه المواجهات، ودون أن نستطيع التغلب على أخطائنا التي تتكرر كل مرة بشكل جديد لا نهضة فيه ولا تنوير.

وحتى نتعرف على الأسباب التي دعت إلى تكرار فصول هذه المنازلة الحضارية كل مرة بشكل جديد، تزداد آثاره التدميرية والثقافية والحضارية في كل جولة عما كانت في الجولات السابقة عليها، لابد لنا من تناول أربع قضايا أساسية أولاها والتي تترتب عليها القضايا الباقية هي غياب الرؤية العربية للعالم وعدم تحولها إلى يقين شعبي ثابت، وثانيتها هي مأساوية العلاقة بين المثقف والسلطة، وثالثتها هي التناقض في مسار الفجوة بين الخطاب المعلن والهدف المضمر، ورابعتها هي غياب الأفق الاستراتيجي للتفكير العربي والتخبط المستمر في شبكات ردود الفعل. وهذه القضايا الأربع هي في حقيقة الأمر قضية واحدة ذات تجليات وتبديات مختلفة كما سيتضح من تناولنا التفصيلي لكل واحدة على حدة. وما تقسيمها إلى هذه الأقسام الأربعة إلا من أجل تيسير التناول وتوضيح القصد. ولنبدأ بما أعنيه بالرؤية الغائبة:

■ الرؤية العربية الغائبة

إذا كان المثقف العربي يزعم أنه يمثل عقل هذه الأمة، ويشكل ضميرها، ويعبر عن مطامحها، ويبلور أحلامها وصبواتها، فإنه لا يستطيع أن يتحلل من المسؤولية عما حاق بها نتيجة غياب الوعي بحقيقة رؤيتها للعالم، لا عن الدول والقوى المحيطة بها فحسب، وإنما عن أبنائها وساستها أنفسهم. فمن أهم الأدوار التي تلعبها الثقافة في حياة أي أمة من الأمم، العمل على بلورة رؤيتها للعالم، تلك الرؤية التي تنبع من معتقداتها وتاريخها ومن طبيعة وعيها بهويتها وبمكانتها في العالم ومكانها المرتجى فيه، ومن طبقات ثقافتها التحتية بمعناها الاجتماعي الشامل والذي تتم صياغته في المأثورات والمعتقدات الشعبية والملاحم والأغاني. ولا تكتسب رؤية العالم تلك أهميتها من أنها ترهف وعي الأمة بهويتها وتعمق فهمها لحاجاتها وأهدافها البعيدة

والقـريبة فحسب، أو من أنهـا تزود خطـاها صـوب المستقبل، وتبلور معايير حكمها عـلى من يمتلكون مقـادير التصرف فيهـا، ولكن أيضاً من أنها ضرورية لأن يفهم العالم الخـارجي حقيقة هـذه الأمة ويتعـرف على طبيعـة مشروعها الإنسـاني وحلمهـا بمستقبـل أفضل، بـل ويشارك إذا مـا اقتنع بمشروعيـة هـذا الحلم في تيسير سبل تحقيقه.

لكن ما يهمني الآن هو تأثير غياب تلك الرؤية عـلى واقع الأمـة العربية وما جلبه عليها من تدهور وتردٍّ لا يدفع أبناءها إلى قتال بعضهم البعض، ولكن، وهذا هو الأدهى والأمرّ، إلى الاستعانة بالأجنبي ضد العربي ثم الوقوف للتفرج على تدمير وطن عربي برمته. فقد عرفنا مرارة أن يقتتل أبناء الوطن العربي بـدلاً من أن يتحدوا منذ حارب العربي أخاه العربي في اليمن وفي لبنـان وفي السودان ومنذ حشد السادات القـوات المصرية عـلى حدود ليبيـا الشقيقة، وحشـدت الجزائـر قواتهـا على حـدود المغرب، وحاربتها عبر البوليساريو في الصحراء. وكانت هـذه الاقتتالات في واقـع الأمر هي الفصـل الأول من فصول هـذه الجـولـة في المنازلة، وهي التمهيـد الذي يهيىء العقـل أو الجنون العـربي، سمه ما شئت، لقبول فصولها العربية المزرية. لكن ما خفف من وطأة هذه المرارة أو موّه عليهـا أن الإخوة عـادة ما يتقـاتلون، وأن بعض هـذه النزاعـات كانت تعكس حيـويـة الاجتهـادات العـربية في البحث عن مستقبـل أفضل، بينمـا يعزى بعضهـا الآخر إلى مؤامرات الأعداء علينا واستعمالهم العملاء للـوقيعة بين الأشقاء. لكننا لم نعرف من قبل وضعاً مزرياً بهـذا الشكل الـراهن الذي لا تنقسم فيـه الأمة عـلى نفسها فحسب، وإنمـا يقف قسم كبير منها في خندق أعدائها التقليديـين، وتقف الدول العـربية كلهـا مكتوفـة الأيدي أمـام عسف الآلـة العسكـريـة الأمـيركيـة بمشروع عـربي حضـاري وتـدمـيره، بينمـا يصرخ

الإيرانيون والباكستانيون والهنود والروس وحتى بعض أبناء الشعوب الغربية احتجاجاً على ما يدور، والدول «العرب» ساكتة، بل ومشاركةٍ في الإثم العظيم.

ألم تسكت هذه الدول نفسها قبل هذه الأزمة عن اجتياح الصهاينة للبنان في صيف المهانة العربية، وعن عسف الصهاينة بأبناء فلسطين البواسل وبانتفاضتهم المجيدة. ويقف العالم كله دون حراك، اللهم إلا من كلمات الاستهجان في وسائل الإعلام، بينما الصهاينة يطلقون النيران على المصلّين المسالمين في حرم المسجد الأقصى، ويكسرون بكعوب البنادق عظام الأطفال الفلسطينيين العزل إلا من الحجارة وروح التمرد والثورة على مد الأرض الفلسطينية التي لا تريد الاستسلام لذل الاحتلال بعد أكثر من عشرين عاماً من ليله البهيم. فكيف يمكن أن نفسر لأبنائنا في المستقبل هذا الوضع المهين، الذي يتحرك فيه العالم كله لحماية مصالح الغرب، بينما يصاب بالصمم المزمن إزاء الحق العربي، وكيف يتنادى الإعلام الدولي كله لاستنكار أقل إساءة تلحق بإنسان غربي، بينما لا يأبه بسقوط العشرات والمئات من أبناء الشعب العربي، بعيداً عن تلك التبسيطات المخلة بأن الغرب يحمي مصالح عملائه سواء أكان هؤلاء العملاء من الصهاينة أم من السعوديين أو الكويتيين. أو حتى بعيداً عن تفسير المسألة بالمصالح وحدها، فأنا لا أنكر أن وراء الحرب الدائرة الآن ضد العراق مصالح وأهواء، فأي نظرة إلى خريطة القوات المحاربة الآن في الخليج تجد أنها تتطابق من حيث الحجم والجنسية مع خريطة المصالح الغربية فيه. فالولايات المتحدة التي لها أكبر المصالح في المنطقة لها أيضاً أكبر القوات فيها، وبريطانيا التي تليها من حيث العدد تليها أيضاً من حيث حجم المصالح ثم تأتي بعد ذلك فرنسا، وهكذا حتى نجد عدداً من القوات الصغيرة التي

جاءت بها تبعيتها لإحدى القوى صاحبة المصلحة، أو مطامعها في الحصول على نصيب من الغنيمة، أو جيء بها للتمويه وإكساب العملية صيغة دولية. ولكن تفسير الأمر بالمصلحة وحدها يهتم بالعرض دون المرض من ناحية، وينطوي على التسليم بأن الوضع طبيعي ولا أمل في تغييره من ناحية أخرى. كما أنه لا يفسر هذا الانقسام الحاد في الوطن العربي بالصورة التي دفعت شريحة كبيرة منه، شعوباً وحكاماً، للوقوف ضد مصالح أمتها ومستقبلها، بوعي منها أو دون وعي.

■ إخفاق مشروع النهضة

فقد طال الجدل حول فكر النهضة العربية وحول إنجازات حركة التنوير في الوطن العربي، وهو جدل لا أود الدخول فيه الآن إلا للتأكيد على أنه لو كانت ثمة نهضة أو تنوير عربيين، لما آل حال الأمة العربية إلى هذا التردي المهين. فأولى إنجازات أي نهضة هي بلورة رؤية وطنية نهضوية للعالم يتجمع حولها أفراد الأمة ويستخدمونها محكّاً للحكم على الأفراد والمؤسسات، وسراجاً لفهم الوقائع والأحداث في ضوئه. فبهذه الرؤية النهضوية تستطيع الأمة أن تحدد غاياتها الاستراتيجية وأهدافها التكتيكية، وأن تقرر وفقاً لذلك ما يمكن المساومة عليه والتسامح فيه، وما لا يمكن التنازل عنه أو المماراة في حقها فيه. وبتحول هذه الرؤية إلى قناعات ومؤسسات في الواقع العربي تصبح نوعاً من الروادع المانعة التي تحول دون الحكام والخونة من التأثير على مسار الأمة أو عقلها والعبث بحقوقها. فلو كانت النهضة العربية قد رسخت في الواقع العربي على مد قرن ونصف من استقصاءاتها قيمة العقل، لما استطاع أحد العبث بعقلها وتضليلها، أو قيمة حرية الفكر والاجتهاد، لما استطاع حاكم العصف بمفكريها. ولو كانت قد كرّست حقيقة أن هذه الأمة العربية كيان عضوي واحد، لما سهل بتر أي جزء

منه، ولما سمحت بأن يستدير عضو منه ضد الأعضاء الأخرى، ناهيك عن أن يستعين بكيان غريب عليه، أو يتحالف مع عدوه ضده. ولو استطاعت النهضة أن تبلور رؤية عربية للعالم، لعرف العربي عدوه من صديقه، ولما اختلطت الأوراق بهذا الشكل الغريب الذي تستطيع معه أجهزة الإعلام أن تدير عقل شعب بأكمله، ولما استطاع حاكم عربي واحد أن يقف مع أعداء الأمة دون أن يفقد عرشه في اللحظة التالية. ولأدى هذا لا إلى احترام الأمة لنفسها فحسب، وإنما إلى احترام الآخرين لها كذلك، فليس هناك من يحترم إنساناً لا يحترم نفسه.

وقد يعزو البعض كل ما يدور من خلط إلى أننا نعيش في عصر الثورة الأليكترونية الذي سيطرت فيه أجهزة الإعلام وثورة المعلومات، وأن هذا لا دخل له بأن يكون للأمة رؤيتها المتميزة للعالم، لأن هذه الرؤية سرعان ما تتراجع للوراء أمام سطوة الإعلام في استخدامه للمعلومات، ولكن هذا غير صحيح، لأن الإعلام والمعلومات عادة ما يسخران لخدمة هذه الرؤية ولا يمكنهما زعزعتها لو كانت راسخة في وجدان أمة من الأمم، وحتى أوضح ما أقول أتساءل: هل باستطاعة حاكم عربي مثلا أن يعلن على شعبه أنه ملحد وأنه يتبع الشيطان ولا يؤمن بالله دون أن يعني هذا سقوطه في اليوم التالي مباشرة؟ فلماذا يستطيع حاكم عربي أن يلحد بوطنه وبأمته وأن يتبع أعداءها، ومع ذلك يظل هذا الحاكم آمناً على عرشه وعلى سلطته؟ لا يمكن لهذا أن يتحقق إلا لأن وطنية هذه الأمة، وأنا أتحدث هنا عن الوطنية البسيطة المجردة بعيداً عن أي اتجاه أيديولوجي، لم تتحول بعد إلى مرتبة العقائد الراسخة فيها، والتي لا تقبل المساومة عليها كما لا تقبل المساومة على دينها ومعتقداتها. ولا يمكن لهذا أن يتحقق، وقد تحقق، إلا لأن مثقفي هذه الأمة لم يقوموا بدورهم التنويري الذي يبلور رؤى الأمة ويحولها إلى

عقيدة ثابتة فيها. فبدون هذه الرؤية/ العقيدة لا يستطيع المثقفون أنفسهم القيام بدورهم التنويري، ويظلون سادرين في وهاد التبعية للمؤسسة السياسية تارة، وللعدو الأجنبي أخرى، وعاجزين عن تجاوز المهمة التبريرية إلى المبادرة التنويرية، ناهيك عن التوعية أو القيادة التثويرية.

فما لم نعمل على بلورة رؤية عربية للعالم لها ملامحها الوطنية وخصائصها القومية الواضحة، وترسيخها في الواقع العربي حتى تتغلغل جذورها في الوعي والوجدان، وحتى تصبح لها مؤسساتها القادرة على حمايتها والتصدي لمن ينال من رواسيها من الأفراد أو المؤسسات، عرباً كانوا أم أجانب، لن نستطيع أن نلتف كعرب حول قضايانا، ناهيك عن إقناع العالم بعدالتها، مهما كانت فداحة التضحيات التي نقدمها من أجلها.

■ العلاقة المأساوية بين المثقف والسلطة

أهم إشكاليات الواقع الثقافي العربي هي إشكاليات العلاقة المأساوية بين المثقف والسلطة. وهي إشكاليات قديمة حديثة تطفو على السطح بين آن وآخر. وقد انشغل المثقفون العرب الآن بأحدث تبدياتها التي يشتط البعض ويدعوها بخيانة المثقفين، بعدما كشفت عنه أزمة الخليج من ذيلية الكثيرين من المثقفين للسلطة وتبعيتهم لأهوائها، ومن مقدرة بعضهم البهلوانية على الالتفاف حول أنفسهم مائة وثمانين درجة، والانتقال من معسكر إلى المعسكر المضاد وفق تقلبات البورصة وتغير أسعار الدفع، بصورة تضاعف من مسؤولية المثقف، ومن يدفعون له، عما أصاب الاثنين من تردٍّ وتدهور. فما اقترفته بعض النماذج المنحطة من «المثقفين» من قفز بين قوائم الدفع ومنابر الثروة أو الثورة إبان هذه الأزمة مما يندى له جبين الثقافة عاراً، لمن الأمور التي ستحتاج الحركة الثقافية العربية

إلى زمن طويل للبرء من هوانها. ذلك لأن الثقافة العربية التي عملت عبر عقود وأجيال على كسب قدر من احترام الجمهور لها، وتقديره لاجتهاداتها، سرعان ما تخسر بعملية قفز مهينة واحدة ما بنته عبر عقود وأجيال بدماء جيوش من المثقفين وتضحياتهم في علاقتهم المأساوية مع السلطة، وفي تصديهم لموجات التدهور ومؤامرات التبعية والهوان.

وتعود ذيلية قطاع كبير من المثقفين إلى كثير من الأسباب التاريخية والحضارية، أهمها غياب الحرية عن أفق الممارسات السياسية والثقافية في معظم أرجاء الوطن العربي. وسيطرة العقلية العشائرية والقبلية التي لا تتسامح مع الرأي المخالف لشيخ القبيلة. وتبعية المؤسسة الثقافية للمؤسسة السياسية وعدم استقلال المثقف اقتصادياً عن مؤسسة السلطة. لأن جماهير القراء العربية لم تستطع بعد أن تكون هي الراعية الاقتصادية الأولى لكتابها، وبالتالي يصبح الكاتب مسؤولاً أمام جمهوره لا أمام ولي نعمته في مؤسسة السلطة. ومنها أيضاً عدم تحول الإنجاز الفكري والقيمي الذي بلورته الحركة الثقافية العربية في سعيها لتأسيس أسس التفكير العقلي في العصر الحديث إلى مؤسسة ثقافية تضيف الأجيال اللاحقة فيها لبنات جديدة لما أرست الأجيال السابقة دعائمه. ولا تصبح الحركة الثقافية بغيابها نوعاً من الدوران في حلقة مفرغة تحاول فيها الأجيال المعاصرة تأسيس ما بذل جيل طه حسين زهرة العمر لتأكيده، بل ما حاول جيل رفاعة الطهطاوي بلورته في الواقع الثقافي العربي من جديد. ومن يتناول قيمة ثقافية واحدة كالعقلانية أو حرية الرأي مثلاً ويتابع تاريخها في واقعنا الثقافي على مر القرنين الماضيين، سيجد العجب العجاب في هذا المجال الذي يدور فيه الفكر العربي على نفسه دورة كاملة كل عقدين من الزمان يكرر فيها كل ما حاول السابقون تأسيسه.

وهذا كله من نتاج ما سميته بالعلاقة المأساوية بين المثقف والسلطة، وهي العلاقة التي جنت على طرفيها معها، فلم تستفد منها سوى السلطات الذيلية أو التابعة وحدها، لأن السلطة ذات المشروع الحضاري العربي والرؤية النهضوية أو التحديثية، عانت هي الأخرى من مأساوية تلك العلاقة معاناة المثقفين نفسها منها. وقد بدأت هذه الطبيعة المأساوية للعلاقة منذ عصر محمد علي الذي جاء إلى السلطة بناءً على ثورة المثقفين على أوامر الباب العالي. فقد قاد المثقفون المصريون في هذا الوقت الثورة على الحملة الفرنسية بالرغم من تعامل بعضهم معها. وعندما رحل جنود الحملة بدأ هؤلاء المثقفون في ممارسة دورهم السياسي، ففرضوا على الباب العالي العثماني تعيين محمد علي واليا على مصر. وأرادوا أن يكون لهم دور التوجيه والتحكيم بين الوالي والشعب، فما كان من محمد علي إلا أن أطاح بهم. ليس فقط لرغبته في الانفراد بالسلطة كما يقول بعض السذج، ولكن لسببين أساسيين: أولهما أن كلاً من السلطة والمثقفين يزعم أنه يمثل الشعب وينوب عنه، ومن هنا فلا سبيل لحسم هذا الصراع على تمثيل الجماهير الصامتة والتعبير عن مصالحها وأمانيها إلا بالعنف، وثانيها أن محمد علي كان يمثل السلطة ذات المشروع الحضاري، وأن هذا المشروع الحضاري كان أكثر تقدماً في محتواه ورؤيته من رؤى الكثير من مثقفي هذا العصر، وأن سباق هذا المشروع ضد الزمن يستدعي استئصال المعارضة بدلاً من تضنييع الوقت في كسبها أو إقناعها بجدواه.

وهكذا ولدت مأساوية العلاقة، فإذا كان المثقف الذي أتى بالحاكم ذي الرؤية أو المشروع الوطني هو أول ضحايا مشروعه الحضاري، وهذه هي سر مأساة المثقف، فإن رجل السلطة ذا المشروع الحضاري لا يقل عنه مأساوية، لأنه يجد نفسه

مضطراً إلى العصف بالقوة الوحيدة القادرة على فهم مشروعه المستقبلي، وبالتالي على حمايته وتخليصه من مثالبه. إذ يعزل نفسه برؤيته المستقبلية عن الواقع وعن المثقفين معاً، ويعادي المثقف الذي يعرقل مشروعه الحضاري مؤقتا، فيستأصل بهذا العداء إمكانية ازدهار المثقف الذي يحمي هذا المشروع ويسوغه للجمهور. ومع أن المثقف عامة، وعلى مد التجارب العربية السابقة يستفيد من مشروع السياسي ذي الرؤية القومية والوطنية والحضارية، فإن عداء السلطة له يفلّ في قدرته على الفاعلية في المشروع وحمايته. كما أن غياب مناخ الحرية من حوله يحول دونه والقيام بدور الحماية والتصحيح. وحينما يتعرض المشروع للضرب يبكيه المثقف الذي عارضه، ولا يجد السياسي السند الذي يساعده بشكل إيجابي في معركة حمايته. هذا الأمر تكرر مع محمد علي واسماعيل ومع عبد الناصر، وسوف يتكرر ولا شك في الجولة الحالية. وتتسم مأساوية هذه العلاقة كذلك بسمة إضافية، وهي أن السلطة التي تدرك أنها لا تستطيع إدارة المؤسسة دون مثقفين تستوعب أو تحتوي عادة أسوأ شرائح المثقفين وأقلها أصالة، مما يزري أحياناً بقيمة الثقافة نفسها. كما أن بعض المثقفين يستنكفون تأييد انجاز المشروع الحضاري للسلطة، حتى ولو كان هذا الانجاز مما طالب به المثقفون من قبل، فمجرد أن المؤسسة السياسية المعادية له هي التي أنجزته يفقده قيمته. ومن هنا يؤكد المثقف عدم قدرته على فصل الذاتي عن الموضوعي، وعجزه عن تحكيم العقل في الموقف بعيداً عن العاطفة أو الثارات الشخصية.

فبدلاً من أن ينهض المثقف العربي بدوره القيادي في توعية الأمة بما يحيق بها من أخطار، وبدلاً من القيام بدوره في اختراق حجب المستقبل والكشف عما تخبئه للأمة من شراك،

ها هي جماعة المثقفين تنقسم على نفسها في سعيها لتكريس تبعية المثقف للمؤسسة بين مؤيد لجحافل الاحتلال الغربي المنظم، وهي تعود للمنطقة وقد ناداها الحكام الذين لا تأمين لعروشهم إلا بوجود الأجنبي المباشر بعد أن عجزوا كممثلين له عن اقناع شعوبهم بالدفاع عنهم، وبين مناهض لهذا التدخل، أو مدافع عن ضم العراق الكويت بالقوة. وقبول جماعة المثقفين للقسمة على اثنين بدلاً من طرحهم لاجتهاد قومي مستقل ينير الطريق أمام أبناء أمتهم لفهم القضية المطروحة عليهم بعيداً عن التبعية أو التبرير لتصرفات النظم والحكام هو أحد أعراض حالة التردي تلك، وهو النتيجة المنطقية لغياب الرؤية الجمعية العربية للعالم ولذاتها ودورها ومكانتها، وعجزها بالتالي عن أن تتحول إلى مؤسسات شعبية راسخة، أو إلى قناعات فكرية راسخة لدى جماعة المثقفين أنفسهم. وغياب هذه الرؤية هو الذي يفسر لنا تلك التناقضات الصارخة التي كشفت عنها الأزمة من قبول نظم عربية دفع البلايين للأجنبي، بينما كانت تضن على الشعب الفلسطيني وانتفاضته الباسلة بالفتات، ومن تفضيل حكام «عرب» الحياة تحت سيطرة الأجنبي على الحياة في ظل الشقيق العربي، ومعاملتهم هم وشعوبهم بجلافة للأشقاء العرب، حتى ولو كانوا يبنون لهم بلادهم أو يعلمون لهم أبناءهم، واستخذائهم أمام الغزاة الأجانب حتى ولو كانوا يعاملونهم بصلف وازدراء.

غالي شكري

«بداية التاريخ»

هل يعني سقوط الاستبداد «نهاية التاريخ»؟ يستفز السؤال سؤالاً: من الذي يضع نهايات التاريخ أو ما الذي يصنعها؟ وهل للتاريخ من نهاية؟

تذود المتغيرات عن اجوبتها، فالمنتصرون هم الذين يقفون خارج التاريخ فتصبح هزيمة المهزومين هي النهاية. ويغدو «النصر» هو البداية.

ولكن هل شارك الغرب في مصارع الاستبداد؟ أم ان الغرب من نافذته الرأسمالية كالغرب من نافذته الاشتراكية، قد شارك في توطيد القمع بطول ما يسمونه «العالم الثالث» وعرضه؟ ألم يكن مكارثي صاحب الاسماء المختلفة هو الذي يدفع عن الانظمة الدكتاتورية المتخلفة غائلة الديمقراطية ويحميها من المعارضة ويثبت أقدامها في مواجهة «الآخر» أياً كان الآخر شيوعياً أو ليبرالياً أو هندياً أحمر؟ ألم يكن ثلاثة أرباع الطغاة في هذا «العالم الثالث» من صنع المكارثية المستفيدة من تراث النازية. كان هذا الغرب في المدارس والجامعات استاذاً متخصصاً في الديمقراطية يلعن بلادنا التي لم تعرف الليبرالية. وخارج هوامش الكتب كان الحليف الأمين لحكوماتنا الدكتاتورية وخصماً عنيداً لمن يصدقونه ويفكرون في الليبرالية؟

ألم يكن بعساكره يوماً وبرشاويه أياماً وبإرهابه في معظم الأحوال ظهيراً لأبشع ما عرفنا من حكام وأنظمة حكم؟ فما الذي تغيّر؟

ألم يكن ستالين صاحب الأسماء المختلفة هو الذي بارك الطغيان الذهبي باسم العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين و«تحالف قوى الشعب العاملة» و«الاتحاد الاشتراكي» و«التنظيم الطليعي»؟ ألم تكن الستالينية هي الوعي والممارسة في حياة المعارضة وأنظمة الحكم التي استولت على الماضي والحاضر والمستقبل باسم الحق الإلّهي الجديد في السلطة، الحق الطبقي والحق الاممي وحقوق القيادة التاريخية، فكانت محاكم التفتيش أكثر هولاً من شقيقاتها في العصور الوسطى. اتخذت من العدالة والثورة والجماهير عناوين أكثر بريقاً - ولهيباً - من عناوين المسيح والشيطان. ومنحت صكوك الغفران للقادرين على شراء بضعة قراريط في الجنّة الموعودة على الأرض بعد مئات أو آلاف أو ملايين السنين؟ ألم تكن الستالينية بأسمائها المختلفة هي التي غرست «قانون الإيمان» الجديد في بلادنا وبلاد غيرنا؟

تلك هي إنجازات «الغرب» بنافذتيه الزرقاء والحمراء، فما الذي تغير، أو ما هو «التاريخ» الذي انتهى؟

لعل ذلك الزعيم الغربي الذرائعي هو صاحب الحكمة البديهية الغالية: التاريخ؟ انه يبدأ وينتهي كل يوم.

وكل ما حدث هو أن الستالينية انتحرت في عقر دارها، فالتأم الشمل - أو يكاد - في نظام واحد يقود العالم، وليس في «نظام عالمي جديد» عنوانه الديمقراطية التي صرعت الاستبداد. لم يكن لأصحاب النافذة الزرقاء أي فضل في تحطيم النافذة الحمراء للبيت الغربي الواحد. كانت الستالينية هي التي تولت

المهمة منذ وقت بعيد. وكان الأشقاء الزرق حريصين فقط على إقامة «البيت الأوروبي الموحد»: الموحد السوق والطاقات والخامات والأيدي العاملة. ولكن الذي حطم «الجدار» هم المقهورون والحالمون وراء الأسوار المزيفة الإحمرار. لم يكن لأولئك أي فضل «ديمقراطي» على هؤلاء. كانت الديمقراطية قادمة لا محالة، لأن الستالينية بدأت رحلة الذهاب.

وبدأ الغرب رحلة التوحد. ولم يكن لهذا التوحد أية علاقة بالديمقراطية. وإنما كان اقتراحاً أوروبياً بما يسمى «النظام العالمي الجديد»، فقد انتهى التاريخ الثنائي بين غرب الغرب وغرب الشرق. وأصبح التاريخ مؤهلاً للانتهاء بمعنى حلول الجغرافيا مكان الايديولوجيا. استنفدت الثنائية التاريخية أربعة عقود ونصف العقد. وها هو عصر «الوحدة والتنوع» يطل من خلال تعدد الأقطاب: القارة القديمة والقارة الجديدة وبلاد الشمس المشرقة المعروفة باسم اليابان.

وبدت الأمور وكأن كل شيء على ما يرام. خلال أقل من عام تم إنجاز وحدة المانيا وانهار الكوميكون وحلف وارسو، وفي الوقت نفسه بدأت رحلة «التفكك» في المفاصل السوفياتية. وكان «جوع الشتاء» إيذاناً بالتعري من ثياب الدولة العظمى.

كان التاريخ أمامنا والبعض لا يراه. أما الذين رأوه فقد انقسموا بين قائل: إنه النظام العالمي الجديد بتعدد أقطابه، وقائل: انه النظام العالمي الجديد بانفراد القطب الواحد. انتهى حقاً ثنائي غرب الغرب وغرب الشرق، وبدأت حقاً كذلك وحدة الغرب بقيادة القارة الجديدة. إذا كانت الجغرافيا قد حلّت مكان الايديولوجيا، فان «القارة الجديدة» هي التي أنهت التاريخ القديم لتبدأ الجغرافيا الجديدة.

عشية إعلان «البيت الأوروبي الموحد» عام ١٩٩٢ كان

الاعتراض الدوي على تعددية ما سمي النظام العالمي الجـديد. وكـان من نصيب العرب الـذين لا يملكون أشيـاء عديـدة انهم يملكون مادة المواجهة بين اقتراحـين لغرب واحـد. وهي ليست النفط وحـده، وإنما إضـافة اليـه هي الجغرافيـا أو التـاريـخ الجديد أو «بداية التاريخ».

ويقول الناس في كل مكان ـ وربمـا يقولـون في كل زمـان ـ انها الحرب العربيـة ـ العربيـة. والمفارقـة الأولى انها حـرب الغرب والغـرب. والمفارقـة الثانيـة ان «التحالف» هـو الصراع عينـه، والقيادة كانت واحدة موحدة من دون شبهة أو التبـاس. انتصر الغرب؟ بل انتصرت القطبية الواحدة لعالم اليوم والغد، وربمـا الى عقـد من الـزمـان. وكنّـا نحن العـرب «سـاحـة» المعـارك و«مناسبة» القتال، أما الحرب فلم نكن طرفاً فيها وان كنـا أول وأكبر ضحاياها. كنّـا الوقـود والبيت المحترق. تكفلنـا بالـزيت والنار وعود الثقاب، وقدمنا أنفسنا قرباناً لا يغفر الخطايا.

وفي عيون الجحيم «رأينا»، فهل رأينا؟

قلنا: نحو نظام عربي جديد، فأين القديم؟ لم نكن قد رأينا:

ان انفصـال ١٩٦١ كان المقـدمة الأولى لهـزيمة ١٩٦٧. وعـلى النقيض من الهتاف الفاجع؛ لو ان «الوحدة» استمـرت بالعنف لكُنّـا وكُنّا، فـان صلاة الغـائب كـانت الـديمقـراطيـة. لا شيء «يستمـر» من دونها. ولـولا العصر (شروق الدولـة الستـالينيـة العظمى وغروب الأمبراطـوريتين العجـوزين ولعبة التـوازن بين القطبـين الجديـدين) ولولا هـدير الحلم الـوحدوي خـاصـة في سوريا، ولولا شخصية جمال عبد الناصر البطل القومي الوافـد من السـويس، لما استمـرت «الوحـدة» ثلاث سـاعات لا ثـلاث سنوات.

ليست هناك «ممنوعات دولية» بمعنى القدر، وإنما هناك مصالح

متعارضة، وأساليب متباينة. أقام «الوحدة» في واقع الأمر خصومها، لذلك أشرف بعضهم على «الانفصال» وشارك البعض الآخر في دعمه، بالتمهيد أو التأييد. لم تكن «الجماهير» صاحبة المصلحة في الوحدة، في سلطة نظامها. كانت «منحة» النظام الجديد لجماهير الوحدة تغييبها وحرمانها من حماية وحدتها.

ولم تكن «للإمبريالية العالمية» ولا «للصهيونية» ولا للستالينية أية مصلحة في قيام الوحدة. ولكن الذين أجهزوا عليها بالتخطيط والتنفيذ وبالسلب والايجاب، هم الذين أجهزوا على الديمقراطية وحقوق الانسان.

ثم أقبلت هزيمة ١٩٦٧ امتداداً معقداً للانفصال. كان «الدرس» الذي تلقاه بعضنا من محنة الانفصال أن الانكفاء على الذات هو صمام الأمان من الرياح العاتية، وان هذه الرياح هي «الممنوعات الدولية» و«العرب أنفسهم». كان المضمر في هذا الدرس هو الغياب المطلق عن الوعي الديمقراطي. وكان البديل هو التنمية القطرية المستقلة. تنمية «احتاجت» الى مزيد من غيبة الديمقراطية، فالجراحات الاقتصادية من تأميم وحراسات فرضت المزيد من القهر والقمع. وكان «الاتحاد القومي» في مصر قد تسمّى بالاتحاد الاشتراكي. وكلاهما كان النموذج «الرائد» للتنظيمات السياسية المشابهة في الأقطار الراديكالية. وهكذا أصبح العرب محكومين في بعض أقطارهم بالحق الإلّهي، وفي البعض الآخر باسم الثورة، وفي البعض الأخير من دون الحاجة إلى أية حقوق أو تسميات. وبالرغم من ذلك فوجىء العرب بهزيمة ١٩٦٧. كانت الشعارات قد استحالت «إيماناً» لا يعتوره الشك بأن الحكم والشعب والثورة ثالوث مقدس لا يهزم. وإذا لم يكن الانفصال قد أسفر عن ضحايا، فقد أقبلت الهزيمة بركاناً لا يخمد من نيران الدم المنفجر من جسد أمة وروحها.

هنا كانت المراجعة العربية الشاملة تدور حول التكنولوجيا: الدولة «العصرية» والتحدي «الحضاري». وتكلمت أنظمة الهزيمة كثيراً عن سيادة القانون، ولكن الوعي الديمقراطي لم يصل بعد. قيل إن «الامبريالية» و«الصهيونية» قامتا بالضربة وهو صحيح. وقيل اننا لم ننهزم، لأن الهدفين «الامبريالي» و«الصهيوني» لم يتحققا، لأنهما كانا يستهدفان اسقاط النظام «الثوري»، الأمر الذي لم يحدث.

وهو صحيح، فالانظمة لم تسقط، وكان بقاؤها برهاناً مروعاً على عمق الهزيمة ومدى بشاعتها. حلّت التكنولوجيا ـ التي جربها محمد علي وانكسر منذ قرن ونصف ـ مكان الديمقراطية. كانت الوحدة نفسها، فالتنمية، وأخيراً التكنولوجيا بدائل متعددة لشيء واحد هو الديمقراطية. وكان الانفصال تعبيراً قاسياً عن الوهم الوحدوي في غيابها، كما كانت الهزيمة تجسيداً مضنياً لوهم التنمية من دون ديمقراطية. ومرة أخرى، فان غرب الغرب وغرب الشرق، كانا في صف واحد الى جانب الدكتاتورية: مصدر الهزيمة، اذا تمثلنا كافة أبعادها. ولكن الصراع بينهما كان يدور في عصر الحرب الباردة حول: في أي اتجاه تصب هذه الدكتاتورية.

وبالرغم من ذلك، فقد كنا في ذلك الزمن طرفاً في حرب. لم نكن مجرد ساحة للمعارك أو مناسبة للقتال.

كذلك الأمر في اجتياح لبنان وغزو بيروت عام ١٩٨٢. اكتملت دائرة الهزيمة: العسكرية ١٩٦٧ والسياسية بعد عشر سنوات في زيارة القدس المحتلة ١٩٧٧، خروج المقاومة من الاردن ١٩٧٠ وخروجها من بيروت ١٩٨٢. خمسة عشر عاماً، اكتملت بها الدائرة. استحالت حاجزاً من الظلمة بين عهدين وبين عصرين وبين «نظامين»: محاولة إقامة نظام عربي، ومحاولة إقامة نظام «الشرق الأوسط». وأخفق العسكريون في إقامة

النظام العربي بواسطة أداتهم الأولى المفترضة، الحرب. وأخفق المدنيون في إقامة نظام الشرق الأوسط بواسطة أداتهم الأولى المفترضة، السلام. وأعلنت حرب الخليج الأولى وحرب لبنان «الأخيرة» في وقت متزامن تقريباً إخفاق العرب عسكريين ومدنيين، راديكاليين ومحافظين جميعاً. ليس من نظام عربي يرفضه الحكام، وليس من نظام شرق أوسطي يرفضه المحكومون.

وفي نقطة التزامن بين «نهاية» حرب الخليج الأولى ونهاية حرب لبنان «الأخيرة» كانت بداية التاريخ تستحوذ على حركة الذين أعلنوا نهايته. وكانت الحركة في اتجاه: واحدية القطب الذي يقود العالم.

كانت نقطة اللقاء الرمادية بين «اللانظام العربي» وتوجه «الغرب» الى القيادة المنفردة للعالم، هي التي جعلتنا مجرد «ساحة» و«مناسبة» وسلبت دورنا التقليدي: طرفاً في الحرب. كنّا طرفاً حين حاولنا إقامة النظام العربي. ولم نعد كذلك حين أخفقنا في المحاولة. ولأنه ليس هناك فراغ في التاريخ ولا استراحة للجغرافيا فقد كان «الغرب» وغرب الغرب جاهزين لإنجاز «بداية التاريخ»: بداية وحدة الغرب غداة انهيار الستالينية، والتسليم للقارة الجديدة بالقيادة المنفردة للغرب والعالم. ولم يكن هناك أفضل من «الخليج» الآن مكاناً وزماناً لكتابة نقطة البداية. انه الساحة والمناسبة النموذجيتان، وليس الطرف.

كانت الهزيمة المستمرة قد اقترنت بثورة النفط، فزمن الوحدة والتنمية لم يعرف النفط. وإنما أقبل الانقلاب النفطي في تواز وتقاطع وتداخل مع العصر السعيد المسمَّى بالانفتاح. وبسبب هذه المفارقة ترسخت الهزيمة واستمدت من «الطاقة» سبباً جديداً للحياة والنمو والانتشار. لم يستطع النفط من ناحية أن

يجيب على سؤال التكنولوجيا، ولم يستطع «الانفتاح» أن يجيب على سؤال الديمقراطية. ولم تعد الاشتراكية أو الوحدة العربية من الأسئلة المطروحة، وحلّ مكانهما ثلاثة أنماط من «الإقصاء» خارج دائرة السؤال والجواب: العنصرية النفطية بين العرب أنفسهم، الإرهاب المسلح للاسلام السياسي، الحروب العبثية (على الحدود بين العراق وإيران وداخل الحدود في لبنان).

هذه الأنماط من التآكل الذاتي هي التي أقصتنا عن أن نكون طرفاً بين الأطراف، وحولتنا الى ساحة ومجرد مناسبة.

في تلك النقطة الرمادية للقاء بين ما صرنا اليه وما يتحرك نحوه الغرب، كان ما يدعى بالنظام «العالمي» الجديد يرى في نظام الشرق الأوسط بديلاً حاسماً للنظام العربي غير المتحقق. وهو نصيب الذين حاربوا انفسهم بأكثر مما حاربوا خصومهم، فنحن الذين قدمنا استقالتنا، هزم بعضنا بعضاً فانهزمنا جميعاً. في الماضي كان الآخرون يهزموننا. أما الآن فقد تكفلت حروبنا الداخلية بإقصائنا عن «الحرب»، عن المشاركة في كتابة التاريخ. وخاصة هذه الصفحة من تاريخ العالم وتاريخنا.

فك الارتباط بين العروبة والاسلام

لعله لم يكن غريباً ما حصل منذ وقت قريب في المجلس النيابي الأردني. ففي الجلسة المعقودة لانتخاب رئيس لهذا المجلس، طلبت الأطراف الأكثر جلبة في المجلس من رئيس السن الذي ترأس الاجتماع، افتتاح الجلسة باسم الله، فتم لها ما أرادت. لا تكمن المفارقة في كون رئيس السن مسيحياً. فليس استهلال الأمور باسم الله امراً غريباً، على المسيحية والمسيحيين. ولعلها لم تكن كامنة في كونه شيوعياً، فلم تكن الشيوعية العربية اتجاهاً مناهضاً للدين وداعياً للإلحاد، بل إن تاريخها يتسم بمداراة ومسايرة ومجاملة الاتجاهات الدينية وأفكارها ومطالبها، خلا نوادر لا تذكر.

إن ما يجعل إذعان رئيس السن لجلبة المطالبين امراً لا يخلو من المفارقة. إنما يرجع إلى كون المجلس النيابي مجلساً منتخباً من الشعب ومعبراً عن مجموع إراداته السياسية، مما يجعل افتتاح جلساته باسم الشعب الأمر المناسب من وجهتي النظر الواقعية والمبدئية. وإن كان لنا أن نعلل سوء تقدير رئيس السن للمفهوم السياسي القائم وراء المجالس النيابية والنظم التمثيلية بعامّة، وقيامه على جلسة مجلس مستند إلى فهم

علماني بحت للسياسة باسم مبدأ مفارق لدنيا السياسة، قائم في مجال علوي أُخروي لا تماس له مع مفاهيم التمثيل السياسي للشعب. ولا يقترب بأي شكل من الأشكال من اعتبار الشعب ـ وهو الجسم الاجتماعي ـ السياسي الدنيوي ـ المصدر التشريعي للدولة، فإن من المؤكد أننا لن نتوه في بوادي الحيرة.

لدينا في المصاف المباشر عنصر المجاملة. إن المجاملة من الأمور الطبيعية والمحمودة، فهي تزكي استمرار العلاقات الاجتماعية في ظل خلافات معلومة، وتعمل على تماسك مستويات معينة من العلاقات الاجتماعية التي قد يسمها التنابذ في مجالات أخرى. ويشكّل قيام المجاملة على تغييب أدوار معينة من العلاقات الاجتماعية في إطار المداولة في أدوار أخرى، أي قيامها على التناسي، عاملاً يمنع سريان الفرقة والمنافرة إلى سائر مفاصل المجتمع ومسامه. وعلى المجاملة لذلك أن تشكل أمراً يمارسه سائر الفرقاء، وألّا يقتصر على طرف دون طرف. وهي تعبّر عن إذعان الطرف المجامل للطرف الآخر إذعاناً ظاهرياً يقابله في الأحوال السوية إذعان من الطرف الثاني في مجال آخر، أو على الأقل اعتراف بالحق في التمسك بالاختلاف وتوقع بإذعان الطرف الثاني في ظرف آخر. أما عندما تقتصر المجاملة على طرف دون آخر في إطار أمر عام بالغ الأهمية كمصدر السلطة التشريعية والسياسية، فإنها تخرج عن إطار الحفاظ على سوية التوازن ـ تكافؤاً أم لم يكن متكافئاً ـ وتندرج في إطار القسر السياسي والثقافي القائم على دعوى التفرّد بالقول الفصل ونبذ امكانية قيام الخلاف. لا شك في أن مطالبة بعض القوى الاسلامية بذلك إشارة على عدم توافقها المبدئي مع مفهوم الديمقراطية البرلمانية المستندة إلى كون الشعب مصدر المجلس النيابي وجلساته. ولكن مجاملة القوى غير الاسلامية ـ الماركسية وغيرها ـ لهذه الدعوى هو الأمر الذي يهمنا هنا. فإن

هذه القوى ما زالت متمادية في المجاملة الغافلة عن النتائج، غير المدركة للعواقب.

ذلك أن في هذا التمادي امتثالاً لدعوى حصرية القرار السياسي ـ الثقافي من قبل طرف ـ إسلامي ـ لا شك في علنية شعبيته، دون أن تكون جلبة شعبيته دليلاً على غلبته الاجتماعية والسياسية؛ بل إن ادعاءه تمثيل جماع الثقافة العامة هو الموقع الممتاز لقتله التاريخي ولهوان ادعائه الحصري. فإن الايديولوجيا السياسية الاسلامية تستخدم النصوص الاسلامية المقدسة وشبه المقدسة، كالقرآن والحديث وغيرهما، لدعم موقف إيديولوجي بالغ الحداثة، هو القومية بصيغتها الفاشية في التجربة التاريخية الحديثة. فهي تشتمل مثلها على خيال سلطة شمولية اطلاقية على مجتمع تام الاستواء لا نتوء فيه ولا تمايز أو اختلاف، مستثنية بذلك كل تنابذ وخلاف غير قابلين للانضباط القسري.

خلاصة القول إن المجاملة العامة، والمشخصة في روايتنا لخبر اجتماع مجلس النواب الأردني، تشكل امتثالاً من قبل القوى السياسية والثقافية التقدمية والليبرالية، والقوى الرشيدة عموماً، لما تطالب به الأطراف الاسلامية، دون أن تعتبر حساب القوى السياسية والاجتماعية والثقافية اعتباراً واقعياً، فهي تجامل في أمور مصيرية قائمة على توهم إمكان المجاملة في موقع لا مجال فيه للمجاملة. إنها تجامل في موقع يطلب فيه الطرف المعادي لفكرة الحكم البشري أولوية تامة وشاملة لمطالبه التفصيلية: أولوية لمطالب تفصيلية لا بد وأن تلتئم في مشروع شمولي يستثني القوى غير الاسلامية، فهو يحصر القول الفصل فيها، استناداً إلى استعداد غيرها للمجاملة في أمور يغيّب الخلاف فيه، إن لم يكفر ومن ذلك افتتاح مجالس الأمم باسم الله.

* * *

يقوم مشروع الغلبة المطلقة إذن على استدراج دؤوب للاعتراف بأولوية القول وإطلاقه في مواقع تفصيلية كثيرة، ومراكمة هذه المواقع حتى تشكل في الواقع اعترافاً من غير الاسلاميين بالأولوية المعيارية والأخلاقية، ومن ثم الاجتماعية والسياسية، للدعاوى الاسلامية. وليس في هذا التخلي غير المبرر للمواقع المعيارية والأخلاقية، ومن ثم الاجتماعية والسياسية، لغير الاسلاميين لصالح الاسلاميين براعة سياسية. فإن ما يبدو مداراة حصيفة إنما هو مداورة على النفس وبتر لفاعليتها التاريخية، ذلك أن فيه ابعاداً واسعة الأفق شاملة المدى، كما يبين المثال الذي سقناه، ولعل أهم هذه الأبعاد هو الامتثال للدعوى الاسلامية، التي لا سند اجتماعياً أو ثقافياً أو فعلياً لها في تاريخ العرب الحديث، يفيد بإمكان بل من الضروري المماهاة بين العروبة والاسلام، على اعتبار أن مجتمعاتنا العربية إنما هي اسلامية في النظم والقيم، مما يستتبع أن النظام السياسي القائم باسم الاسلام هو النظام «الطبيعي» للعرب.

قلنا إن التسليم في وجه المطالب الاسلامية ليس بالأمر القائم على أساس من توازن قوى سياسية واجتماعية وثقافية لصالح الاسلاميين. إن ما يجعل هذا التسليم قائماً، بل ممكناً، هو أمر ناتج عن أحد الأمراض الفكرية والثقافية العامة التي لازمت الفكر العربي الحديث طوال هذا القرن. أما عوارض هذا الاعتلال للفكر السوي، فهي في المحاولات المستمرة دون اعتبار لوقائع الأحوال التاريخية، للمماهاة ما بين الإسلام وبين ما يحلو لهذا أو لذاك من أمور السياسة أو المجتمع أو الثقافة الحديثة. فتجري محاولة وترجمة الاسلام بحقوق الانسان مثلاً، مع أن واقع تاريخ الواحد لا يقبل الترجمة إلى الآخر: فإن في الاسلام، تاريخاً، ونصاً تمييزاً في الحقوق والواجبات

بين الحر والعبد، وبين المسلم والذمي، وبين الرجل والمرأة، مما لا يتوافق ونص أو روح حقوق الإنسان بمعناها المفهوم، مما يجعل من محاولة المماهاة بين الواحد والآخر محاولة لتربيع الدائرة بشيء من خفة اليد الفكرية التي تؤكد التقابل، ومن الالتفات إلى أي من طرفي المقابلة إلا التفاتة إلى الاسم الموسوم بشيم محمودة. وما ينطبق على ترجمة حقوق الانسان بالإسلام لا ينطبق على ترجمة الاشتراكية به، أو تحرير السوق من سيطرة الدولة، أو الديمقراطية، أو نظم الوصاية الثيوقراطية.

وهكذا، فبدلاً من اعتبار الاسلام نظماً تاريخية انقضت، وايماناً دينياً مستمراً، تجري ترجمته على هذا النحو السقيم، فتخرج بالمترجم به (كحقوق الانسان مثلاً) عن سويته وواقعه، وتحرف الاسلام عن طابعه الايماني وتخرج به إلى مجالات ـ ومنها السياسة وأمور المجتمع ـ ليس له منها إلا ما تودعه فيه المصالح السياسية التي تدفع به إلى هذه المجالات. ويقوم هذا الخروج بالإسلام عن مجاله الديني على المنطق عينه الذي رأيناه يحكم استهلال اجتماعات مجلس النواب الأردني باسم الله بدلاً من اسم الشعب: الاعتقاد، عن طريق منطق المماهاة والترجمة بواسطة خفّة اليد بين الاسلام ودنيا الحداثة، بأن الإسلام في جوهر مجتمعنا. ويستتبع هذا الاعتقاد توهم العرب ومجتمعاتهم على أنها وحدة متجانسة، لا تمايزات فيها. وان ما فيها من تمايز وفرقة وتفاوت انما هو من اصطناع الأعداء. ويصبح بالتالي مفهومنا للمجتمع، ومن ثم للمجتمع السياسي الذي هو الأمة، مفهوماً عشائرياً، وتصبح القومية العربية، المماهية للاسلام، ضرباً من اشهار الانتماء لقبيلة، نناصرها دون روية حقاً وباطلاً مناصرتنا لأهلنا وعصبتنا.

يقوم بذلك مفهوم ايماني غيبي للقومية، بل للوطنية، ويصبح الاختلاف فرقة ميتافيزيائية، يكفّر عليها ويخوّن، في خطاب

سياسي بما هي بين الدين الاسلامي والوطنية، ولا يلتفت إلا لوحدة وتفرّد الذات العربية الواحدة، غير المنقسمة، ذات الوجهة الواحدة، والرأي الواحد، والمصير المجيد المحتم، والجوهر الاسلامي الأصيل. هذا هو الوضع الذي برز للعيان في عالمنا العربي عشيّة احتلال العراق الكويت، وتدفق القوات الأجنبية والعربية إلى المملكة العربية السعودية. يتبدى هذا الوضع في القومية الانشائية في عمان وتونس وغيرهما، والذي جمع على أرضيّة الرأي الواحد الموهوم فئات يسارية واسلامية في بوتقة واحدة، مجتمعة على اعطاء العون لديماغوجية قومية تصفح استبداداً وقطرية. ويتم هذا الاجتماع على أساس من اعتقاد السطو المسلح توزيعاً عادلاً للثروة، ومن توهم عنجهية قبضايات الأحياء فخاراً قومياً، واعتبار التفاخر بالذات تحقيقاً لهذه الذات ودليلاً على عظمتها. ولكن شتان ما بين هذا الخطاب الحماسي وبين واقع الأمر. يبدو في هذا الواقع التفاخر والتباهي والعنجهية وكأنها جوقة للغربان المتطاوسة التي لا تنفك عن الانتشاء بنشيدها. ويتضح من الواقع أن هذا النشيد، القائم على غبن تاريخي وعلى استغلال لا شك فيهما، وعلى شعور بالدونية التاريخية ناشىء عن غلبة الغرب في هذه الحقبة التاريخية وعن المساواة التاريخية التي لا بد منها بين الغرب وبين الحداثة ـ يتضح من الواقع أن هذا النشيد يؤدي في نهاية المطاف إلى الارتهان لرأي واحد، وإلى جعل أصحابه مطايا للاستبداد السياسي والارهاب الفكري.

* * *

ليست هذه الوسيلة قطعاً هي تلك الكفيلة بجعلنا ننتقل إلى مصاف الأمم المتمدنة. فنحن نعيش في عالم دخل مرحلة ما بعد الحداثة، وأصبح على أعتاب القرن الواحد والعشرين، فدخلت الرأسمالية ـ النظام الجامع للعصر الحديث ـ مرحلة تقدمت

فيها امكانية تجاوز الأزمنة المتباعدة، وتزامن الأمكنة المتباعدة، وتخلخل وتفاوت البنى الاجتماعية والسياسية والثقافية في مجمل أطراف الدنيا تفاوتاً وتخلخلاً بالغي الحدّة، وأضحى فيها لأمور التبعية والتخلف والتقدم والطليعية والاستقلال طابعاً متجدداً لا يسمح بالحلول القديمة، خصوصاً وان التفاوتات على الصعيد العالمي أمور نسبية، قطاعية، لا ترجمة جغرافية حاسمة: فلا شرق تام، ولا غرب تام، ولا انفصال كامل بين مناطق أو دول أو أمم تامة التخلف، وأخرى تامة التقدم. وما علينا أن نعيه هو تعقد هذه العلاقات، ووجود الغرب في الشرق، بل وتفاوت وتمايز الغرب نفسه، وما يترتب على هذا الوعي من امكانية لمواجهة نتائج أهم تحول تاريخي بعد الحرب العالمية الثانية: ذلك هو انهيار الشيوعية والاشتراكية كخيار تاريخي بديل ذي مرتكزات واقعية في كتلة عالمية، بعد سبعين سنة من الحرب الشاملة ـ الاقتصادية والسياسية والثقافية والايديولوجية ـ التي خرجت منها الرأسمالية العالمية منتصرة انتصاراً تاماً.

يجب أن يترتب على وضوح انكشافنا ـ بصفتنا جزءاً من العالم الثالث ـ على الرأسمالية العالمية إدراك لحدود الواقع التاريخي الذي خسر بنهاية مصداقية الشيوعية مفاهيم شاملة للحداثة والرقي والتمدن. ولا بد وأن يترتب على هذا الوضوح وعلى هذا الإدراك وعي شأن كبير الأهمية، هو امتناع الارتقاء علينا إن استمر بعضنا في اقامة السياسة والوطنية على الحنين، والتطلع إلى مستبد ينقذنا، وإذا اقتصر فكرنا السياسي والاجتماعي على تخيل أصنام من الماضي نتغنى بها ونرتل لها. لن يتسنى لنا الارتقاء إلى مصاف الأمم المتقدمة إلا إذا أقلعنا عن الفكر الوهمي، واستبدلنا خفة اليد العقلية وصنوها الاجتماعي والسياسي ـ وهو الفهلوية ـ بالعمل وبالفكر الدقيق، وإن سمينا

المسميات بأسمائها دون طلائها بأهوائنا، وإن صحونا من الإدمان على الانتشاء بالذات، بل على مفهوم الذات الواحدة المتجانسة عينه، وان استبدلناه بوعي تعقيد العالم وتعقيد مجتمعنا وتمايزاته وزمانياته لن يتسنّى لنا الترقي إلاّ إن ضحينا بلذة الهروب إلى الوراء والحنين إلى ما ولّى - بل اختراعه إن لم يوجد - والانغماس بنشوة الترجمة الممتنعة.

بصورة أكثر تحديداً، وفي ضوء جلبة بعض المواقف ازاء أزمة الخليج، علينا العمل على أن نعكس وجهة الامعان في التخريف الملذّ، وفك الارتباط بين العروبة والاسلام، إذ إن تأكيد استغراق الأولى في الثاني ليس تسجيلاً لواقع فعلي بل هو رهن المشروع الوطني لدى المشروع الديني السياسي؛ فليس بين العروبة والاسلام ثمة علاقة سببية، بل ان بينهما تضافرات وتداعيات وتنافرات يحكمها التاريخ، إن المطلوب ليس اعتبارنا أمة بالمعنى العشائري أو الديني الذي يفيد الانتماء القسري بموجب الولادة، والاعتبار الوحشي للهوية المستثنية للآخر المولود في موقع آخر، بل بالمعنى السياسي الذي يفيد اعتبارنا مجموعة من الأفراد الأحرار الواعين للمصالح العامة وعياً مجرداً عن الأهواء، مدركاً لتعقيد الحاضر. بعبارة أخرى، إن ما هو مطلوب ليس إلا الأمة القائمة في الديمقراطية وبها: ليس الديمقراطية «بموجب تقاليدنا»، ولا الديمقراطية «الأصيلة»، ولا «الشورى» التي لا تزيد على كونها شكلاً من المفاوضة بين بعض الفاعليات العشائرية، لأن المؤدى الفعلي لهذه الشعارات ولنظائرها الكثيرة، ليس إلا تسويغ النظم الاستبدادية القائمة على أساس وحدة الرأي والتفرد بالسلطة من قبل نظم سياسية. قد تتمشيخ هنا وهناك، أو من قبل فئات غوغائية تشتهي السلطة وتطمح للاستبداد.

إن ما هو مطلوب منا ونحن على أعتاب القرن الواحد

والعشرين. إذن، ليس إلا الديمقراطية الوطنيـة، أي العلمانيـة التامة. قـد يقول البعض إن هـذا شأن، وإن وجـد في المشروع التاريخي الأوروبي الذي أضحى مشروعاً كونياً، إنما هو أمر لم يتم به التحقق التام المتجانس في أوروبا. ولكننا نقول للقـائلين، إننـا لا نعاني من مـركب نقص تجاه أوروبـا، ولا نـرى سقف التاريخ فيهـا وإن هي كانت محـركة التـاريخ الحـديث، فلسنا مرتهنين بحدود التجربة التاريخية الأوروبية، بـل نحن جزء من مشروع تاريخي كوني يتجاوز حدود الغرب.



سميح القاسم

وثيقة تاريخية

نحن الآن معي، هنا في داخلي. هنـا في المصعد المعطـوب بـين دورين لا ثـالث لهمـا. أبـاريق وطاسات نحاسية على الشرفات. وضوءٌ غير مكتمل أبداً. ونسـاء عاريات عاريات في المقابر العسكرية الخاوية.

* نحن الآن معي، هنـا في داخلي. فـلاحـون يحـرثـون قنـوات التلفزيون ويسقون بدموعهم أشتال الفيديو. عُمال أُرقون. أرقّاء بـلا عتق. كتب عتيقة. أجهـزة إعلام مـواخير. هيئـات تخطيط قومية، بملاعق الخشب إياها، بقصعات الفخـار إياهـا، بالليـل المحيط ـ الأوقيانوس. نحن الآن.

* نحن الآن معي، هنا في داخلي. زبد. نراجيل. سيارات أجـرة قذرة. مصابيح عمومية نسيها طـاقم البلديـة لذاكـرة العَسَس. مـوانىء تتذكـر وتبكي. تتذكـر وتضحك. تتـذكـر وتصمت إلى الأبد. نحن الآن.

* هنا. لا نحن. لا آن. لا هنا. سيّاح يتورّطـون مرةً واحـدةً ولا يعودون أبداً. «باي باي» بابتسامـةٍ صفراء. «بـاي باي»، «فَـكّ أفّ». الموسوعة الأقل دقةً من مهرج. الشعراء الأقل شِعراً من مُخبـر. الصحف الأقـل صحـافـة من حصـيرة. والمؤتمـرات المؤتمرات المؤتمرات الأكثـر يُتماً من يتيم فَقَـد والديـه في غارة

جوية طازجة. فَقَد دموعه. فقد رُعبه. نحن الآن.

* أعود قليلاً. أتريث كثيراً من أجل الدقّة. محاولة أخيرة للفكاك من التعميم المحرج. لا فكاك. لا فكاك. وردةٌ مفترسةٌ تمدّ مجسّاتها المعدنية الى القلب. القلب المتعب المريض الوحيد والأخير. ميشيل دبغي، بالمناسبة. شِعْب بوان، بالمناسبة. والآفاق الذي اسمه وصفته وطالعه أحمد بن الحسين المتنبي. لُعبة. ضربة العمر. تكسب أو تخسر. سيان الترجمات والأصول، الصمت والكلام، الهيولى وبراميل النفط الخام. سيان التعب جنوناً والجنون تعباً. نحن الآن.

* على مفترق الطرق تصهل الأفعى. يخرج الخيّالة من لوحات الزيت المغبرّة ويقفون طابوراً أمامَ فرقةِ الإعدام. يوزعُ جنود الاحتلال حلوى على يتامانا ويطلقون نيرانهم الرشاشة في الهواء المنعش لنجد الوقت الكافي للسقوط مرة أخرى. مرةً في الفِراش ومرة على أحذية العسكر. نوزع الحلوى على شهدائنا ونرقص في الأعراس حتى ساعة متأخرة من الليل. حتى نُعاس بناتِ آوى حتى سقوا نجمة الحُلم الأخيرة عن شجرة لم تُثمر من قبل ولم تُقطع من قبل، لأنَّ البلطة معدَّة للعنق وشهادة الماجستير مريضةً بالدهشة المزمنة والأطباء يتسفّعون على سطح المستشفى في المدينة الطبية، الثكنة العسكرية، البار، الكازينو. ويقول له: أمي رأت أمَّك هناك. فيقول له: وماذا كانت أمك تفعل هناك؟ وتقول لك: سأقول للعالم أن أختك زانية واذهب أنت لتثبت للعالم أنّ لا أُختَ لك. ويقول له: نحن الآن في حضيض الحضيض يا بُنَي. نحن الآن في قرارة الهاوية. لن تدركنا يد امرئ القيس لأنه مشغول بمُلك أبيه. ابن الكلب الملتجيء إلى الروم هُو ذا يُصبح نَسَقاً. يُصبح أنموذجاً تاريخياً. شرعيَّة غير شرعية. شرعية. ويقول له: وماذا كانت أمك تفعل هناك؟ نحن الآن.

* لعله المرض. لعله الخوف على الأولاد. لعله المستقبل المصنوع من بلاستيك لا نصنعه. لا أصنعه أنا بالتأكيد. والأولاد، ماذا يفعلون؟ ماذا يستطيعون أن يفعلوا بما أورثهم من صيغ ضائعة في حلم ضائع في لغة ضائعة في وقت ضائع ضائع ضائع؟ خدعة الأمل هذه. العمر الذي مَلَكْتني بدايتُهُ ولم تورِثْني نهايَتَه. الأولاد السذج الأبرياء. يلعبون بلا خرائط. لا يرون في الجرائد الملونة سوى طيارات ورقية موعودة. الأرض الموعودة. أية كذبة؟ أي عبث؟ لا تضحك يا بُني. لا تضحك. نحن الآن.

* كيف حدث ما يحدث؟ بأكواع متورّمة غيظاً. بأنابيب الإنفوزيا في غرف العلاج المكثّف. والانتظار في الممرات المضاءة بالنيون المُرعب. كيف حدث ما يحدث؟ لا أحد يذهب إلى شواطىء السباحة. لا استجمام للموتى. لا ضحك للمفلوجين. لا وقت للمراجعات. إصمت. تناول طعامك واشكُر. لا تتوقع. لا تحسب. لا تستطرد. طرادات. حاملات طائرات. جلبة في ملاعب الغولف. يأتي المَلِك. يذهب المَلِك. ضحكات مقتضبة. غمزات ثريّة على المرجة الخضراء دائماً قبالة البيت الأبيض. وهدوء على ملاعب الغولف. انها القيلولة المطمئنّة. القيلولة المتخَمَة الصلفَة ولا شيء سوى ذلك. نحن الآن.

* أذكُرُ أيضاً دَوْخَةَ الخزي الدامي في المطارات. تلك الشبهة الوصمة. أذكر الاستهبال الواضح في سلوك البائع الصغير وخادم الفندق. أذكر الوحام الحيواني لدى تلك السيدة الدهشة: عربي وجنتلمان؟ أوه فانتاستيك. وأذكر الغوريّ والسعدان، الطبلة والمزمار. ولِمَ لا؟ لِمَ لا تسير الأمور كما ينبغي أن تسير؟ لماذا تهددُ أغنيتي استقرارَ البورصة في نيويورك أو طوكيو؟ لماذا؟ ونحن الآن.

* سيمشي كُتّاب السِّيَر على الشوك. يقبض الشعراء جمر

قصائدهم. يعضّ الخطباء ألسنتهم وحقائب السمسونايت الموصدة بحذر شديد على هواء معقّم. من التُّربةِ تأتي الشجرة. من الشجرة يأتي ما يأتي، ثانوياً، هامشياً، ومن حقيبة السمسونايت تأتي الخديعة الجوهرية. هنا يكمن السر هنا تبدأ المعضلة. تتفلع أكواز الرمان عمّا أثمَرَ الجهد، عن الأطفال الجدد في الظرف غير المناسب. وماذا يقول المخبر الصحفي؟ ماذا يستطيع أن يقول، ما دام هو الآخر لا يملك سهماً في صناعة البلاستيك، في ورشة المستقبل.

ونحن الآن.

* أمدّ يدي إلى مداها فترتجف. أمدّ قلمي إلى ورقته فيرتجف. أسأل قلبي ألا يخذلني فيرتجف. تمشط ريح الليل أشجار الحديقة فترتجف. هكذا تتضح معاني الهزات الأرضية لا في أرمينيا فحسب. ولا في إيران فحسب. بل في أصقاع الروح جميعاً وفي تضاريس الجسد مأخوذاً مملوكاً مُستهَلكاً. والصحراء التي أشتهي والتي تجعل الملاذ ممكناً ثم تجعله مستحيلاً ثم تنغلق على ذاتها داخل جسدها المباح المستباح، داخل امرىء القيس المتكرر بمُلكِهِ الضائع ورومِهِ القادمين كالجراد. نحن الآن.

من أغاديرَ إلى قلبي مروراً بالمُكَلّا
قلتُ كَلّا
ألفَ كَلّا
وإلى قلبي، من الموصل والشام
مروراً بصفدْ
بَلَدٌ ينسى بَلَدْ
قُل هو الله أَحَدْ
قُل هو الله أحدْ

* ونحن الآن معي وبدوني. في سحابة القصدير في وشم

البدوية الأخيرة. ثُلاثاء تُغادر أسبوعَها. تفاحة تتقمَّصُ حجراً. وردة منجحة بمجساتها المعدنية السامة. تحاصر وجعي. تحضني على نسيان حُبها العالق في القلب مثل درّاجة هوائية في زحمة السير. ميادين مكتظة بلا أحد. شوارع تحاذيها شوارع تحاذيها أرياف متراجعة أمام التصحُّر والغزو الأجنبي. ونحن الآن.

بينَ لحمي المُقيمِ على صَلَوات مرارَتِه الجارحهْ
ورحيلِ دَمي
آخ. كم تشبه الليلة البارحهْ
بَين صوتي وبَين فَمي
لغةٌ واضحهْ
آنَ لي
آن أن أقرأ الفاتحهْ...

ونحن الآن...

توقيت محليّ على ساعاتِ الوطنِ الخَربَة. ساعات على الوطن الخرب. خراب على الساعات والوطن. وطن بلا ساعات وبلا وطن. جماهير تزدَرد الخراب. الخبز. الخبيّزة. الخُبث. الخَطيئة. الخَطَر. الخِصيان. العِصْب بلا ثمر. ثمر بلا طعم. ثمر من بلاستيك لم نصنعه نحن. وبالتأكيد لم أصنعه أنا. وأسئلة أخرى لا تنتظر جواباً.

ماذا؟ كيف؟ لماذا؟ متى؟ أين؟ مَن؟ هل؟ أ؟ هَب؟ أفَ؟ أسَ؟ أسئلة بلا إجابات. إجابات بلا أسئلة. توقيت محلّي خَرِب. موازاة تامة وبلا مكان على الإطلاق.

ونحنُ الآن.

لن تُحاولَ الأرضُ أن تنشقَّ لتبتلعني. فلأُحاولْ إذن أن أنشقَّ لأبتلع الأرض. أنا الآن...



سميح القاسم

مقالة صغيرة
في القول الكبير

اللسان - اللغة - الكلام - الكتابة - البلاغ - الإفصاح - اللهج - التعبير - البيان - القول: ومفردات أُخَر، بعضها تحجَّر في كهف القاموس، وبعضها يبحث عن جوهره في عَرَضِ أيامنا.

نقول كثيراً ونعني قليلاً. يظلُّ القول أكبر من المعنى. يظل على حدّه أو خارجه. نقول في بلادنا ونعني بلاداً أخرى. ليس كأنموذج بل كصدى أو حدس أو تخمين أو وهم أو رغبة. أحياناً يتوفر الحلم لكنه سرعان ما ينسحب وينطوي على ذاته فيفقد ذاته. ويظل القول الذي لا يحمل معنىً في بلادنا ولا يوفّر معنى للبلاد الأخرى التي تمتلك قولها ومعناها بقدرٍ كافٍ من التطابق والانسجام.

لا أتفلسف. أحاول وصف الراهن من خلاله. وأحاول تحقيق قدر من التكافؤ بين ما أقول وما أعني. وأحاول الخروج على ذاتي فيما أحاول الخروج على حالة تبدو لي عامة (مع كل ما في التعميم من مساوىء).

لا أتفلسف. أضع قليلاً من الملح الذي هو ملحي على قليلٍ من الجراح التي هي جراحي، ويكون ذلك على النحو التالي:

■ نقول الحرية

هل نقولها كما يقولها العبد، أم نقولها كما يقـولها الحُـر؟ «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟» نكـررها يـومياً دون أن يطـرف لنا جفن، ونحن نَستعبِـد ونُستعبَـد، وعيـاً ولا وعياً، نظلّ عنـد تخوم القـول. نلوب ونقـول ونفرقـع أصابعنـا ونستعرض جيوشنا وسبحاتنا وجرائدنا وشـاشات تلفـزيوننـا، غير مدركين أننا في الحقيقة لا نملك شيئاً من هذا على الاطلاق، لأننا لسنا أحراراً في أن نملك. ونكتفي بالوهم بأننا نملك وبأننا (شخصيـاً) أحرار، أمـا الذين يحتـاجون الحـريـة فهم نـاس آخـرون، أشخاص آخـرون، الشعب، الذي نحن منـه في القول ولسنـا منه في الحـرية. نطـالب بحريـة المرأة مـا دامت المـرأة الأخرى خارج أسرتنا، خارج امرأتنا، خـارج صَدَفتنـا، خارج عبوديتنا. ونطالب بحرية الطبقة العاملة. وحرية الرأي. وحريـة الصحافة وحرية الأديب. هناك وليس هنا. كأنما نحن مكلّفـون بـالانشغال الـدائم خـارجنـا، حتى يتمكن آخـرون (منّـا؟) من متـابعة الحـرية في استعبـادنا، وحتى نتمكن نحن من متـابعة غيبوبة الحرية في عبوديتنا!

■ ونقول الوحدة

نقولها هتافاً في مظاهرة وشعاراً على منشـور ولوحـة على جـدار وخارطة بلا حدود على شاشـة تلفزيـون. نقولهـا شعراً ونثـراً. ونُقيم لها حزباً قومياً ثورياً تقدميـاً وحدويـاً مدنيـاً وعسكريـاً، علمانياً ودينيـاً. وتصدّق الجمـاهير قـولنا. وحـين نحكم قطرين فانهما لا يتحولان إلى قطر واحد بل يتحول الحزب إلى حـزبين. وتبقى الحقيقـة الإقليمية الانفصـاليـة الانعـزاليـة، لكن يبقى أيضاً قول الوحدة. ونقولها بمنتهى الصفاقة والوقاحـة. نقولهـا في عميً تام وفي غيبوبة تامة. ونستحضر أرواح الآباء والأجداد من عقبـة بن نافـع حتى صلاح الـدين ونستحضر الاستعمـار

والامبيريالية والكولونيالية، حتى لكأننا لا نستطيع أن نكون إلا بكل أضرحة الماضي البعيد وشرور الماضي القريب. أما الحاضر فليس لنا. ذلك أننا (نحن) القول شيء و(نحن) المعنى شيء آخر. ونعي فصامنا ونعي داءنا. وتظل الوحدة قولاً لا دواءً. فلا مكان مشتركاً ولا زمان مشتركاً بين القول والمعنى. ومن هنا يصدر جنوحنا إلى الظاهرة البسماركية. وهذا الجنوح الجنوني، بلا شك، يعكس رغبة حقيقية، بلا شك، في الجمع بين ثورين هائجين على محراث واحد. وتظل الرغبة قولاً. ويظل العمل رغبةً لا أكثر.

■ ونقول الشورى

نقول الشورى حتى لا نقول الديمقراطية. ونحن في نهاية الأمر لا نعني هذه ولا تلك. ومن الطبيعي إذن ألا نبلغ لا هذه ولا تلك. ومن الطبيعي ألا يكون هذا الوضع طبيعياً. لكنه مما ينافي الطبيعة أن تستمر هذه الطبيعة. نقول الشورى ونحلم ببزة الشرطي. نقول الشورى ونؤسس مجالس الشورى في حنين هائل إلى الدكتاتور وإلى الحاكم المطلق الذي يزيد من دكتاتوريته ومن حكمه المطلق كونه أسس مجلساً للشورى، ما دامت الشورى لا تعني الديمقراطية ، وبهذا فهي لا تعني ذاتها، وتكفُّ عن أن تعني شيئاً غير القول، حتى لكأن القول هو الغاية والمعنى ليس غير وسيلة للقول، تفقد مبررها عند تحقق القول نفسه، مثلما يفقد الصاروخ مبرره حين يبدأ القمر الصناعي دورته الفضائية..

■ وهكذا

نقول الجهاد، نقول الفداء، نقول الدين، نقول الوطن، نقول الأخلاق، ونقول كل شيء، وعيوننا على الأضرحة أو على الشرور

الوافدة من الغرب، أو من الشرق، أو من أية جهة متاحة، غير جهتنا نحن.

نقول ونقول، والثوران الهائجان في السنتنا وعلى (ألسنة!) أقلامنا، الثوران الهائجان في صحافتنا وإعلامنا وأدبنا وسلوكنا وعقولنا وفكرنا وإيماننا، الثوران الهائجان في أرواحنا وأيدينا وأقدامنا، الثوران الهائجان في جغرافيتنا وسياستنا واقتصادنا واجتماعنا، يشدّان ويشدّان، كلٌّ إلى قبلته، وإلى أفقه غير الواضح..

وحين نخرج. فقط حين نخرج من شَرَك القول إلى صراط المعنى المنسجم والمتناسق مع قوله، فقط آنذاك، نستطيع الجمع بين الثورين الهائجين على محراث واحد. وفقط آنذاك نستطيع استخراج ثمرة الجوهر من أجسادنا وأرواحنا وعقولنا وأرضنا.

كيف يتم التحقق الكبير لهذه المعجزة الصغيرة؟

أنا أسأل. أسأل ولا أتفلسف!!

سميح القاسم

مع هذا ورغم ذلك

مع هذا، ورغم ذلك، فإنهم يظهرون على شاشات التلفزيون. يقلّدون كلارك غيبل ومحمود المليجي. بكوفية وعقال وعباءة تنساب من واشنطن إلى بئر نفط. من موسكو إلى بئر نفط. من برلين ولندن إلى بئر نفط. ومن عدسة المصور إلى بئر نفط. مع هذا ورغم ذلك يظهرون. وهم يتكلمون أيضاً ويبتسمون ويغطون أفواههم بأناملهم حين يتجشأون (ليس من اللائق ألا يغطي المرء فمه بأنامله حين يتجشأ). يتجشأون ويتوضأون مع هذا ورغم ذلك.

وكم كان أسامة بن منقذ سيحسدهم لو أتيح له هو الآخر أن يشاهدهم على شاشات التلفزيون مطوقين برجال الصحافة ومراسلي وكالات الأنباء العالمية. على رؤوسنا الطير. وعلى رؤوسهم هالات الأبهة والعظمة والقدرة على تحديد المصائر.

أما ذلك الكردي صلاح الدين الأيوبي فلن يفقه من أمرهم شيئاً. كردي. قلت لكم كردي. يقول ما يؤمن به ويصدق ما يقال له دون أن يسمع ودون أن يريد أن يسمع: «أريد سيوفكم لا دعاءكم» هكذا قال الكردي ابن الكردية. إنه يستخف بالماس ميديا. كان سيفقه شيئاً لو كان اسم القمر الاصطناعي «كردسات» أما أن يكون اسمه «عَرَبسات» فمسألة عصية على

فهمه. الكردي. قلت لكم. لا يسمع ولا يتكلم. يجاهد فحسب. قلت لكم. وقد قال الشاعر قديماً:

وإنما الأُممُ الأخلاق ما غَشِفَتْ
فإن هُموُ شَخِفَتْ أخراشُهم، غود باي!

وأُقسم لكم أنني لم أصافح كردينالاً في حياتي. صافحت بطركا وأكثر من بطرك. لكن لا كردينالات في حياتي. وإنني لأقسم بشرفي. إنما ما يعنيكم أنتم من حكاية الشرف هذه؟ ألم يقل الشاعر:

لا يسلمُ الشرفُ الرفيع من القَذى
حتى يُراقَ على الفِراشِ المنَدَّمُ!

ها! ألم يقل ذلك أيها الحمقى التنابلة الطاعمون الكاسون القاعدون؟

لا أُمازحكم. إنني أشتُمكم. وإنني لأرى أقفيةً قد أينعتْ وحانَ جَلْدُها. فمن لي بسوط يطالكم من السوط الهادر، إلى الخليج الثائر، لبيك عبد المعطي؟!

وأصلُ الحكايةِ أن صديقاً (هو في الحقيقة عدو على صورة صديق)، اتصل بي قبل أيام ليقول:

ـ هالو. أعتقد أنك على وشك الجنون. وأقترحُ عليكَ مراجعةَ طبيب نفسانيّ. قلت: ـ راجعتُ أربعة أطباء نفسانيين. قال: ـ حسناً. وماذا حدث؟ قلت: ـ حسناً. أُصيبوا، أربعتهم، بالجنون. قال: ـ حسناً. وماذا بعد؟ ـ قلت: ـ حسناً. راجَعَ كلٌّ منهم أربعةَ أطباء نفسانيين آخرين. قال: ـ حسناً. وماذا حدث؟ قلت: ـ حسناً، أُصيبوا هم أيضاً بالجنون. وأصبحَ لدينا عشرونَ طبيباً نفسانياً مجنوناً. قال: ـ حسناً. وماذا بعد؟ قلت:

ـ حسناً. لم يبق لي سوى أن أشرب من البئر حتى أصبح عاقلاً

مثل سائر المجانين. ولم أشرب من هذه البئر ولن أشرب منها لأن العقلاء ينبغي أن يكونوا عقلاء. ولأن المجانين ينبغي أن يعقلوا، فلا يُعقل أن يحكمنا الجنون لأن الجنون لا يحكم بل يدمِّر. والجنون لا يستفتي بل يقرر. والجنون لا يؤمن بالشورى ولا بالتعددية ولا بالغيرية. إنه جنون ذاتِهِ، ولذاته الذي لا يمكن أن يكون ذاتاً، ما دام محكوماً بالجنون الذي لا يحكم بل يتحرك، خارج المقاييس والموازين والجهات. وهو يتحرك بفعل الجاذبية وبطاقة الغريزة فحسب.

وأما بعد،
فكرادلة بطرابيش وأكليروس بعمائم وفتاوى وفق الطلب وصكوك غفران، كل صك ببئر نفط في الجنة.

ويتخرج فوج أكاديمي إثر فوج عسكري إثر فوجٍ مغترب إثر فوج من الشعراء والراقصات والشهداء. ونقول للوحدة العربية اقتربي فتقترب. ونقول لها ابتعدي فتبتعد. ونقول اقتربي فتقترب وابتعدي فتبتعد. كأية أم عربية تحب أطفالها وتمتثل لأوامرهم، لأنها تشك في حبهم لها وتشك في مؤهلاتها بأن تحبَّ ما تحب على قدم المساواة، وتقترب وتبتعد ونقترب ونبتعد، ويظلّ هو الحاكم المطلق الصلاحيات، لكأنما ولد حاكماً ليحكم بالتجريد وفي الأبد. لا يقرأ سوى بياناته ومراسيمه ولا يفكر إلا بحذائه العسكري. ويتدفق الأطباء والأدباء داخل الحذاء العسكري. وتعقد دورات الألعاب الأولمبية داخل الحذاء العسكري. وتتم الولادات وتُجرى العمليات القيصرية وتذاع الاعلانات لحليب نيدو ونسلة والأراجيح الأقل خطراً وملابس الأطفال الأكثر إثارة.. داخل الحذاء العسكري، بجوارب أو بدون جوارب. إنما داخل الحذاء العسكري. وكل شيء يسير بانتظام عسكري إلا الحرب!

قُلتُ الحرب لم أقل السلام فأي سلام يرد الآن بالحسبان؟

وقلتُ الحرب لم أقل الحرية. فأية حرية ترد الآن بالحسبان؟

وقلتُ الحرب لم أقل مشاريع الريّ والهندسة المعمارية وشق الطرقات والجسور. كل هذه الصغائر تأخذ مجالها وتحقق ذاتها داخل الحذاء العسكري المعدّ لكل شيء، عدا الشؤون العسكرية!

وأما بعد،

فانني أتساءل بشأن الخلافة. لم يوفَّق سلاطين آل عثمان بلكنتهم التركية في أن ينجزوا خلافة للعروبة. ولم يأخذ الحظ بيد الفاروق بن فؤاد بن أبيه لينجز خلافةً للعروبة، فهل ينجح شخبوط بن عبلة بن أبية حيث فشل هؤلاء؟

سؤال وجيه وأيم الحق! فآمضِ يا ثعلبةُ إلى مضارب قُريش واستَفْتِ تَغْلِبَ وقُضاعَةَ في الأمر.

وأما بعد،
فماذا بعد؟

ويا أيتها السماء.. كما أنا قريب.. وكم أنت بعيييييده... ... ...

شوقي بغدادي

خمس معجزات
قبل تحدي الأباطرة
(الوصية الأخيرة)

أكتب وصيّتي. وأعرف أن هذا لا يهمّ أحداً. غير أنني أكتبها. لا لأنني أحتضر وإنما لأنني ميّت الأحياء. أكتبها لأنني أخشى أن أشرب من نهر الجنون كما شرب الآخرون، وعندئذ أيّة وصيّة أكتب. من يحميني بعد الآن من الانزلاق نحو الضفة المغرية وقد خلت المدينة إلاّ من أحفاد «دون كيشوتيين» قلائل يرفضون الانحدار نحو النهر وراء سكان المدينة المسلوبة.

يجب أن أقتنع أن مناطحة الثور الأمريكي مستحيلة، وأن التصدّي للروبوت الغربي أمر غير ممكن، وأن الشمال سيبقى شمالاً، والجنوب جنوباً وأنه لكل هذه الأسباب فإن أية محاولةٍ للاختراق تهوّر وانتحار.

ما العمل إذن؟..

يجب أن ننتظر وقوع المعجزات التالية:

المعجزة الأولى: يقتنع مشايخ النفط عما قريب بأهمية الزهدِ والتصوّف، فيسحبون أرصدتهم الخيالية من البنوك الأجنبيّة، ويدفعون بها إلى مشروعات النهضة العربية والاسلامية، ويطبقون شعائر الدين الحنيف حقاً في حياتهم اليومية تماماً مثل صاحب الرسالة الاسلامية صلى الله عليه وسلم الذي مات

وهـو يخصف نعله كلّمـا بـليَ، وليس عـلى كتفـه سـوى عبـاءة واحدة؟ ومثل الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم فلا ينامون قبل أن يوزعوا بيت المال على الفقراء والمحتاجين ثم يكنّسوه من الغبار - متأكدين قبل نـومهم من أن جميع العيـون حولهم قـد نامت قريرة هانئة.

المعجزة الثانية: يتدفّق النفط عكس كل التوقعات العلمية إلى ما شاء الله من الزمن، فلا تجفّ لـه بئر، ولا تتصحّـر دونه أرض إلاّ بإذنه، يجدّدها لهم ما داموا بحـاجة إلى المـال كي ينهضوا ويتقدّموا ويصيروا خير أمّةٍ أُخرجت للناس.

المعجزة الثالثـة: يقتنع الغـرب بالتخـلّي عن امتيازاتـه كمركـز متقدّم يسخّر كلَّ ثرواتِ الأرض وكـل جهود عبـاد الله للحفـاظ على مستوى حياته الرفيع فيُشركنا في أسرار مـهنته، ويسلّم لنـا أسرار التكنـولوجيـا التي تنقصنا كي نغـدو معه أسرة واحـدة متحابة متكافئة الأعضاء.

المعجزة الرابعة: تتخلّى اسرائيل بعد ما يزيد على الأربعين عاماً عن المكتسبات، تتخلّى عن حلمها الأكبر في وطنٍ يهودي نقيّ من الشوائب العربية من النيل إلى الفـرات، أو منَ البحر المتـوسط إلى نهـر الأردن على الأقـل وترضى أن تشكـل مـع العـرب دولة مشتركة واحدة على أساس ديمقراطي تحكمه الأكثرية.

المعجـزة الخامسـة: يتنازل الحكـام العرب عن كـراسيهم بكل طيبـة خاطـر فيتنافسـون في التخلي عن ثـرواتهم وامتيـازاتهم لصالح دولة عربية واحدة تجمعهم من الماء إلى الماء، فـلا يكيد أحد إلى أحد، ولا يُضمـر حسداً، ولا يُطلق رصـاصـةً أو يفجـر عبوةً إلا بأمر الحاكم الذي سوف يتفق عليه الجميع بكـل مودّةٍ وإيثار..

يجب أن ننتظر وقوع كل هذه المعجزات حتى نجرؤ عـلى مجرّد

التفكير في تحدّي الأباطرة الأقوياء المتجمعين في جبهة واحدة متراصّة تسيطر على الكوكب، ومن دون ذلك فلا بأس من الانتظار، والتوسّل، والتزلّف، والتشدّق، والتبرّج والتبختر، والتصيّد حتى تحين ساعة الصفر لتجمع كل تلك المعجزات التي تشكل في اجتهاد بعضهم «الشروط الموضوعية» للثورة المنشودة. ويعلم الله، وعباده المساكين أن لا ثورة ولا ثوار، وليس سوى التدرّج في تجرّع العار حتى تتعوّد الخلايا على السم ويأتي يوم ليس بعيداً تُغسل فيه الأدمغة نهائياً من أدران الشرف والطموح والارادة الحرّة.

حسناً..

في وسط هذه الدوّامة التي لا تكفّ عن الدوران قد يقذف التاريخ المعاصر معطيات جديدة لم تكن في حسبان أيّ مُنجّم في طليعتها أنّ دولة عربية اخترقت خلسة جدار السرية وسرقت بعضاً من أسرار تكنولوجيا العصر لتنشىء صناعة حربيّة متطوّرة في مستوى المسؤولية القومية التاريخية، وجيشاً محنّكاً مدرّباً انضباطياً، ثم دخلت في مواجهة شاملة مع الغرب المتكتل ضد هذه الدولة الفتية وأداً لطاقاتها القوية المفاجئة بحجة تحرير دويلة عربية من غزو تلك الدولة العربية القوية.. لنفترض جدلاً أن أسلوب المواجهة كان خاطئاً فهل نصلحه بخطأ أفدح إذ نسمح لدول الاستعمار الجديد والتقليدي أن تدخل باسم الشرعية الدولية أرضاً مقدّسة لم يطأها الأجنبيُّ مسلحاً منذ أيام أبرهة الحبشي إلى أيامنا السود هذه، ثم تنهال قذفاً وحشياً على الدولة الشقيقة الصاعدة باسم الشرعية المزعومة تلك التي لم تُستخدم إطلاقاً لا في فلسطين ولا في الفيتنام، ولا في غرينادا، ولا في بناما، وإنما فقط ضدّ العرب والمسلمين!

لنفترض جدلاً أنّ هناك عدواناً حصل، غير أننا اكتشفنا بعد

أيام قليلة من وقوعه ـ ولماذا لا أقول من قبل وقوعه ـ النوايا السيئة لدول الغرب المسيطرة، وهي أنها تسعى لهذه الحملة منذ أمدٍ ليس بالجديد سواء وقع ذلك «العدوان» أم لم يقع، إذْ ما أسهل أن يخترعوا المبرّرات حين يشاؤون، وأن الهدف الحقيقي ليس تحرير أيّ عربي من عربي آخر، وإنما البطش بأيّ عربي يحاول ـ مجرّد محاولة ـ أن يصبح قوياً حقاً قادراً على تهديد مصالحهم، مهما كانت الطريقة التي يُعبّر فيها عن قوّته.. إذا اكتشفت كلّ هذا وكان في إمكاني أن أسحب الغطاء العربي لهذه الحملة وأكتفي في أضعف الايمان بالاحتجاج على «الغزو» و«العدوان» مصرّاً على عدم تدخل القوات الأجنبيّة كي يحلّ العرب فيما بينهم خلافاتهم. إذا كان في إمكاني أن أتخذ هذا الموقف، وهو ممكن مع بعض التضحيات، فهل أصرّ على نبش الأخطاء الماضية، وتصفية الحسابات القديمة مع نظام عربي مهما قيل فيه فإنه يتعرّض مع شعبه لخطر الإبادة إلاّ إذا وقفنا معه. هل أكتفي بلومه ودعوته وحده إلى الانسحاب دون قيد أو شرط ودون أن أوجه اللوم نفسه إلى القوات التي تقصفه على مدار الساعة وبأسلوب مبرمج منظم يهدف صراحة إلى مسحه من الوجود كدولة ذات شأن وشعب شجاع منظم، أم أوجه اللوم على الأقل إلى الطرفين ـ هذا إذا لم أقف معه ـ داعياً إلى وقف النار الوحشية كي أفسح المجال لأسلوب آخر من الحوار في ظل الحصار الاقتصادي الواقع والشامل!..

لماذا اللجوء إذن إلى كل هذه السرعة الخاطفة في حل مشكلة لا يتجاوز عمرها الستة أشهر في حين أن مشكلة فلسطين وهي أفجع وأفدح بما لا يقاس قد صار عمرها ما يقارب الخمسين عاماً، وهي تزداد تعقيداً، وغرائبية، مع العلم أن هناك قرارات دولية اتخذت بحق الدولة المعتدية اسرائيل، ولكن دون أن تكلف الولايات المتحدة الأميركية، أو أية دولة غربية عناء

مقاطعتها يوماً واحداً، ولا أقول فرض الحصار عليها أو إرسال الطائرات والصواريخ والبوارج ومئات آلاف الجنود إليها لإرغامها على الانسحاب من الضفة الغربية على الأقلّ!

ولماذا لا يُمكن الربط بين أزمة الخليج وأزمة فلسطين؟ ألأنّ الأميركان ودول الغرب يقولون ذلك فقط؟.. وإذا كانت اسرائيل ومن خلفها أميركا ترفض بكل صفاقة وغرور حتى ولو تلميحاً القبول بمبدأ الانسحاب من الضفة الغربية فكيف أصدّق أنهم سيصنعون ذلك إذا قضي على العراق.. من سيجبرهم على ذلك؟. أليس واضحاً هنا أن منطق القوّة وحده هو الذي يتكلم وهو منطق المصالح الخاصة بالغرب المسيطر.. ولكن ها هي دولة عربية تقوى فجأة على المواجهة الخارقة شهراً وتدخل شهرها الثاني وتؤكد أن منطق القوّة يمكن استخدامه أيضاً من قبل العرب عبر دولة عربية واحدة، فكيف لو أن الدول العربية اتحدت كلها أو أكثرها في اتخاذ مواقف جدّية ضد الغرب. ماذا كان في استطاعة هذا الغرب أن يصنع لو وقف العرب في هذه الأزمة صفاً واحداً ضد تدخل القوات الأجنبية؟

لنفترض عندئذ أن القوات الأجنبية دخلت عنوةً بالرغم من الاعتراض العربي. لاشك عندئذ أن سيناريو الحرب والموقف كله سيتغيّر بالتأكيد لصالح العرب، وبخاصة أن إيران بالرغم من معاناتها الطويلة في حربها مع العراق لم تشارك في هذه الحرب بل تبدو معارضةً لها وللوجود الأجنبي في المنطقة على الأقل..

ماذا كان في استطاعة الغرب أن يصنع لو أصرّ جميع العرب ومعهم إيران على ربط أزمة الخليج بأزمة القضية الفلسطينية..؟ هل يكون ممكناً تجاهل هذه القضية كما حدث ويحدث حتى الآن؟ لا أعتقد ذلك..

الحكام زائلون، وما سوف يبقى على الأرض ليس الأشخاص،

وإنما الدولة القوية التي صنعوها والتي نحلم بوجودها منذ ألف عام لمواجهة «الصليبية» الجديدة التي تصرّ على حرماننا من حقنا أن نكون أقوياء قادرين على حماية ثرواتنا والتمتع بها أسوةً بهم على الأقلّ.

إن التاريخ كما يبدو يصنع المواقف والرجال أحياناً دون أن يكون هذا في تقديرهم تماماً، وعندئذ يجب أن أصغي إلى صوت التاريخ وليس إلى الدويّ الذي يصطنعه أعدائي كي يحجبوا عني الصوت الجديد الصاعد فلا أفهمه ولا أعمل به.

«نَكُونُ أو لا نكُون»!..

إن هذا التعبير لم يفقد معناه بعد إلا في شعارات بعض المزوّرين. وها هم خصومنا الذين ابتكروه يعيدون بكل جلاء وعنف معناه العميق إلى أذهاننا، إذ يضحّون بأموالهم وأرواح أبنائهم في سبيل أن «يكونوا» حقاً في المستوى الذي وضعوا أنفسهم فيه، وألا يتنازلوا عنه قيد أنملة مهما كانت التضحيات!. فإذا لم نتعلّم من أحد حتى الآن، فإن الدرس الذي يقدّمه لنا هؤلاء الخصوم هو الدرس الذي يجب ألا يفوتنا تعلّمه إطلاقاً ونحن على عتبة القرن الحادي والعشرين.

إن الثروة النفطية سوف تجفّ بعد سنوات معدودات، وعدد سكان اسرائيل سيقارب الملايين العشرة، والتقدّم العلمي الغربي سوف يسبقنا سنين ضوئية.. وعندها يكون الأوان قد فات فعلًا الأتباع والخدم ـ كما يريدوننا أن نكون بالنسبة لهم ـ كي يتحرّروا من الخدمة والتبعية إلى الأبد.

ليس إلّا بالقوّة وحدها يتفاهم هؤلاء معنا، وها هم يعيدون للكينونة مغزاها العميق في درس صريح عنيف عبر فرصة استثنائية واحدة للطرفين، ذلك أنها في اعتقادي الفرصة الأخيرة للسيّد والعبد على السواء.. الأوّل كي يطمئنّ على دوام نعمة السيادة، والآخر على زوال نقمة العبودية..

محمد الأسعد

اليقظة بين أربعة جدران!

ينقل «بريستد» في كتابه «فجر الضمير» عن كاتب مصري من القرن الثالث والعشرين ق.م. وصفه لوضعية انسان ذلك الزمان، فيقول أن الإنسان ليسمع صراخ جاره في البيت المجاور فلا يجرؤ على نجدته ولا يملك أضعف وسيلة لمده بالعون؛ أقصى حالات العزلة وأقسى حالات الاحساس بالعجز، وأشد حالات الإحساس بلا جدوى أي شيء بدءاً من الكلمة ووصولاً إلى الفعل.

كانت الكتب أشد صمتاً مما هي عليه في العادة، صفوف طويلة عُلّق انتظارها فجأة أو ألغي دفعة واحدة. لم تعد موجودة لا في الذاكرة ولا على الرفوف. انها خرساء يصيبنا ما أصابها، فنجد أنفسنا نصوصاً لا ضرورة لها.

هنالك شيء لا يبدو معه الرعب الانساني سوى تمرين عصبي، ذلك هو الانخذال في الداخل وصرير الأسنان أمام مشهد احتراق المعنى وعودة العالم إلى سديمه الأول. وكأننا لم نضع شيئاً، وكأن لا شيء يمت لنا بصلة، وكأن تضاريس الوجود تحفرها كائنات مجهولة، ولسنا أنفسنا في كل الأحوال ولسنا غيرنا أيضاً.

نحن ومكتباتنا وصداقاتنا ومشروعاتنا يصيبنا عطب غير مفهوم.

اننا نُلغى هكذا وندخل في صمت الأواني ونستمع إلى تعاويذ من عالم آخر. لا شيء ينقذنا غير تاريخنا الصامت على رفوف المكتبة، ولا شيء يوقظ فينا الرنين غير عيون الأطفال اللامعة والقلقة مما حدث ويحدث. أطفال سنراهم يتهجون الحنين إلى البيت والممتلكات الصغيرة، أطفال تُشرع نوافذ أرواحهم، ويحطم زجاجها صوت القذائف وأزيز الطائرات. أطفال بدأوا يكتشفون أنهم في وطن في اللحظة التي فقدوه فيها. سنبحث إذن عن وطن نهديه لهم ونحن ندرك أن لا وطن هناك.

وما يأتي بعد هذا هو اليقظة، بين أربعة جدران. أحلام تمسك بالمفقودين والمتناثرين والمجهولي العناوين مثل طوفان. أولئك الذين كانوا يتماثلون للحضور ويتضح معناهم، فإذا بهم يختفون فجأة من مسار النهار والليل، وينتمون إلى مسار يتحكم به سلك الهاتف. انهم ملك لي الآن. أستعيد معهم كل الممكنات، ما كان وما يكون. أتملكهم في أحلامي كما لم أتملكهم في يوم من الأيام، فأتحرر من التحفظ والتأجيل وهنا، أنه سيكون في الأيام متسع. كم هو مفاجىء هذا الانقطاع: انقطاع الواقع عن كونه واقعاً. ان الأيام لتضيق وتضيق حتى لتغدو أمكنة وأزمنة لا كينونة لها غير ما نصطاده بالمصادفة في أحلامنا التي لا نملك سواها.

هل حلم ذلك الكاتب المصري كما حلمت؟ فاستحضر في تلك اللحظات كل ما كان يجب ألا يفقده، وبدأ يستنفده في يأسه من أي عون من أي كائن كان، ومن أي كلمة يمكن أن تكون، ومن أي مستقبل يمكن أن يكون؟

*

ضميرنا العربي لم يتكون بعد. فقتل الانسان لدينا دلالة مجد واعتزاز. وهل حفل الشعر العربي بغير تمجيد القتل وتعميم

صفاته حتى على أجمل العواطف؟ فالجمال يقتل، والنظرة تذبح، ودماء العشاق لذة ـ حتى تحولت كلمة القتل إلى كلمة محايدة تكتب وتسمع بسهولة بالغة. كلمة لا تعني نفي الحياة، ولا انقراض الممكنات، بل هي الحياة نفسها بمعنى من المعاني، وحين يتحول الضمير إلى هوة بهذا الاتساع فان ما يبتلعه لا حدود له.

إننا أسرى الجغرافيا وليس التاريخ، ومتى كان التاريخ لدينا سياقاً لتكوين إنسانيتنا؟ الجغرافيا التي نعرفها لا تتجاوز جغرافيا الكون كما هو في ذهن فلاح يعتقد أن لا شيء يوجد خارج سياج مزرعته، وكما هو في ذهن بدوي يرى جسده في مواجهة الفضاء الخالي بلا زمن. لا شيء يحدث في هذه الجغرافيا ليس لأنه لا يحدث، بل لأننا لا نتصل به ولا يتصل بنا بسبب ملموس. وهكذا فلا وجود للقيم حقاً، بل هناك وجود للمجسدات، لما هو متعين ضمن ما نحتازه. أي لا وجود للجنس البشري، ما دام الجنس البشري أبعد من أن نلمسه. وبعد كل هذا فان لضميرنا ـ الهوة مطلق حرية في أن يجمع بين المتناقضات ولا يتناقض، أن يكذب حتى الأقصى بدون خشية من فضيحة. لأن مجتمعاتنا هي مجتمعات لا اختلاف فيها، بل تماثل واتفاق، لا شجاعة فيها لأنها مجتمعات خوف وإرهاب.. وفي مثل هكذا مجتمعات يكون الكاذب هو الأكثر حرية. إذ من هو ذلك الذي يستطيع أن يشير إلى الأكذوبة وهو يعرف انه ليس حراً في تمييز القطة من آنية الطعام؟

إن معاناتنا تنبع من عجزنا عن إجبار الآخر دائماً على أن يكون مثلنا، أن يلغو بلغتنا، أن يكون قصبة جوفاء، أن يرى ما نرى، ولا نفهم كيف يمكن أن يكون هنالك حق في العالم غير حقنا، وأن هنالك شموساً في العالم غير شموسنا، وان هنالك من يحب ويعشق غير محبينا وعشاقنا.

ضميرنا هذا ليس ضميراً، بل أداة لخطاب إيهامي صناعته سك عملات لفظية بلا محمول واقعي، وزجنا وزج العالم في مماحكات لفظية. ولا يمكن أن تكتمل فضيحة مثل هذا الخطاب لأنه فوق المحسوسات وفوق المرئيات. انه يفلت من الفضيحة لأن الكد يقاس عليه، ولا يقيه شيء. انه امكانية لغوية.

خطاب بلا مرجعية من معرفة أو خبرة أو تاريخ. حطام عقل أكثر مما هو اللاعقل نفسه.

دعونا إذن نتذكر أحلامنا ونستعيدها كما يُستعاد ضباب نهارات الطفولة، أو غبش اليقظة على الكلمة التي تصف إنساناً وشجرة وحجراً وكوكباً. دعونا إذن نستدخل غيرنا إلى هذا الفضاء العاطفي الذي نمتد فيه ونسميه البكاء تارة والموت تارة أخرى.. أو نسميه المصير والحرية وكل ما يبعث على الحيرة والنشوة والاكتئاب.

في كلمة الغير العربية نفي للآخر. وحين نقول غير هذا إنما نعني المختلف عنه وضده وما ينفيه في وقت واحد. ألا يمكن أن يكون الغير امتداداً لنا، تنوعاً، إضافة، خبرة من نوع ما؟

ألا يغيّر هذا من مرجعية خطابنا ويحلّه في فضاء آخر أو يحلّله؟ الضمير امتداد للحرية، والحرية امتداد للروح، والروح امتداد للضمير. كم نحتاج من آماد يجب قطعها حتى نتفهم عذاب الآخر، ولا نكتفي بالبحث عن مبررات؟

في هذا القرن العشرين الذي يسرع نحو نهايته بعد الميلاد ما زالت صورة ذلك الكاتب المصري ماثلة وكأنه عاش بيننا، وشهد على وضعيتنا. نحن الذين نُنفى ويُقطع علينا الطريق ونُسلب حين يُقبض على ثقافتنا فجأة فإذا هي بلا حول ولا قوة، كيف حدث أن كل هذه القصائد والمهرجانات والجماعات والفواجع

لم تنبت ضميراً يمنع العربي من الانقضاض على العربي، ولا نقول يمنع الإنسان من الانقضاض على الإنسان؟!

*

تذكرت «بريستد».. والمفارقة أنه ينظر إلى الحضارة المعاصرة بوصفها إطلالة بدائية على فجر الضمير؛ ذلك الذي يرى أنه ولد في الشرق في حضارة مندثرة منذ آلاف السنين! فأين نحن إذن؟ لسنا حتى على حافة هذه الإطلالة الروحية التي اكتشفت في عصر القيم ميزان العدالة والحق مجرداً من عصبيات الجنس واللون والعقيدة. لسنا إلا هذا الغبش البدائي الذي لم يشهد بعد صراع الفصل بين السماء والأرض وسلخ النور عن العتمة، وان كان قد أدرجها في محفوظاته المدرسية. ما الذي أقوله لطفلي حين يسأل عن سبب هذا العماء، أعني القتل والعذاب والتشريد؟ وكيف أبرّر لصحوته القاسية هذا اللامعقول والمعكوس؟ كيف أفسر له فرح إنسان بعذاب انسان؟ وعن ماذا تدافع ثقافتنا؟

حتى وقت قريب كان لدينا ما ندافع عنه، أما الآن فنحن عراة تماماً كأنما جُرّدنا لسبب غير مفهوم من أسباب الوجود. إن علينا أن نهاجم فقط وأن نبحث عن معنى لنا في ألفاظ الحرب، فنمجد القتل والتدمير طافحين بالرغبات حتى الحافة بعد أن أصبحت هي الفكر والتحليل والمنطق.

في جغرافيا العري هذه، أعني في أقصى حدود اليأس رأيت مجتمعات كاملة تقايض نفسها بالخرافة وتعيشها طوال ساعات النهار فتقترب منها القيامة أو يوم الدينونة، ويخرج من أساطيرها من يقود أحلامها ويريح كآبتها ويلقي ظلّه على تعاستها، فتستبدل النشوة بالثقافة والرغبة بالعقل، وتحوّل العالم إلى فضاء تؤوله كما تشتهي. لسنا من هذا العالم أو

لسنا حتى من كائناته البسيطة التي تعيشه بعفويتها، فنحن محتشدون بالأعداء بسبب وبلا سبب، مكتظون بالغير، مفرغون من أنفسنا.. فكيف نقول أنفسنا؟ متوترون إلى درجة التحول إلى محض أجساد.. فكيف نفكر؟ ألسنا في وضعية المؤمن بأن أرواحاً شريرة تسكنه وأن مصيره معلق على طارد الأرواح؟

*

أعود إلى الكلمات الجميلة.. إلى العدالة والحرية والكرامة والضمير.. وأنقب عنها عبثاً بين هذا الحطام. أكانت مجرد كلمات فقط؟ أكانت إيهاماً اكتظ به خطاب المائة عام الأخيرة؟ أكانت لغة بلا معاجم فتطايرت في الريح قبل أن يُقيّض لها من يحفظها وينقلها من عصر المشافهة إلى عصر التدوين؟

وهل دخلنا عصر التدوين فعلاً؟

وظيفة الكاتب انتاج الأفكار، ومصير الأفكار أن تكون محل انهماك جماعي، ولكن ما بالنا كلما ارتفعت ضوضاء السياسي أصبنا بها، وانقطعنا عن التدوين وتحولنا إلى صنوج جماعية، وفي آخر الاحتفال نكون العاطلين عن الأفكار والضوضاء معاً؟

أليس صادقاً ذلك الذي ينسب ضوضاء المثقفين إلى سبب وحيد: زيادة الأرصدة المالية؟ أليس صادقاً ذلك الذي يعتقد بأن الثقافة هي الضحية الأولى في النصر والهزيمة على السواء؟

الحرية: كلمة لم تعد مفهومة ناهيك عن أن تكون مرجعاً. وقد نسأل ذات يوم عما إذا كانت من الدخيل أم المعرب. وربما قيل انها لا هذا ولا ذاك بل هي أنثى الحر الذي تتصف به المناطق الحارة. أو هي الحربة وقد تم تصحيفها..!

العدالة: ربما كان ما يقربها إلى الذهن أن يتعادل خصمان في مبارزة، أو يتناظر اثنان في الثأر، فيأخذ كل منهما بثأره من

الآخر بقتله. وهي على العموم من الكلمات الشائعة التي لم يعد لها رنين، ومن المفضل إرجاعها إلى الأصل أعني إلى الخرج الذي يوضع على جانبي الحمار وتحمل فيه البضائع.. فلا يتمايل الحمار وهو يسير.

الكرامة: اسم شائع بين أصحاب البقالات.. وقد اتخذه بائعو اللحوم أخيراً، فصرت تقرأه على اللافتات في المدن العربية، وفي الأحياء الفقيرة بخاصة. فهذه بقالة الكرامة، وتلك ملحمة الكرامة. وهنا مصبغة الكرامة.. وهكذا. والحقيقة أن مغزى اللفظ لم يعد واضحاً مثله مثل غيره من الألفاظ التي توحي بماضٍ مندثر.

الضمير: تبدو هذه الكلمة في اللغة العربية بلا مدلول. واستغرب حتى الآن من أين جاءت، وأفترض انها ظلت تعني ما يُخفى أو ما تنطوي عليه السرائر، ولم تدل في أي يوم على شعور الفرد بمسؤولية أخلاقية تجاه ما يحدث للجنس البشري. إن رنين هذه الكلمة يذكر بالضمائر في النحو العربي لا أكثر. هل لهذه الكلمة نفس الإيقاع في اللغات الأخرى؟ لا أدري.. وبالمناسبة.. هل لنا نحن نفس الإيقاع في اللغات الأخرى؟ لا أدري.

المبني للمجهول: لا بناء للمجهول إلا في اللغة. أما في الواقع فإنه لا الطير ولا الوحش ولا السمك يبني شيئاً للمجهول. الانسان العربي والكاتب تحديداً هو الذي يستخرج صيغة الفعل هذه بإفراط، ومن المتوقع أن تصبح هذه هي صيغة نصوص المستقبل. والسؤال هو: إلى أي مدى سيحافظ الكاتب العربي على احترامه لنفسه بعد أن يتحول كل ما يلمسه إلى مبني للمجهول؟



فهرس عام

أ

ب

ت

ل

م







عودة الاستعمار

من الغزو الثقافي إلى حرب الخليج

يسلط هذا الكتاب ضوء الفكر على ما حدث في الخليج وما حدث في العالم عشية وإبّان وغداة الحرب المدمرة «عاصفة الصحراء»، وما انطلق معها من تعبيرات شاعت ودلّت، على الوجهة التي سوف يسلكها العالم بقيادة الولايات المتحدة الأميركية كحقيقة واقعة فرضتها الولايات المتحدة ثم راحت تعمل على رفعها إلى مصاف الفكرة المثالية وكأنها اثيوبيا البديلة للقرن الواحد والعشرين.


1855131161